MAG - 811-33/04

سجل تحت رقم 5/1665
بتاريخ 31 ماي 2008
الرقم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب والعلوم الإنسانيةوالعلوم الاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

ابن خميس التلمساني شاعرا

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية

رسالة لنيل شهادة الماجيستير في الأدب العربي

إعداد الطالب:
علي بوزيزة

إشراف الدكتور:
محمد عباس

أعضاء لجنة المناقشة:

1- أ. د/ رضوان النجار	رئيسا
2- أ. د/ محمد عباس	مشرفا
3- أ د/ إبراهيم قدور	عضوا
4- د/ مختاري زين الدين	عضوا

السنة الجامعية: 1423هـ ـ 1424هـ

2002م - 2003م.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى

مدينة الفنّ والتاريخ عاصمة بني زيّان.

وإلى

روح شاعرها الحزين الذي طواه النسيان .

بلت قصـــور الحيّ وامتدّ زمـــان ألا هبّي من سباتك يا تلمسان

مآثر مـــا زال يكيد لـــها فطـــال بها الدّهر واهتزّت الأركـــان

هذي ديار الحلوي تشكو قـــدما ومثلها في العبّاد لـــها شـــان

ربـــاك الخضر قـــد أنبتت حجرا منازل باللآجور بناها الإنسان

أيـــن الوريط وأين مازخرت بـــه أمست تعاف ماءه الرّكد غزلان

صوامـــع تعالت في السّماء ناطحة يشدو بها للعلم والدّيـــن آذان

تلمسان كم أنجبت علماء وكـــم روى عن جمالها شاعـــر وفنّان...

ألا ياتلمسان عودي للمجد الذي بناه بالأمـــس ملوك وفرسان

فروح ابن خميس مازالت تطاردها بين الأحياء أشواق وأحـــزان

فللـــه جوهرة كاد الزّمان لـــها فليس لها بين الغانيات مكان

لفي نفسي حوائج كنت أكتمها فالرّوح شاعرة والقلب حيران

بوزيزة علي

المقدمـــة:

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات،والشّكر له على أن وفّقني على إتمام هذه الرسالة والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وآله وصحبه.

لقد أجمع كثير من العلماء والدارسين على أن تراث المغرب العربي غنيّ برجالاته ومعارفه، ثري بعلومه ومجالاته، ولا يزال حقله بكرا لم يحظ بالاهتمام اللائق الذي يلائمه، وميدانه فسيحا لم تسبر أغواره، ولم يمط اللّثام عن آثار أدبائه الذين أسهموا بقسط وافر في سموّ الفكر العربي ورقيّه ونمائه، وشاركوا بدلائهم في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية.

بيد أنّهم بقوا مغمورين وظلّوا مطمورين إمّا لظروف تاريخية أو استعمارية، أو لنزعة فكرية أو لنظرة ازدرائية استسصغرت جهودهم، وأبخست أعمالهم، فغدت ألقابهم في غير موضعها، وأشعارهم لا محلّ لها، يحسبها الدارس فنّا فإذا جاءها لم يجدها شيئا.وزادتها نزعة الصراع بين المشرق والمغرب وكعة.

ولقد كانت تلمسان إبّان العهد الزيّاني أول حاضرة في المغرب العربي، تمتلئ قصور ملوكها بالعلماء والأدباء والشعراء والفنّانين، وتعجّ مساجدها وزواياها بالفقهاء والزّهاد والأولياء، فكانت كما يشهد لها التاريخ ويعترف لها الأجانب والأعداء مستقطبة للأنظار مستهوية غيرها من الأمصار، تنيخ بها قوافل الحجّ والتجّار.

ولعلّ المميّزات الطبيعية العديدة التي منّ الله بها عليها، جعلتها موقعا عتيقا يصلح لإقامة الإنسان، ويضمن له تاريخا حافلا بالأحداث المجيدة والمآثر التليدة، فلقد سجّلت في تاريخ القرون الوسطى طروادة جديدة بصمودها لحصار دام ما يربو عن ثماني سنوات، ذاق فيه أهلها الأمرّين وتجرّعوا الوبال علاّ ونهلا. ويكفينا شهادة على هذه المنزلة ما قاله "لويس بياس ": « تلمسان في كلمة واحدة، كانت في هذه الفترة – حيث كانت عبقرية الأمم الأوروبية تنام في سبات عميق– إحدى المدن المنظّمة والمتحضّرة في العالم ».[1]

---

[1]- L. Piesse: Itinairaire de l'Algerie. Hachette, Paris, 1862.p239

لقد أنجبت هذه البلدة الطيّبة العديد من العبقريات والشخصيات التي برزت في شتى العلوم والمجالات، ومن بينها الشاعر "ابن خميس" شاعر المائة السابعة، الذي ذاع صيته في بلاد الأندلس والمغرب، واخترق اسمه آفاق المشرق. فقد أجلّه قاضي القضاة ابن دقيق وقال عنه: « إنّكم لم تنصفوه، وإنّه بمثل ما وصفناه لحقيق »[1].

لقد أصرّ الدّهر على ملاحقته، وأبت تلمسان إلاّ أن تظلمه، حيث فرّ من بني زيّان هاربا كآبق فكّ قيده، يسعى للنّجاة بروحه وقلبه معلّق بأبواب أسوار بلدته الموصدة، المحاصرة من المرينيين. فكتب له أن يحيا ما بقي من عمره في حرقة الشوق وألم اللّوعة وأنين الحنين.

ثمّ تجاهلته تلمسان وتناسته فأطلق اسمه على أحد شوارعها، هيّيء فيه محلّ لبيع الخمر وكتب على واجهته "مشروبات الشباب شارع ابن خميس "لكأنّ الشاعر الفقيه أبو نواس.

كما لقّبت إحدى مكتبات البلدية باسمه مدّة قصيرة ثمّ اختفى هذا الاسم وتوزّعت كتبها المختومة باسمه على مكتبتي المشور وبابا أحمد.

لعلّ هذه الأسباب وغيرها ما دفع إلى أن أتوجّه إلى هذه الشخصية بكلّ اهتمام وعناية وإلى شعره الذي تعرّض في غالبه إلى الضّياع، فكان اختياري «لابن خميس التلمساني شاعرا» موضوعا لبحثي.

وممّاحفّزني أكثر وجعلني أقف عند هذا الشاعر هو تلك النّظرة التشاؤمية للتراث المغاربي عموما، والتي زهّدت الكثير وزادتهم غنى عن التنقيب فيه. فعزمت على أن أدلو بدلوي في هذا المجال، وأن أسهم بجهد متواضع في خدمة التراث التلمساني خاصّة وإثراء المكتبة العربية عموما.

وأضيف إلى هذه الأسباب أمرين لا مناص من ذكرهما:

أما أحدهما فإعجابي بشخصية ابن خميس الشاعر الفقيه والعابد الزّاهد المعتزّ بأصالته العربية، ونخوته القحطانية، والمتعلّق بمسقط رأسه تلمسان.

ولحسن حظي – وسوء حظه- فقد أهداني أحد الأصدقاء قبل أن أختار هذا الموضوع ببضع سنوات كتيّبا موسوما « المنتخب النّفيس من شعر ابن خميس» للأستاذ عبد الوهاب

---

[1]- عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، ط/1- تلمسان مطبعة، ابن خلدون سنة 1365هـ ص 22.

ابن منصور، قد وجده بجانب طريق في كومة من الوثائق و الأوراق وقد كادت تمسسه نار. فتأكّد لي مرّة أخرى أنّ ابن خميس مازالت تطارده لعنة تلمسان، وإلاّ فكيف رماه صاحبه.

وأمّا الأمر الآخر فهو نظرة العلماء إليه وإعجابهم به، وإجلالهم لشعره، قال عنه محمد العبدري: « مارأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم، ولا من يتعلّق به سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن خميس»[1].

إن هذا البحث المتواضع يسعى بإذن الله إلى محاولة الكشف عن بعض الجوانب من حياة وأدب هذه الشخصية المغمورة من خلال المصادر والمراجع التي ترجمت له، كما يسعى إلى دراسة شعره والوقوف على أهم الأغراض التي نظم فيها، والقضايا التي تناولها، ويرمي إلى إبراز المميّزات التي طبعت شعره بطابع خاص يختلف عن شعر باقي شعراء عصره، فاتحا المجال على مصرعيه لدراسات أكثر عمقا، وأفضل إيضاحا لحياة ابن خميس وشعره ونثره، وزهده.

فاخترت أن تكون خطّة البحث مشتملة على مدخل وأربعة فصول، ألحت في المدخل إلى بيئة ابن خميس، فاختصرت الحديث مبيّنا امتياز الموقع الجغرافي، ومحدّدا مظاهر الجمال الطبيعي وأثرهما في بعض شعرائها الذين فتنوا بسحرها، وتغنوا بجمالها منذ يوسف الثغري إلى كلود موريس فاسحا المجال لابن خميس، ليكون رائدهم في التصوير، وأصدقهم في التعلّق والحنين.

أمّا الفصل الأوّل فعرضت فيه الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية التي سادت حاضرة تلمسان ومميّزاتها منذ العصر الموحدي إلى ظهور الدولة الزّيانية. فأشرت إلى الانقلابات السياسية والصراعات العسكرية وإلى مظاهر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة وعمران وانعكاس ذلك على الحياة الاجتماعية والفكرية.

وخصصت الفصل الثاني لحياة ابن خميس، حيث بيّنت نسبه وحددت مولده ونشأته، كما نقّبت عن مشايخه الذين استقى من معارفهم ونهل من معينهم، وتعرّضت بعد ذلك إلى رحلاته المختلفة حتّى وصوله غرناطة حيث مثواه الأخير، مبينا أثر ذلك في شخصيته الأدبية والعلمية ثمّ وصفت مصرعه بغرناطة وحدّدت تاريخ وفاته.

---

[1]- عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس- ص 24

ودرست في الفصل الثالث موضوعاته الشعرية مبتدئا بأهمّ غرض نظم فيه فالذي يليه من حيث عدد القصائد معتمدا على ما وجدته له من آثار في بعض المصادر والمراجع التي أرّخت له.

وتناولت الفصل الرّابع بالدراسة الفنيّة مكتفيا بأهمّ ما ميّز شعره من حيث اللّغة والأسلوب، واهتمامه بالغريب واقتباسه من القرآن الكريم، وتضمينه للشعر الجاهلي والاسلامي والأندلسي.

ثمّ تطرّقت إلى الصّنعة الفنّية وعرضت أهمّ المحسّنات البديعية والصّور البيانية من جناس وطباق وتصريع وتشبيه وموازنة وتشبيه واستعارة. ثمّ تجليات الموسيقى الشعرية فحدّدت أجراسها وإيقاعاتها وعناصرها بعد الوقوف على بعض النماذج الوجدانية. وأخيرا الأوزان والقوافي فنسبت كلّ قصيدة إلى بحرها وحدّدت قافيتها.

وأنهيت عملي المتواضع بخاتمة أثبتّ فيها أهمّ النتائج التي توصّل إليها من خلال البحث والتنقيب في المصادر والمراجع ومشافهة بعض أعيان مدينة تلمسان حول بعض الأماكن والأحداث والأساطير.

وقد اتخذت من المنهج الوصفي التحليلي سبيلا لكونه المناسب لدراسة شخصية أدبية قديمة، أثّرت فيها الأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية والظروف الاجتماعية وصبغتها النّزاعات الدّينية والتصورات الفكرية صبغة خاصّة، فأعطت نتاجا شعريّا لا يعدو أن يكون سجلاّ لأحداث تاريخية ومرآة لظروف اجتماعية وصورة لحالات نفسية.

لقد أوعزتني مشكلات مختلفة وقفت عائقا أمام إنجاز هذا البحث، وكدت أنسحب لولا أن تداركت الأمر، فواصلت المشوار مرّة أخرى بخطوات وئيدة، يشدّني أمل واحد ويحفّزني حديث نبوي شريف: « اطلب العلم من المهد إلى اللّحد ».

ومن العقبات التي واجهتني عدم وجود ديوان للشاعر فجلّ شعره مبعثر في مظان المصادر والمراجع القديمة، وبعضه غير محقّق وأحيانا يكتنفه الغموض والتحريف أضف إلى ذلك تميزه بكثرة استعمال الغريب.

لقد كان التوفيق بين التدريس في المناطق النائية والبحث أمرا صعبا والبعد عن الجامعة والعزلة مثبّطين للإرادة في الحصول على المراجع القديمة والبعيدة، حيث وفّقت في جمعها بإذن الله وبمساعدة بعض الزّملاء، سواء في جلبها أو تصويرها، أو نسخ ما يتعّلق بالموضوع خاصّة الموجودة في المغرب الأقصى .

و أهمّ مصدر اعتمدته كان كتاب المنتخب النّفيس من شعر ابن خميس للإستاذ عبد الوهّاب بن منصور، ونفح الطيب للمقّري والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي. وأهمّ مرجع سهّل لي السبيل ووضع لي معالم الطريق هو كتاب « ابن خميس شعره ونثره » للأستاذ طاهر توات. وكذلك دراسات وبحوث الأستاذ المهدي البوعبدلي -رحمه الله- في مجلة الأصالة.

أشكر الأستاذ المشرف الدكتور محمد عباس الذي منّ علي بالإشراف وصبر معي إلى آخر المطاف بهذه الأبيات:

مازلت تجزي بالنّصيحة والإرشاد ... وتحيي للعروبة مجدا في كلّ ناد

وتروي للطّلاّب قصـّة ضـاد ... فتوضح أسرارها من عهـد عاد

ليصفوّ في جمعـك كلّ لسـان ... ويصحو بنصحـك كـلّ فـؤاد

فتزهو هـذي المدينـة مطـربة ... بأقصى اليمامة شاديا فباب الجياد

وتحـذو كلّ البراعم أسلافـها ... لتبعثّ في القادمين عزّة أجـداد

وإنّني لا أنسى فضل الأستاذ غيتري سيدي محمد الذي ظلّ المرشد والمنبّه، والمساعد والموجّه في المواقف الصّعبة واللّحظات العسيرة، فأخصّه بالذّكر وأشكره جزيل الشكر.

وأشكر أعضاء لجنة اللجنة الذين تجشّموا عناء القراءة ووافقوا على مناقشة الرّسالة وإنّني أرحب بما يبدونه من سداد الرّأي بملاحظاتهم القيّمة وبما يقدمونه من نصح وإرشاد.

كما أشكر الأصدقاء والزّملاء وكلّ من أمدّني بيد العون، فأعارني مرجعا أو دلّني على عنوان.

هذا ما مكّني ربّي فإن أصبت فبفضله وإن أخطأت فمن نفسي.

المدخل

بيئة ابن خميس:

تقع مدينة تلمسان في الإقليم الغربي الشمالي من أرض الجزائر[1] تغفو على سفح جبل شاهق، يحضنها بعطف وحنان، فيحفظها من عثير الصحراء ويقيها لفح الجنوب، ويروّح عليها بأشجاره الكثيفة هواءً منعشا يحي النّفوس، و يجلب لها من بعيد نسيما بحريّا عليلا يوقظها من سبات خفيف. فتبدو كعروس تلمسانية مشرقة الجبين، وضعت على رأسها تاج الموحّدين، ووشت وشاح زفافها بريشة أسلافها الزّيانيين، فألهمت أرواح أبنائها ذوق الجمال و أضرمت في قلوب عشاقها نار الهيام. فهذا ابنها المقري يذكر محاسنها وجمالها، فيؤلّف فيها كتابه « أنواء نيسان في أنباء تلمسان »[2] ويصفها فيجيد حيث يشبّهها بحسناء ذات وجه جميل، أضحت الرّياض عذارها وأمسى الوادي معصمها متّخذا من الجسور أساور من فضّة وذهب،حيث يقول:

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل و الرياض عذاره
و كأنما واديه معصم غادة و من الجسور سواره[3]

ثم يقول ناثرًا : «فللّه تلك المعاهد، ما أبهج محيّاها وحاط بين كلاءته تلك المشاهد ما أطيب ريّاها، حين باكرها الوسمي[4]وحيّاها[5]»ثمّ يشبّه تلك الرّبوع بالبحر يجود برّه المكنون بعد أن حيّاها المطر وسقاها الغيث فأعطت من خيراتها ما تلذّ الأنفس وتشتهي العيون ففضلها عامّ ونعيمها ليس بالممنون، جمعت بين الدّنيا والدّين، وازّيّنت بشتى الفنون.يقول:

حيّا تلمسان الحيا فربوعها صدف يجود بدّره المكنون
ماشئت من فضل عميم إن سقى أروى ومنّ ليس بالممنون
أو شئت من دين إذا اقتدح الهدى أروى ودنّيا لم تكن بالدّون

---

[1] - محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1984 ص7

[2] أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرّابع عشر الهجري ج/2 الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب ط/ 2 -1985- ص221.

[3] محمد الطمّار :تاريخ الأدب الجزائري- الجزائر الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع 1981 ص300

[4]- الوسميّ: أوّل مطر يسم الأرض بالنّبات. حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصّعيدي- الإفصاح في فقه اللّغة ج/2 - ط/2 دار الفكر العربي ص 954.

[5] محمد عمروالطمّار: تلمسان عبر العصور - مرجع سابق - ص301.

ورد النّسيم لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بالفنون[1]

ثمّ ها هو ذا محمد بن يوسف الثغري التلمساني يفردها بروائع الجمال و بدائع الحسن في عبارات راقصة[2] تأخذ بالقلوب، بما أضفى عليها من رقّة ونعومة وتشابيه حلوة وصور بديعة، لأنّ بلده من أجمل البلدان، سحرت طبيعتها بصره وولّدت فيه حبّ الجمال وسعة الخيال، فجعل الحسن وقفا على تلمسان ومن ادّعاه في غيرهمن البلاد فإنّما ذلك مجرد دعوى زيّاد.

يقول:

أيها الحافظون عهد الوداد جددوا عهدنا بباب الجياد

وصلوها أصائلا بليال كلآل نظمن في الأجياد

في رياض منضدات المجاني بين تلك الربى و تلك الوهاد

رقّ فيها النّسيم مثل نسيبي وصفا النّهر مثل صفو ودادي

وزها الزّهر والغصون تثنّت وتغنّت عليه ورق شوادي

وانبرى كلّ جدول كحسام عاري الغمد سندسي النّجاد

وظلال الغصون تكتب فيه أحرفا سطّرت بغير مداد

واصفرار الأصيل فيها مدام وصفير الطّيّور نغمة شادي

كم غدونا بها للأنس ورحنا جادها رائح من المزن غادي

ولكم روحة على الدّوح كادت أن تريح الصبا لنا وهو غادي

رقت الشمس في عشاياه حتى أحدثت منه رقة في الجماد

كل حسن على تلمسان وقف وهو زاه على ربى العبّاد

ضحك النّور في رباها وأربى كهف ضحاكها على كلّ نادي

---

[1] م ن – ص ن

[2] د – رشيد مصطفاوي: تلمسان في الأدب العربي، بحث، مجلة الأصالة، السنة الرابعة ع 26 جويلية أوت 1975 ص354.

يدّعي غيرها الجمـــال فيقضي حسنها أنّ تلك دعوى زيـــاد[1]

ثم يدعونا لنرى منظر ربيعها وزهره البادي في الرياض كأنّه الدّرر في أجياد الحسنوات، مشيدا بدولة أبي حمّو الزّياني، الفائضة يداها جودا وسخاء، الباسطة بالأرض حقّا وعدلا،والسّاطية بكلّ معاند وقاسط، تحت سلطة صاحبها ذي المنصب العالي الرّفيع، حيث تاهت بفضله على كلّ بلدة حسنا وجمالا.

ويعرّج بنا الشاعر على واديها الشرقي، الصفصيف وقد حلّي بالأزاهر حيث حفّت به من كلّ جانب، وهو ينساب كالثعبان انسيابا غير منقطع أو يتلألأ كالحسام اللاّمع.

ثم يعرج بنا عاليا فيشرف من على تلّها الجنوبي الذي بدا عليها وكأنّه تاج حسناء فزادها بهجة وبهاء يقول:

قم فاجتل زمن الرّبيع المقبل تر ما يسرّ المجتني والمجتلي

وانظر إلى زمن الرّياض كأنّه درر على لبّات ربّات الحلي

في دولة فاضت يداها بالنّدى وقضت بكلّ منى لكلّ مؤمّل

بسطت بأرجاء البسيطة عدلها وسطت بكلّ معاند لم يعدل

سلطانها المولى أبو حمّو الرضى ذو المنصب السامي الرفيع المعتلي

تاهت تلمسان بدولة على كلّ البلاد بحسن منظرها الجلّي...

واعمد إلى الصفصيف يوما ثانيا وبه تســـل وعنـــه دأبا فاسأل

واد تـــراه من الأزاهـــر حالـــيا أحسن به عطـــلا وغير معطّل

ينساب كالأيم انسيـــابا دائـــما أو كالحسام جلاه كفّ الصّيقل...

واشرف على الشرف الذي بإزائها لتـــرى تلمسان العليّة من عـــل

تاج عليه مـــن المحاســـن بهـــجة حســـن بتاج بالبهـــاء مكلّل[2].

---

[1] محمد الطمّار ، تلمسان عبر التاريخ مرجع سابق، ص232.

[2] يحيى بن خلدون أبو زكرياء:بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور عبد الحميد حاجيات، الجزائر، الكتبة الوطنية 1980 ج/1 ص88.

أمّا الأمير عبد القادر فقد تغزّل بها في قصيدة رائعة عندما فتحها وأخرج منها الفرنسين سنة 1854م، فجعلها حسناء تمدّ يديها طالبة الصون بعد أن حافظت على شرفها وحسنها من كل طامع أو معتد لتبقى له حليلة تختال في ثوب العزّة وتجرّ رداء الصّمود:

إلى الصون مدت تلمسان يداها و لبت فهذا حسن صوت ناداها

وقد رفعت عنها الإزار فلج بـــه و يرد فؤادا مـــن زلال نـــداهـــا

و ذا روض خديها تفتق نـــوره فلا ترض من زاهي الرياض عداها

و يا طالما صانت نقاب جمالهـــا عداة وهم بـــين الأنـــام غـــداها

و كم رائم رام الجمال الذي ترى فأرداه منـــها لحظـــها و مناهـــا

و حاول لثم الخال من ورد خدها فضمّنت بما يبـــغي و شـــط مداها

فكنت لها بعلا و كانت حليلـــتي و عرسي وملـــكي ناشرا للواهـــا

و وشحتها ثوبا من العز رافـــلا فقـــامت بإعجـــاب تجر رداهـــا[1]

تلمسان جوهرة المغرب و غرناطة إفريقيا بثراها التاريخي استقطبت الباحثين و بفضل جمال محيطها ألهم الشعراء[2]. هكذا قال عنها و تغنى بها في القرن العشرين « كلود موريس روبار » فقال:

أغنيك تلمسان و لاأحد يوقف همّتي.

لأني أحبّك هل ترين؟

حبّ عصبيّا.

لنحبّ الدنيا كما أحبّك.

---

[1] الدكتور ممدود حقي: ديوان الأمير عبد القادر، دار اليقضة العربية بيروت، ط/2 1965 ص 38-39.

[2] Louis ABADID Tlemcen au passé retrouvé. Edition Jacques GANDINI France 1994 P5.

أقول هذا :

أحبّ أن أموت هنا و في هذا المساء .

بين الإخضرار و الأزهار

من أن أعيش مئة عام

في موضع آخر.[1]

تلمسان الشعر والموسيقى.

وتغني نساؤها الحوفي.

وهنّ يغسلن الصوف

لتجهيز العروس

في شلالات الوريط.

ويغسلن الثيّاب البيض والأرجل البيض.

يغنين للحبّ وخفقان القلب.

يغنين لبهجة تلمسان وللشابات الجميلات.

"تلمسان يا عالية ما أحلاك للسكنان.

فيك بنات الحضر وبنات القرغليين

فيك البنات اللاّمعات كالبلاّر.

ذوات العيون المحيطة بالكحل

ذات الحواجب المقرونة (بالحرقوس)[2]"

---

[1] المرجع نفسه-ص139 .

[2]- المرجع نفسه ص ن.

وقال عنها أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر : « تلمسان هي المدينة التي تمثل عظمة الجزائر العربية الخالدة وتذكرنا عصر بني زيان الذّهبي الذي تلألأت أنواره وتألّقت حضارته بصفة عديمة النّظير بهذا القطر، وموقع هذه المدينة بديع بين جبال خضراء ذات خمائل نضرة وبين سهول زبرجدية تتخلّلها المياه الجارية ترتفع 806 أمتار عن سطح الماء ولها طقس جميل وهواء معتدل ».[1]

حقّا إنّ موقع تلمسان لفي غاية الرّوعة، ممّا جعله تستحقّ لقب « المحروسة من قبل الآلهة ».فهي محميةجنوبا بطوق "لالاّ ستي" وتشرف على سهل واسع خصبقد ماج بالقرى والقبب.وإنّك لترى بعيدا عن هذا المنظر خطّا مرنا هو خطّا المرتفعات تلمح في أفقه بكلّ وضوح البحر في الأيّام الصّحوة.وإنّ تلك السلسلة الساحلية لا توقف الرّياح الرطبة الباردة بل إنّها تأتي بغيوم تهطل مطرا على السّهل ثمّ تواصل مورها نحو الهضبة حيث تسقط أمطارا أو تترل كنديف القطن منثورا على قمم جباله فتذيبه أيّاة الشمس ليغدو ماء زلالا يتفرّع جداول وغدران يسقي أشجار اللّوز والكرز فتتفتّق أزهاره فيبدو وكأنّه باقات ضخمة ذات اللّون الأبيض أو كالثلج قد نزح إلى السفوح والسهول.

وإنّ بقايا آثار المنصورة تختفي وراء أغصان الأشجار، وتجلو للعيان منارته وهي تكاد تنطح السحاب. فإنّها تلمسان كما قال أحد شعرائها: « بلد قد وهبتها الحمامة طوقها، وكساها الطاووس بريشها »[2].

كلمة بربرية معناها "الينابيع" وهي موقع قديم حمل اسمي "أقادير" و"بوماريا" اللّتان تشكلان الفصل الأول من تاريخها، فآثار المدينة القديمة نادرة لم يبق منها إلاّ الجزء الأسفل من سور قديم، وبعض الحجارات التي استعملت في بناء مئذنة أغادير وبعضها تحمل نقوشا وكتابات رومانية، ممّا جعل الباحثين يكادون لا يعرفون شيئا عن تاريخ المدينة خاصة خلال الفترة التي تتراوح بين انهيار الرومان وقدوم العرب سنة 671ق م.

---

[1] أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، الطبعة الثانية، نشر دار الكتاب البليدة (الجزائر)63 ص189.

[2] –تلمسان سلسلة الفنّ والثقافة، وزارة الأنباء والثقافة الشركة الوطنية للتوزيع، إسبانيا، مدريد، مطبعة ألتاميرا، روتوبيرس ش.م ديسمبر 1971 ص10.

وقد أتاح هذا الإدّعاء الفرصة لظهور أساطير جميلة وأضفى على مدينتهم شرفا عظيما، فهم يعتقدون كذلك أنّ آثار حوافر فرس الصحابي أبي المهاجر ما تزال واضحة بصخرة على مقربة من منبع "عين المهاجر" عند منحدر الجبل. كما أنّ سيدي عقبة مرّ بتلمسان التي كانت الممرّ الضروري إلى المغرب الأقصى والتي أصبحت فيما بعد أهمّ مدن المغرب الأوسط قبل أن تصبح عاصمة للزّيانيين فتصمد أمام حصار المرينيين ثماي سنين لتنجيهم امرأة أشارت على الملك أن يسمن ثورا بما بقي من مؤونة ثمّ يطلقه، فرآه المرينيون فاعتقدوا أن لا جدوى من الحصار، فولّوا الأدبار، وكثير من التلمسانيين من ينقل هذه الأخبار[1].

هذه تلمسان الساحرة المحمية بأولايائها الصالحين تجمع بين الفنّ والتاريخ، « مدينة الفرسان بماها وهواها وتلحيفة نساها ما يوجد في البلدان »[2] إنّها مسقط رأس ابن خميس ومربع صباه. فإذا كنا اليوم نعتني بدراسة شعره وكشف الأستار عن حياته، فإنّ ما يهمّنا الآن في هذا المجال هو الحديث عن الحالة السّياسية والإقتصادية و الثقافية و ما سادها من استقرار أو اعتراها من تغير أحوال، لأنّها تؤثر في حياته الخاصة بل و تكّون شخصيته الفنية و الأدبية، و ما الشاعر في حقيقة الأمر إلا نبتة أرضه و مرآة عصره.

لقد عاش ابن خميس في القرن السّابع الهجري مما يستدعي أوّلا التعرّف على أهم الأوضاع و الأحداث التي شهدها هذا القرن، و لعلّ ما يميز هذه الحقبة هو اضمحلال الدولة الموّحدية التي من بين ما تمخّض عنها قيام الدّولة الزّيانية بتلمسان.

---

[1]- عن بعض أعيان مدينة تلمسان.

[2]- تلمسان سلسلة الفن والثقافة مرجع سابق ص49.

الفصـــل الأول:
عصره

الحالة السياسية

الحالة الاقتصادية

الحالة الاجتماعية

الحالة الفكـــرية

الحالة السياسية:

استطاع محمّد بن عبد الله بن تومرت أن يؤسّس إمارة موحدية بالمغرب الأقصى على أنقاض إمارة المرابطين[1] ثم زحف نحو الشمال والشرق ليوسّع رقعتها لقد كان عالما جليلا، وفقيها مطلعا، وداعيّة موفّقا، وزاهدا قانعا، حيث خوّلته هذه الصفات لأن يرسي دولة إسلاميّة عظيمة، ويضع قواعد أمبراطورية شاسعة، ثم خلفه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الكومي التّاجري الندرومي، فشيّد صرح هذه الدّولة الموحدية الممتدة من ليبيا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، و من الصحراء الكبرى جنوبا إلى البيريني بالأندلس شمالا[2].

فلمّت شعث الأقطار و أصلحت شأو الأمصار وانضبط جميع الملوك تحت راية واحدة مستمسكين بالعروة الوثقى، حيث أقاموا العدل بين الناسو نشروا روح الصّفح و الرّحمة، ووفّقوا على الإصلاح جهودهم، فعلا شأنهم و ثبت ملكهم، و صحبتهم عناية الله و توفيقه فدانت لهم البلاد و رهبتهم العباد. « قد سجّلوا في سجلاّت وقائع اسبانيا الاسلامية التي أخضعوها دون عناء لعقيدتهم ولشكل حكمهم الخاص، انتصارات عديدة كأسلافهم المرابطين[3] ».

فلما طال عليهم الأمد استكانت هممهم و استهوتهم الملذّات و استدرجتهم الشهوات و عكفوا على اللّهو و العبث و تناسوا الواجبات، فدبّ فيهم الضعف و الوهن و سرى في نفوسهم الخوف و الوّجل.

---

[1] يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر–دار الطليعة للطباعة والنّشر– ط/1– 1965م ج/1ص113.

[2] : عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس– ط/1 مطبعة ابن خلدون، سنة 1365م /1944م ص10.

[3] – ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص:23.

وهكذاتأزّم الوضع بين السّادة و الأمراء فلم يستطيعوا حماية تخومهم، و لم يفلحوا في سدّ ثغور مملكتهم التي بدأت تتلاشى حصونها واحدة إثر واحدة و تتآكل أطرافها إمارة بعد إمارة.

و ما هي إلاّ سنوات حتى بزغت عليه الشمس من حيث غربت، و انهزموا شرّ هزيمة في موقعة العقاب المعروفة في التاريخ الإسباني باسم «لاس ناباس دى تلوثة- NAS LAVAS DE TOLOZA »* و ذلك سنة (609هـ/1212م) حيث انهزم الخليفة الناصر لدين الله انهزاما ذريعا مخلّفا وراءه مئتي ألف قتيل «وتدخل الدّولة الموحدية بعد ذلك في مرحلة جديدة من مراحل حياتها، مرحلة انحلال مضطرد وصراع داخليّ مستمر على انتزاع العرش وينتشر شمل القبائل الموحدية وتنهار قواها ومواردها الضّخمة تباعا سواء بالمغرب أو بالأندلس »[1].

لقد كانت هذه المعركة الحاسمة و الموقعة الفاصلة بداية نهاية الإمبراطورية الموحدية، فتفككت الوحدة و انفصمت العروة ووهن الأمراء و اشرأبت رؤوس الولاة و الرؤساء، و تحفّز العدوّ الذي أخذ على نفسه موثقا ليقذفنّهم في البحر أو ليعيدنهم من حيث جاءوا[2].

وكان عاقبة هذا الإضمحلال، ونتيجة هذا الضّعف أن ظهرت الدّويلات الثلاثة في المغرب العربي، حيث استقل بنوحفص في تونس، وتحصّن بنو عبد الوادي بالمغرب الأوسط، وانفرد بنو مرين بالمغرب الأقصى.

---

* يطلق اسم نافاس NAVAS في اللغة الإسبانية على الوديان الفسيحة أو الأراضي الوطيئة والمقصود هنا الوديان التي تنساب بين الجبال الشارات وقد وقعت هذه الموقعة في أحد الوديان القريبة من بلدة تولوثة TOLOZA ولهذا عرفت في المصادر الإسبانية باسم لاس نافاس دي تولوثة LAS NAVAS DE TOLOZA أمّا التسمية العربية فهي العقاب (يضم العين) نسبة إلى حصن أو قصر قديم مرتفع ينسب إلى الأمويين ما زالت بقايا هذا الحصن باقية حتى الآن كما لا يزال الاسم الاسباني نافاس دي تولوثة يطلق عل قرية هناك في ولاية جيّان jean تخليدا لذكرى هذه الموقعة. أنظر: مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب العربي في عصري الموحدين والمرينين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982 ص98. وانظر:
Henri Terrasse Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat Français.Casa Blanca.1949.p341.

[1] محمد بن عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس – ط/1- 1964 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر –القاهرة ص328.

[2] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، مرجع سابق، ص 12.

كان المرينيون قد شرعوا في هجوماتهم على تلمسان ابتداء من سنة 693هـ إلى أن حاصروها سنة 698هـ فأحكموا الحصار و شدّدوا الخناق و بنو بجانبها مدينة المنصورة حيث جثم بها يوسف بن يعقوب لا يبرحها و لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته[1].

امتدّ الحصار ثمانية أعوام و ثلاثة أشهر ذاق فيه أهل تلمسان الوبال علاّ و نهلا، وتجرّعوا من ويلات الحرب مرّا، و لكنّهم لم يفتحوا أبواب مدينتهم للمرينين الذين أرسلوا حشودهم لافتتاح أمصار المغرب الأوسط.

و في هذا المجال يقول محمد بن عبد الله التنسي في كتابه نظم الدّر و العقيان في بيان شرف بني زيّان. « و جاء يوسف بن يعقوب بجيوش تملأ الفضاء فاستولى على جميع أعمال تلمسان و لم يبق له غيرها، فبنى عليها مدينة مسورة شيّد فيها القصور و الحمامات و الفنادق و الأسوار، و سمّاها تلمسان الجديدة[2] و ضيق بتلمسان تضيقا لم ير مثله... وتمادى الحصار ثماني سنين وثلاثة أشهر و حرك الله تعالى في آخر تلك مدّة الولي الشهير أبا زيد عبد الرحمان الهزميري[3] من مدينة أغمات[4] حتى ورد على يوسف بن يعقوب، و هو في مدينته محاصرا لتلمسان، فكلّمه في الإنصراف عنهم، و رغّبه فيه غاية الترغيب فأبى إلاّ التصميم على ما هو عليه، فلّما يئس منه قام عنه مغضبا و قال: « يجيئ سعادا[5] يقضي هذا » و انصرف مغربا.

---

[1] محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، مرجع سابق- ص100.

[2] تلمسان الجديدة المشهورة باسم "المنصورة" قال يحي بن خلدون ("البغية" ج1ص121): "وشرع سلطانهم أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق في بناء منصورته"، أما أخوه عبد الرحمان ("العبر" ج7 ص196) فقال و ضرب يوسف بن يعقوب علها سياجا من الأسوار محيطا بها، و فتح فيه أبواب مداخل لحربها، و اختلط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سماها المنصورة"

[3] يقول ابن القاضي ("درة الحجال"ص354): عبد الرحمان الهمزميري الولي الصالح أبو زيد توفي بمدينة فاس بعد انصرافه من تلمسان و دفن عند مسجد الصابرين سنة 709هـ قيل في السنة التي تليها بعدها في أولها"

[4] أغمات مدينة صغيرة تقع على بعد40 كلم جنوب مراكش، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مج/1 ص225.

[5] مولى من العبدي الخصيان من موالي بن المليانى يسمى سعادة " في "العبر" (ج7 ص484)

وكان يوسف بن يعقوب قتل الفقيه العالم أبا علي المليانى[1] و استصفى أمواله، و من جملة ما أخذ له خصيّ اسمه سعادا، كان رباه أبو علي المليانى، فكان المليانى يقول له: « أنت أخي فلما أخذه يوسف بن يعقوب، صيره من جملة الخصيان المتصرفين بين يديه فلما كان يوم الأربعاء السابع من ذي القعدة من عام ستة بعد سبعمائة، دخل الخصي المذكور على يوسف بن يعقوب و هو قائم، فألقى الله في قلبه طلب ثأر مولاه، فوجأه بسكين في بطنه، فكان في ذلك له الحتف و لأهل تلمسان اللطف. ».[2]

و لما توفي السّلطان أبو سعيد عثمان في غرّة ذي القعدة سنة 703، خلفه ابنه أبو زيان محمد[3]فواصل مع قومه صمودهم في صبر و عزيمة قويّة متحملين المشاق رافضين الاستسلام.

وفي صبيحة يوم الأربعاء 7 ذي القعدة سنة 706 – (10ماي 1307)[4]. نزل على المحاصرين نبأ مقتل السلطان المريني[5]،كتباشير عيد جديد فتنفسوا الصعداء و استبشروا خيرا.

وهكذا قفل الجيش المريني إلى وطنه بعد أن دب الشقاق بين أفراد عشيرة السلطان المريني[6]فانقشعت الظلمة و كشفت الغمة و أفرجت الشّدّة على الزيانيين و راحوا يسترجعون ما ضاع من ملكهم في الشرق و يصلحون ما أفسدته الحرب، و يحطمون مدينة المنصورة التي بناها يوسف بن يعقوب.ثم عاودوا الكرّة وشدّدوا الحصار فأحكموا الوثاق إلى أن سقطت

---

[1] أبو علي المليانى: رجل من مغراوة، استبد بمليانة بعد منتصف القرن السابع الهجري ثم أجلاه عنها بنو حفص، فلحق بيعقوب بن عبد الحق المريني، فأكرمه و أقطعه مدينة أغمات، ثم استعمله يوسف بن يعقوب على جباية المصامدة فساء تصرفهم فيهم. أنظر التنسي تاريخ بني زيان ملوك تلمسان. ص133. قال ابن خلدون عن ذلك "العبر" (ج7، ص479): "وسعى به مشيختهم عند السلطان أنه احتجن المال لنفسه، وحاسبوه فصقوا السعاية، فاعتقله السلطان فأقصاه، و هلك سنة ست وثمانين"

[2] التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ص 133– 413.

[3] عبد الحميد حاجيات: أبو موسى الزياني، مرجع سابق، ص16.

[4] :محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، م س ص102.

[5] عبد الحميد حاجيات: أبوحمو موسى الزياني، مرجع سابق، ص16

[6] المرجع نفسه ص. ن.

تلمسان سنة 838ه 1337م في أيدي بني مرين وتمكّن أبوالحسن المريني من قتل الأمير ابن أبي تاشفين.[1]

لقد عاشت الدّويلات الثلاثة في المغرب العربي صراعًا مريبًا ظل بين مدّ وجزر، كلّ أمير يرى أنّه الأحق والأجدر بوراثة عرش الموحدين فيتأهّب لاسترداده ويتهيّأ لترميمه من جديد.

وكان بنو عبد الواد بين شقي الرحى تحوم بهم الأطماع من كلّ جهة، و تحدّق بهم المصائب و النّكبات في كل حين، فمرّة يتألّب الحفصيون ضدّهم و تارة يشن عليهم المرينيون هجماتهم و طورا تتآمر الدويلتان ضدّهم و أحيانا أخرى تتحالف بعض القبائل مع أعدائهم.

لعل هذه أهم الأحداث السياسية و العسكرية التي شهدها القرن السّابع الهجري على السّاحة المغربية عموما و التلمسانية خصوصا و التي أثرت في شخصيّة الشاعر ابن خميس وتركت بصماتها جلية في نظمه، فقد عاش الحصار و اتّخذ موقفا إزاءه بل كان سبب جلائه من بلدته، التي راح ينظم فيها قصائد الشوق و الحنين و يصوّر ما عاشته من أحزان إذ يقول:

لعشـــرة أعوام علـها تجرّمـــت إذا ما مضى قـيظ بـــها جاء إهراء

يطنّب فيها عائثـــون وخـرّب و يرحل عنـــها قاطـــنون و أحياء

كأن رماح النّاهـــبين لملكـــها قـــداح وأمـــوال المنـــازل أبـــداء

فلا تبغـــين فيـــها مناخا لراكب فقـــد قلصت منهـــا ظلال وأفيـــاء

وكم أرجفوا بـــها ثمّ أرجـــأوا فيكذب إرجاف ويصدق إرجـــاء[2]

ثم يبيّن ما حل بها من نكبة الحرب و مصيبة البؤس متسائلا: متى تنطفىء نار الحرب وتنقضي أيام التّعاسة والشّقاء، وهل يتيح الدّهر فرصة للعودة، معبّرا عن شوقه لصحبه و حنينه إلى دياره الأولى خائفا من أن يموت قبل أن يعود إلى مسقط رأسه ومرتع صباه.

فيا مترلا نال الردى منه مـــا اشتهى ترىهل لعمرالأندلس بعدك إنساء

---

[1] – د: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية – دار النهضة العربية بيروت سنة 1981. ص873.

[2] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، م س ص63 –64

و هل للظى الحرب التي فيك تلتظي إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفـــاء

و هل لي زمان أرتجي فيه عـــودة إليك ووجـــه البشر أزهر وضّـــاء

فوا حرّ بالي إن هلكت و لم أقـــل لصحبي بها الغـــر الكرام ألاهـــاؤا

و لم أطرق الدّير الذي كنت طارقا بليل و بدر الأفق أسلـــغ مسنـــاء[1]

الحالة الإقتصادية:

1- الزراعة:

لقد حبا الله تلمسان أرضا خصبة و سهولا واسعة، و مياه عذبة تنبع من سفوح جبالها الشامخة، فتتفرّع جداول وغدرانا متدفّقة لتسقي حدائقها الغناءة وقيعانها الجميلة، فتثمر أرضها خيرات كثيرة،وغلالا متنوّعة، تغني سكّانها عن الحاجة و تدرأ عنهم الفاقة.

قال عنها يحيى خلدون في بغية الرّواد:

« تحفّ بخارجها الخمائل الألفاف والأدواح الأشبه والحدائق الغلب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الفواكه والرّمان والتّين والزّيتون..وتنصبّ إليها من عل أنهار من ماء آسن تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها... ويسقي خارجها مغارس الشّجر ومنابت الحبّ ».[2]

وقال عنها الشريف الادريسي صاحب نزهة المشتاق: « تلمسان مدينة أزلية لها سور حصين متقن الوثاقه، وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور ولها نهر يأتيها من جبلها المسمّى بالصّخرتين...وهذا الوادي يمرّ في شرقي المدينة وعليه أرجاء كثيرة، وفواكهها جمّة، وخياراتها شاملة، ولحومها شحمية سمينة... »[3]

---

[1] : المرجع نفسه ص64.

[2] يحيى بن خلدون أبو زكرياء:بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: م س تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور عبد الحميد حاجيات، الجزائر، الكتبة الوطنية 1980 ج/1 ص86.

[3]: اسماعيل العربي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب "نزهة المشتاق" لأبي عبد الله الشريف الإدريسي، تحقيق وتقديم وتعليق، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1983 ص149-150. أنظر الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: د: إحسان عباس: لبنان بيروت، مكتبة لبنان ص135.

فلم تكن تلمسان تستمدّ من الأوطان الأخرى زرعا و لا ضرعا و لا خضرا و لا فاكهة، لذلك كانت موطنا طيّبا لقاطنيها و مقاما حسنا لزوّارها و وافديها.

استقرّ بها الرّومان فسموها «بوماريا» أي البستان و ترّبع بها الإسلام فصارت جوهرة مغربه حيث لمع اسمها و أصبحت ذات شأن في التّاريخ و صاحبة شأو في الحضارة، فشاركت في ثراء الدولة الموحدية و ساهمت في ازدهار حياتها الاقتصادية.

لقد اعتنى الموحدون بالفلاحة « فضبطوا مساحة مملكتهم و قسموها إلى فراسخ و أميال و أجروا عمليات الإحصاء العام للسكان، و حدّدوا المناطق الزّراعية و نقلوا المزارعين إليها ».[2]

ويقول الدكتور عبد الحميد حاجيات: « كانت مختلف القبائل الزناتية في المغرب الأوسط تقتطع أراضي التّل الغنية، فاستقلّت مغراوة بناحية الشلف و احتل بنو توجين جبل وانشريس، و بنوا راشد الجبل الذي أصبح يحمل اسمهم و بنو عبد الواد الأراضي التابعة لتلمسان ».[3]

فأغدقت تلمسان على الموحدين نتاجا وافرا و سلعا متنوعة، فكانت الأموال تتدفّق على خزينتهم تدفّقا عجيبا حتّى كانت تقدّر بالأحمال و الأثقال لا بالعدّ و الإحصاء.

و قد اهتم الزّيانيون فيما بعد بفلاحة الأرض و تربية المواشي و هذا ما يستنتج من كلام ابن خلدون حيث يقول: «احتازوا على الكثير من أرضها و الطيّب من بلادها، و الوافر للجباية من قبائلها، فإذا خرجوا إلى مشايخهم بالصحرا خلّفوا أتباعهم بالتّلول لاعتماد أرضهم، و ازدراع قوتهم و جباية الخراج من رعاياهم » .[4]

لقد كان المجتمع التلمساني مجتمعا إقطاعيّا ثريّا، خوّلته تلك الطبيعة المتنوّعة و الأرض الخصبة التي كانت تزرع فيها مختلف الحبوب كالقمح و الشعير و الزيتون و الكروم و بعض الزراعات الأخرى كالقطن و الكتان و قصب السكّر و الفواكه المختلفة والبقول[5].

---

[1] محمد الطمّار-تلمسان عبر العصور مرجع سابق، ص 65.

[2] عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية ج1 ص28.

[3] عبد الحميد حاجيات أبو حمو موسى الزياني، مرجع سابق، ص12.

[4] ابن خلدون: كتاب العبر: بيروت طبعة دار الكتاب 1959- ج7 ص159 -160

[5] د: عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي: مختصر تاريخ الجزائر السياسي والاجتماعي، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 ص133

2- التجارة:

أنشأ الموحّدون العلاقات مع دول أوربا كفرنسا و إيطاليا وبرموا الاتفاقيات لتأمين التجارة المتبادلة و تحديد أسسها بين الطرفين و كان لكلّ جالية أوربية قنصلها و فندقها لحماية بضاعتها و إقامة أفرادها في الإسكالات (الموانئ).

ولقد ورث الزّيانيون عن الموحدين فيما بعد ثراء اقتصاديّا و خبرة تجاريّة و بحكم شساعة مملكتهم وموقع مدينتهم التي أصبحت جسرا تجاريا بين الساحل و الصحراء و هي نقطة التقاء بين المشرق و المغرب لذلك مارس التلمسانيون التّجارة و امتهنتها بعض أسرهم فقد تأسّست شركات تجارية لعلّ أهمّها تلك التي شكّلها الإخوة المقّري و هم أجداد مؤلف "نفح الطيب[1]" يقول: « و كان التلمساني يبعث إلى الصّحراوي بما يرسم له من السّلع و يبعث إليه الصّحراوي بالجلد و العاج و الجوز و التبر».[2]

"إنّ أمثال المقّري هم الذين رتبوا الطريق من سجلماسة وأولاتا[3] بحفر الآبار وبتوفير الأدلاء للتجار إنّ أعضاء هذه العائلة العامة المؤلفين على شكل شركة، كانوا يستغلون عددا من المصارف. فكان البعض منها قائما في تلمسان وفي حنين يتسلم السّلع الأوربية ويرعى شبكة كاملة من العلاقات بموانئ البحر المتوسط - وبعضهم مستقرون في سجلماسة رأس خطّ قوافل الجنوب- يقومون بوضع الاتصال بين الأسواق السودانية والمغربية ويبلغون الأخبار عن أسعار السّلع والبعض الآخر مستقرون في أولاتا يتصرّفون في شبكة كاملة من عمال ومراسلين موزّعين في الساحل السّوداني كلّه"[4].

فراحت القوافل تجوب الصّحراء متوغّلة إلى أعماق إفريقيا موسقة بما جادت به أرض تلمسان لتعود محمّلة بالعاج و الذّهب. و هكذا راحت تلمسان تتمتع برواجها الاقتصادي، تغدو لها القوافل و تروح، فأصبحت سوقا يلتقي فيها التّجار من كل مكان، فتدر هذه التجارة

---

[1] مجلة الأصالة ع/ 26 جويلية 75 ص102.

[2] المقري - نفح الطيب. طبع القاهرة 1302 ج3 ص100.

[3] أولاتا بلدة في موريطانيا.

[4] إيف لاكوست- أندري نويشي-أندري بريان: ترجمة: اسطنبواي رابح ومنصف عاشور- الجزائر بين الماضي والحاضر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1984م ص119.

على أهلها أموالا طائلة فيطيب لهم العيش و تحلو لهم الحياة، و متى عظم الدخل عظم الخرج ومتى عظم الدخل و الخرج اتسعت أحوال الساكن و وسع المصر[1].

ويشهد على ذلك ليون الإفريقي حيث يقول: « تجّار تلمسان كثيرو النقود وأصحاب ثراء وإنصاف، بتواصيهم المنقطع النظير بالأمانة والنزاهة في معاملاتهم، وهم يجدون متعة كبيرة وبصفة عجيبة في المحافظة على المدينة مملوءة بالسّلع»[2].

«وقد كانت تلمسان خلال القرن السّابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) من أكبر أسواق السّلاح الوارد إلى أوروبّا عن طريق ممالك إسبانيا النّصرانية، وقطلونية خاصّة، ثم من الجمهوريات الإيطالية وموانئ فرنسا الجنوبية، وكان هذا السّلاح يرد إليها حيث يبادله تجارها بالعاج والأبنوس وتبرإفريقية بصورة خاصّة، والصّوف وريش النعام والريش الملون، والتّوابل والطرائف الأفريقية التي كان النّاس يقبلون عليها، وخاصّة قيساريتها، ثم إن تجارها اشتهروا بالذّمة والأمانة وحسن المعاملة فكانت سوقها هي المفضّلة عند عامّة التّجار».[3]

3- المعمار:

لعلّ أهمّ الآثار التي تركها المرابطون في تلمسان هو الجامع، في تاغرارت حيث بناه على بن يوسف ابن تاشفين سنة 1136م. فكان صورة نطقة للفنّ المعماري الإسلامي المغربي، فهو يشبه إلى حدّبعيد تصميم جامع قرطبة بما فيه من زخرفة بديعة ثمّ قبّة راسية على حنايا مضفورة، هذه القبّة الفاتنة والتي سمّاها "ج مارسي" "القبّة ذات التعاريف"[4].

إنّ آثار الموحدين في المجال المعماري لا تزال شاهدة إلى يومنا هذا على براعتهم وحذقهم بهذا الفنّ الذي ورثوه عن الأندلسيين فلقد أنشأوا المساجد و المدارس و القناطر

---

[1] – محمد عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور مرجع سابق– ص76– و انظر– المقدمة لابن خلدون ص 316

[2] –تلمسان ساسلة الفنّ والثقافة م س ص8

[3] – د. حسين مؤنس: تاريخ المغرب العربي وحضارته من قبيل الفتح الاسلامي إلى الغزو الفرنسي مج/2 دول المرابطين والموحدين والحفصين. –العصر الحديث للنشر والتوزيع –ط/1– 1412هـ–1992م، ص124.

[4] Abdelhamid BENACHENHOU-La dynastie Almoravide et son art E.P.A. Alger 1974 P78

voir Marçais (George) L'art de L'islam. Les monuments arabes de tlemcen P.49

والمارسانات و القصور و الحصون غير أن أغلبيها كانت بالأندلس. فلم تحظ تلمسان في هذا الجانب إلا باليسير كقصر المشور و ضريح أبي مدين الغوث بالعباد، و السور الذي يحيط بالمدينة، و المسجد الجامع بندرومة.[1]

و لنسمع إلى ابن خلدون و هو ينوّه بأعمال الموحدين التي قامو بها في تلمسان يقول: «صرف الموحدين بتلمسان نظرهم و اهتمامهم إلى تحصينها و تشييد أسوارها و حشد الناس إلى عمرانها و التّناغي في تمصيرها و اتخاذ الصّروح و القصور بها... و لم يزل عمران تلمسان يزايد و حطتها تتوسّع و الصروح بها بالآجر و الفهر تتعالى و تشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم و كرسيا لسلطانهم ».[2]

وقد دعّم يغمراسن تحصين تلمسان ببناء باب كشوطة و ما يليها من أبراج و أسوار وشيّد المشور، و جعله مقر الملوك الجديد كما بنى مئذنة الجامع الأعظم، و مئذنة جامع أغادير[3]. أمّا أبو سعيد عثمان فقد أسس مسجد أبي الحسن فجعله تحفة رائعة، تفيض رقة وجمالا تعبر عن نموذج الفنّ العبد الوادي في عصر عزّهم[4].شيدت مئذنته في الركن الجنوبي الشرقي، أما سقفه فقد نقش خشبه الأرزي أما أعمدته فهي من جزع علّتها تيجان بديعة، ومحرابه رائع الزّخرفة بل هو معجزة في الذّوق السليم والخيال المبدع ويظهر من روعة جماله وبهاء زخرفته أنّه خصّص للسلطان وكبار موظفي البلاط.

كما بنى أبو حمّو الأوّل المسجد الواقع داخل المشور، و هو كذلك يحمل طابع الفنّ العبد الوادي المتأثر بالفنّ الأندلسي كما شيّد قصبة كان يسكن فيها رهائن القبائل الخاضعة لسلطته و قد وصفها ابن خلدون بقوله: «و هي الغور الفسيحة الخطة، تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتّخذها للرّهن، و كان يبالغ في ذلك، حتى كان يأخذ الرّهن المتعددة من البطن الواحد و الفخذ الواحد و الرهط، و تجاوز ذلك إلى أهل الأمصار و الثغور من المشيخة

---

[1]-عبد الله علي علام: الله الدّولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة، مصر دار المعارف أكتوبر 1968 ص287 و 383.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة – بولاق – 1274هـ- ص179.

[3] - عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني، مرجع سابق- ص58 .

[4]- المرجع نفسه، ص59.

والسوقة، فملأ تلك القصبة بأبنائهم و إخوانهم، و أذن لهم في اقتناء المنازل و اتخاذ النساء، واختط لهم المساجد، فجمعوا بها لصلاة الجمعة، و نفقت بها الأسواق، و كان حال هذه البنية من أغرب ما حكى في العصور عن سجن ».[1] و يقال: إن هذه القصبة قد اندثرت و يجهل مكانها و مساحتها.

ولعلّ أهمّ مبنى أنجزه أبو حمّو الثّاني هو المدرسة التي أشاد المؤرخون بذكر جمالها حيث وصفها صاحب "زهرة البستان" فقال: « فأقيمت مدرسة مليحة البناء، واسعة الفناء، بيت بضروب من الصناعات، ووضعت في أبدع الموضوعات، سمكها بالأبغة مرموق، وبساط أرضها بالزّليج مرسوم...غرس بإزائها بستنتين يكتنفهما، ...وصنع فيها صهريجا مستطيلا، وعلى طريفيه من الرّخام خصّتان يصردان مسيلا، فيالها من بنية ما أبهجها... »[2]

و قد ذكر التنسي في نظم الدرر و العقيان أن أبا تاشفين الأوّل «كان عنده شجرة من فضّة، على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة، و أعلاها صقر، فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة، و بلغ الريح مواضع الطيور، صوّتت بمنطقها المعلوم حشاها، فإذا وصل الريح موضع الصقر صوّت فانقطع صوت تلك الطيور كلّها. »[3]

كما بنى الصّهريج الكبير بتلمسان الذي تبلغ مسافته 200م طولا و 100م عرضا وثلاثة أمتار عمقا و لا يزال ماثلا للعيان إلى حد الآن غير أنه ليس فيه ماء[4].لقدشهدت تلمسان في عهده نشاطا معماريّا جعلها تنتقل من طور البداوة إلى طور الحضارة[5].

« بها للملك قصورزاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصّروح الشاهقة والبساتين الرّائقة، مما زخرفت عروشه، وتمقت غروسه ونوسبت أطواله وعروضه، فأزرى بالخورنق وأخجل الرّصافة، وعبث بالسّدير»[6]

---

[1]- ابن خلدون: كتاب العبرج 7 ص215.

[2]- عبد الحميد حاجيات:أبو حمّو موسى الزّياني ص 182.عن زهرة البستان، لمؤلف مجهول مخطوط مكتبة ريلايندز بمانشيستر(انجلترا) رقم 283(قسم عربي) ورقة84.

[3]- محمود بوعياد: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق: نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 ص 141.

[4] -عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني- مرجع سابق، ص62.

[5] - أنظر: بغية الرواد، ج1 ص133، و كتاب العبرج 7 ص297.

[6] - بغية الرّواد ص86.

الصيف أو عند سقوط الأمطار لأنّ المطر يسيل فوق الثوب دون أن ينفذ فيه وإذا ما سقط المطر مدّة طويلة على الثوب ليس عليك إلاّ أن تنفضه فتجده جافا كأنّما لم يترل عليه سائل"[1].

كما اشتهرت المدينة بتقنيات أخرى للصناعات التقليدية كنقش النّحاس وصناعة الخزف المطلي، وأجهزة الخيل المزركشة واللّجوم والمهاريز ورأسيّات اللّجوم، أما الطرز فقد فرض نفسه في الحياة تماشيا مع العرف وعظمة حفلات الزفاف. فكان الصدار بدون أكمام والقفطان والتيجان المخروطة التي كانت تتحلّى بها النّساء و حتّى البنات الصغيرات كما كان الصائغون ينقشون الذّهب الرّفيع ويصنعون الحلي الفاخرة التي كانت العرائس تتزيّن بها "كالكرافش والمسكية" وهما من العقود و"الخرصة" أو القرط ذي الشكل المثلث.

وقد وصف ليون الإفريقي صناعا تلمسانين فقال: "كانوا مهيئين للحياة الرّغدة يستقبلون الأيام بكلّ سرور واطمئنان و لم يرغبوا في حياتهم هذه سوى في الأوقات السعيدة"[2].

و يبدو أنّ هذا الولع بالصناعة اليدويّة قد انعكس في أدب الشاعر ابن خميس بل كان هو أيضا صنيع اليدين حاذقا ماهرا فيما يصنعه بيده.لقد تحدّث عنه ابن خاتمة في كتابه "مزيّة المريّة على غيرها من البلاد الأندلسية» فقال: "فلقد صنع قدحا من الشمع أبدع في شكله ولطافة جوهره و اتقان صنعته و كتب بدائر شفته ما يلي محاكيّا لسان حال القدح:

و ما كنت إلا زهرة في حديقة تبسّم عني ضاحكات الكمائم

تنقلت من طور لطور فها أنا أقبل أفـــواه الملوك الأعاظم[3]

الحالة الإجتماعية:

على الرّغم من الإضطرابات السياسية التي شهدها المغرب العربي خلال القرن السابع الهجري فإنّ الحالة الإقتصادية عرفت ازدهارا أدّت إلى استقرار في الأوضاع الإجتماعية.

فلقد امتزج العرب بالأمازيغ منذ قرون في جلّ البلاد إلاّ في مناطقة محدودة أعاقت ظروفها الطبيعية ومسالكها الوعرة هذا الإختلاط، فاستعربت القبائل البربرية تحت راية الإسلام

---

[1]-تلمسان سلسلة الفنّ والثقافة ص56.

[2]- م ن ص ن.

[3]- ابن خاتمة الأنصاري: مزية المرية على غيرها من بلاد الأندلسية من رواية المقري في أزهار الرياض ج/2 ص302.

واستمسكت بتعاليمه السّمحة ومبادئه السّامية التي خوّلتها مقاليد زمام أمور سياستها بنفسها. فما شهدت البلاد ولا العباد نخوة جاهلية أو نزعة عنصرية تعكر صفو ذلك الإستقرار الإجتماعي أو تعرقل بناء صرح الحضارة بل شارك العنصران في البناء و التشييد و لعلّ هذا ما نجده قد أشار إليه ابن خميس في قصيدته التي مدح بها السلطان محمد الثالث النصري حيث يقول:

بيت بنوه سراوة حمير في الذّروة العليا و من صنهاج[1]

فحمير قبيلة عربية يمانية ينتمي إليها الشاعر و صنهاج قبيلة أمازيغية. وقد ساعد هذا التضامن والتآزر بين الناس على مواجهة المحن والمصائب، فلقد وقف سكّان تلمسان بشجاعة أمام حصار المرينيين أكثر من ثماني سنين عاشوا فيه الويلات و ذاقوا الأمرّين.

غير أنّ ذلك الرّخاء الإقتصادي الذي ذكرناه و تلك التّجارة الرّابحة جعلت من المجتمع التلمساني مجتمعا اقطاعيّا، تحيا فيه فئة رخاء فاحشا و تعيش فيه طبقة أخرى فقرا مدقعا وهذا ما يمكن أن نستنتجه كذلك من حياة ابن خميس فلقد ولد في وسط فقير دفعه إلى الإنزواء والتجرّد و العزلة[2]. و قد لمسنا في شعره هذا المعنى اذ تحدّث عن الفقر فقال:

الفقر عندي لفظ دقّ معناه من رامه من ذوي الغايات عماه

كم من غبيّ بعيد عن تصوره أراد كشف معماه فعماه[3]

و يجدر بنا في هذا المقام إلى أن نشير إلى ظاهرة لاحظها الرحالة العبدري أثناء وجوده بتلمسان فلقد نعت سكّانها بالشّحّ حيث قال: «و قد شاهدت جمعا من الحجّاج ينيفون على الأنف وردوها فوقفوا إلى ملكها فأعطاهم دينارا واحدا، و أغرب ما شاهدته من منصور صاحب مليكس وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين، وقفوا إليه عند بيته فكلّموه في عشائهم، فرحب بهم واحتفل في السّلام عليهم، ثمّ أخذ ينادي يا أهل الدّوار: هؤلاء ضيفان الله من يحمل

[1] – عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس– مرجع سابق، ص81

[2] –المرجع نفسه، ص48.

[3] – المقري: نفح الطيب ج7 ص231.

منكم إلى بيته أحدا منهم و جعل يكرّر ذلك كما يصنع المدربون أهل المدر فلما لم يجبه أحد منهم ولّى عنهم و وراءه جمع كثيف من الفرسان و هو سلطان تلك النّواحي.[1] »

يتسائل طاهر توات في كتابه ابن خميس شعره و نثره قائلا: «هل هذا شحّ؟ أم هي حالة ناتجة عن الحروب المتتالية، و الحصار الشديد الذي ضربه المرينيون على تلمسان و هو الذي أدّى إلى ذلك؟»[2] فيحاول أن يقول الحقّ و لو كان مرّا ـــ على حدّ تعبيره ـــ من خلال كلام العبدري و من بعض المظاهر و المعاملات الشخصية التي رآها و عايشها و سمع بها فيستنتج أن أهل مدينة الشاعر قليلو الكرم حتى مع الغرباء ثمّ يستدرك ويتراجع قائلا: « ونحن في حكمنا نكون قد وافقنا قول العبدري على المشاهد التي رآها بأمّ عينيه عندئذ، و على كلّ فالحروب المتتاليّة، والحصار الشديد الذي تعرّضت له المدينة، و الموقع الجغرافي الممتاز والمراحل التاريخية التي مرّت بها المدينة كلّ ذلك جعلها حسب تعبيرنا مركز ثقل تلتقي فيه عدّة خطوط و هذا مما يجعل سكان المدينة لا يستطيعون و هم محاصرون من قبل أعدائهم أن يلبّوا رغبات كلّ الزّائرين والعابرين. »[3]

و نظرا لصعوبة الحكم في هذه المسألة خشية التهمة و البهتان لا يسعنا إلاّ أن ندخل مع الطاهر توات في دائرة الشّك متسائلين: أيغني ألف رجل من الجوع دينار واحد؟ هل بلغ الشحّ ذروته؟ أم هل وصل الجوع إلى الأذقان؟ حتى أنّه لم يعد في أمّة محمد -صلى الله عليه و سلم - من يكرم ضيفان الله؟ و إذا كان ما شاهده العبدري في فترة الحصار؟ فلا غرابة لأنّه لا يمكن لمن يأكل القطط جوعا أن يكرم ضيفه بدينار. وإن حدث ذلك في غير الحصار؟ فلا يعدو ذلك أن يكون ضربا من البهتان والاحتقار لسكان تلمسان وإن اتّصف بعض الناس بالشّحّ كغيرهم من أهل المدر و الحضر و خرسان. و ليس في هذا قسم لذي ريب فقد سمعنا في هذا الموضوع قصصا و طرائف تحكي بخل التلمسانيين و الله أعلم بذلك و أدرى بنيّات عباده.

---

[1] - العبدري: الرحلة العبدرية أو المغربية ص9.
[2] - طاهر توات: ابن خميس شعره ونثره- ص 22.
[3] - م ن. ص 22-23.

الحالة الفكرية :

ذكر الدّارسون أن عصر الموحدين كان عصر حرب عقائدية بين الأمراء و الفقهاء. فلقد أحدثوا نهضة فكرية أثّرت على العقول بما استحدثوا من فكر إصلاحي في الدّين، و أصبح مذهبهم خليطا من مذهب الأشعرية في الكلام، و مذهب الشيعة المؤمنين بفكرة الإمام المعصوم[1]، و من قولهم بالإجتهاد، فقد أمروا بالرّجوع إلى الأصول من كتاب و سنة و دعوا إلى نبذ الفروع بل أحرقوا كتبه كمدونة سحنون و غيرها.

يقول بركلمان: «ومهما يكن من شيء، فسرعان ما اختمرت بين قبائل البربر في شمال الأفريقية جراثيم حركة جديدة[2] ذلك بأن التزاع الفقهي قد دعا إلى ظهور خصم خطير حمل راية الثورة على حكم المرابطين، فإلى جانب مذهب مالك الذي استعاد سلطانه في إفريقية أيضا بعدد تحرّرها من سلطان الفاطمين سنة 1049م طغت على المغرب من أقصاه موجة عارمة من التّعصّب للسنّة تذهب إلى تفسير جميع الآيات القرآنية المجسمة للذّات الإلهية تفسيرا حرفيّا وتعدّ كلّ مناقشة فيها بدعة أو هرطقة ».[3]

ويقول المراكشي: « و في أيّامه (يعقوب المنصور) ثالث خلفاء الموحّدين، انقطع علم الفروع و خاصه الفقهاء و أمر بإحراق كتب المذهب، بعد أن يجرّد ما فيها من حديث الرسول -صلى الله عليه و سلم- و القرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب يونس، و نوادر ابن أبي زيد و مختصره، و كتاب التّهذيب للبراذعي وواضحة بن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحوها، لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتى منها بالأحمال، فتوضع و يطلق فيها النّاروتقدّم إلى النّاس في ترك الإشتغال بعلم الرّأي و الخوض في شيئ منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة و كان النّاس على الظّاهر من القرآن والحديث»[4].

---

[1]- الطاهر توات : ابن خميس شعره و نثره، ص25.

[2]- أنظر R. MILLET les Almohades, Histoire d'une dynastie bèrbère, Paris 1929

[3]- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية – نقله إلى العربية نبيه أمين فارس منير البعلبكي: لبنان: بيروت دار العلم للملايين ص323-324.

[4]- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب- 1352هـ/1938 المغرب، مطبعة سلا- ص278 - 79.

ويبدو أنّ موقف الموحدين المتشدّد من علم الفروع وتفضيلهم للمذهب الظّاهري على غيره من مذاهب أهل السّنة أثار حفيظة فقهاء المالكية وراحوا يؤلّبون الخاصة والعامّة ضدّ الموحدين كما ازدادوا تعلّقا بالمذهب المالكي و تشبثا بعقيدة أهل السّنة فاضطر المأمون الموحّدي إلى أن يعلن إعلانا رسميّا في رسالة من إنشائه كان قد وجّهها إلى الخاصّة و العامّة بإبطال دعوى المهدي و عصمته،[1] يقول: «...و الذي نوصيكم به تقوى الله و الإستعانة به، والتوّكل عليه ولتعلموا أنّنا نبذنا الباطل و أظهرنا الحقّ، و أن لا مهدي إلاّ عيسى بن مريم الناطق بالصّدق وتلك بدعة قد أزلناها كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة، وأستقطنا وصفه ورسمه و قد كان سيّدنا المنصور رضي الله عنه[2] همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا، و أن يرقع للأمة الخرق الذي رقعناه فلم يساعده لذلك أمله، ولا أجّله إليه أجله، فقدم على ربّه بصدق نيّة وخالص طويّة. »[3]

وهكذا استطاع الفقهاء أن يتغلبوا عقائديّا و سياسيّا على الموحدين،[4] فطفقت الدّولة الموحدية تتخبّط في الفتن بين رجال الحكم و تتلاشى معنوياتها و قيمتها حتى نبذت تعاليم المهدي و عاد النّاس إلى الإشتغال بالفروع.

يتّضح إذن أنّ هذا الصّراع العقائدي قد ترك أثارا هامة في تطور الحياة الدينية المصطبغة بصبغة أدبية، أضف إلى ذلك تشجيع الخلفاء للأدباء و العلماء بل هم أنفسهم كان منهم العالم والفقيه والشاعر والأديب فأعطى ذلك إنتاجا ضخما ومتطورا وأضحى عصرهم عصر العلم والاجتهاد والأدب على شاكلة العصر العبّاسي في المشرق.فقد ذكر المرّاكشي في (المعجب)أنّ يوسف بن عبد المؤمن بن علي لمّا تضلّع في علوم الملّة طمح به شرف نفسه وعلو همّته إلى تعلّم الفلسفة وبدأ من ذلك بالطّبّ ثمّ تخطّى إلى ماهو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتب الأندلس والمغرب إلى أن اجتمع له ما لم يجتمع لملك من ملوك تلك البلاد.[5]

---

[1]- طاهر توات : ابن خميس شعره و نثره، مرجع سابق- ص24.

[2] - والد المأمون الموحدي.

[3]- عبد الله كنون: النبوغ المغربي ج2 ص47.3

[4]- طاهر توات: ابن خميس شعره و نثره مرجع سابق، ص24.

[5]- محمد رضا الشبيبي: أدب المغاربة والأندلسين-دار اقرأ للنّشر والتوزيع ط/2- 1984 ص71

سار أمراء الدّويلات الثلاث (المرينية، الزيانية، والحفصية) على نهج أسلافهم، الموحدين في تشجيع العلم و أصحابه، فأسّسوا المدارس العليا على نمط المدارس النّظامية في المشرق فازدهرت الحياة الفكرية و الثقافية بل وتنافسوا في تقريب العلماء والأدباء من مجالسهم فتعددت المناظرات العلمية وازدهرت الفنون في المغرب العربي[1].

و شهدت تلمسان تأسيس مدارس مختلفة لعلّ أهمّها تلك التي بناها أبو حمّو موسى الأوّل (707-718) وعيّن للتدريس فيها الأخوين ابني الإمام وكذلك التي بناها ابنه أبو تاشفين الأوّل (718-737) بجانب الجامع الأعظم و التي عرفت باسم المدرسة التاشفينية حيث كانت تحفة فنّية رائعة.[2]

فأصبح التعليم منتشرا في شتّى المدن والقرى كما أمسى طلبة العلم لا يكتفون بما يتلقونه من العلوم في مدينتهم بل راحوا يطوفون البلاد ويجوبون الأقطار للقاء العلماء المشهورين، كما توافد المثقفون من المغرب و الأندلس لخدمة ملوك تلمسان يمدحونهم و يستجدون نوالهم. «قد أفاد هؤلاء النزلاء بمواهبهم وثقافتهم اللاّمعة أسواق العلم والأدب والفنون فراجت رواجا لم ير من قبل بتلمسان وبمدن أخرى. »[3]

و لنذكر الآن بعض أسماء العلماء الذين كانوا ينيرون مدارس و مساجد تلمسان.

- 0 أبو إسحاق ابراهيم بن إسحاق التنسي (توفي سنة 680هـ).
- 1 أبو عبد الله محمد بن أبي مرزوق (629هـ توفي سنة 681هـ)
- 2 أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خلف التلمساني.
- 3 أبو الحسن التنسي أخو أبي اسحاق (توفي 706هـ).
- 4 أبو عبد الله محمد السلاوي (توفي 737هـ).
- 5 أبو زيد عبد الرّحمان محمد بن عبد الله بن الإمام (توفي 743هـ).
- 6 أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي.
- 7 أبو عبد الله محمد بن علي بن النّجار التلمساني (توفي 749هـ).

---

[1] – محمد عمروالطمّار: تاريخ الأدب الجزائري مرجع سابق ص164.
[2] – مجلة الأصالة ع26 جويلية أوت 1395ه 1975م –ص138.
[3] – محمد الطمّار: تلمسان عبر العصور م س –ص154

8- أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي (681 توفي 757هـ).[1]

بين أحضان هؤلاء العلماء ومن سبقهم من شيوخ ومعلمين وفي ظلّ معاركهم الفقهية، و تألقهم الفكري، و في ساحة ذلك الزّخم الأدبي والشعري وسبحات الصّوفية الذين كانت تعجّ بهم جوهرة المغرب العربي، نشأ فحل من فحول الشعر وبزغ عالم من أعلام الفقه وراوية من رواة اللغة و زاهد متصوّف. إنّه أبو عبد الله محمد بن خميس الذي سنكتشف حياته ونتعرّف على آثاره في الفصل الآتي.

[1] مجلة الأصالة عدد 26 (جويلية أوت 1975) ص139-152.

الفصل الثاني:
حياتـه

1- اسمه و نسبه:

هو « أبو عبد الله، محمد بن عمر، بن محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحميري الحجري الرّعيني التلمساني، ينمى نسبه إلى حمير و حجر ذي رعين، مساكن باليمن »[1]. فهو عربي خالص من عرب قحطان، أي عرب الجنوب الذين سكنوا الأراضي الجبلية عدّة قرون قبل ظهور أبناء اسماعيل على مسرح التاريخ[2]، و قد عبر عن هذا الانتماء في شعره مفتخرا بنفسه، متباهيا بنسبه كأن له عزّة قعساء تتقيّل تحت ظلالها الأنساب، حيث يقول:

و إن أنتسب فإني من دوحة تقيّل الأنساب برد ظلالتها

من حمير من رعين من ذرى حجر من العظماء من أقيالها[3]

وذكر نسبة العربيّ اليمنيّ في قصيدة أخرى مدح بها السّلطان محمّد الثّالث المعروف بالمخلوع مفتخرا مرّة أخرى بيمانيته، و بلعرب العاربة، مبيّنا مآثرهم و فضلهم على الآخرين من العرب المستعربة، ذاكرا تبابعة اليمن ملوكهم الأولى الذين خضعت لهم ممالك الدّنيا طوعا لا كرها إذ يقول:

إنّا بنو قحطان، لم نخلق لغير غياث ملهوف و منعة لاجي

نفري طلا الأعراب في الهيجا وفي الأوّار نقريهم على منهاج

بسيوفنا البيض اليمانية التي طبعت لحزّ غلاصم و وداج

منا التّبابعة الذين بباهم كانت تتيخ جباه كلّ خراج

لأمرهم كانت تدين ممالك الدّ نيا بلا جبر و لا إحراج[4]

---

[1]- عبد الوهاب بن منصور: ابن خميس شعره ونثره- مرجع سابق، ص15.

[2]- محمد عطية الأبراشي: الآدب السّامية- ط/2 عام 1974م -دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع بيروت -ص76.

[3] - عبد الوهاب بن منصور: ابن خميس شعره ونثره مرجع سابق، ص17.

[4]- لسان الدين بن خطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان: مج/2 مكتبة الخانجي بالقاهرة ص 528.

لعلّ افتخار الشاعر بنفسه هو الذي أجّج نار الغضب في نفوس أعدائه كابن هديّة القريشي حيث راح يحطّ من شأنه لمبالغته، ويتّهمه بالكذب وينعته بالخمول و الضّعة وذلك في معرض شرحه لأحد أبياته التي يذكر فيها نسبه في رسالته المشهورة «عجبا لها» والبيت سبق ذكره وهو قوله:

وإن أنتسب فإني من دوحة تتقيل الأنساب برد ظلالها

يقول ابن هديّة القريشي في شرحه لهذا البيت -وهو يكاد يتميّز من الغيظ- : «..هذا غلوّ مفرط، و كذب مورط وكذلك لعمري كلّ ما تقدّم من قوله جرى هذا المجرى...فأنت ترى ما في كلام ابن خميس هذا من القحّة و الجرأة على معاطاة الرّفعة التي ناطته بمناط الخمول والضّعة على أنّه لم يقف هنا وجعله حدّه، بل أضرب عنه وقال بعده: لو حطّت بقبائها الحجري رحلها، وساجلت بوفاء جدّها ذي رعين لاستوفت سجلّها».[1]

ولعلّ تحامل ابن هدية القريشي إنّما ينمّ عن عداء دفين وتعصّب قديم ناتج عن بغض جنسيّ بين أهل اليمن وأهل معدّ، وامتدّ هذا الصّراع إلى العصور الحديثة وقد حدث أن دمّرت مملكة دمشق بحرب مهلكة استمرّت ثنين؛ لأنّ معديّا أخذ فاكهة من حديقة يمني، وغمرت مدينة مرسية في الأندلس بالدّم سبع سنوات لأنّ معديّا قطف سهوا ورقة كرم ليمنيّ[2] «وقد سئل يمنيّ بالقرب من الكعبة: لقد دعوت لأبيك فلماذا لا تدعو لأمك؟ فأجاب اليمني: لأمي!! كيف أدعو لها وقد كانت من معد؟ ولا ندري لماذا اختارها أبوه زوجا له».[3]

2- مولده:

يرى جلّ الدّارسين أنّ ولادة ابن خميس كانت سنة 650هـ ، استنادا إلى ما ذكره الرّحّالة المغربي الكبير أبو عبد الله العبدري لمّا ورد تلمسان سنة 688هـ.

---

[1] - المهدي البوعبدلي -أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر العصور، بحث نشر بمجلة الأصالة: ع/49-50 (سبتمبر-أكتوبر 1977) ص9.

[2] - محمد عطية الأبرشي: الأداب السّامية، مرجع سابق، ص77.

[3] - م ن -ص ن.

ونحن إذا قمنا بعملية حسبلة بسيطة فإنّ الرّجل قد عاش ثماني وخمسين سنة حسب العبدري ونيّفا وستين سنة حسب ابن خاتمة الأنصاري. فأي الحقبتين عاشهما ابن خميس؟

وأمام هذا الإختلاف، نضيف تساؤلات أخرى، كم كان عمر الشاعر عندما توجّه الشيخ الصّالح أبو اسحاق التنسي من تلمسان إلى بلاد المشرق حيث اجتمع هنال بقاضي القضاة تقي الدّين بن دقيق الذي سأله: كيف حال الشّيخ العالم أبي عبد الله بن خميس؟ وجعل يحيله بأحسن الأوصاف ويطنب في ذكر فضله.....[1]

وأبو إسحاق هذا قد توفي سنة 680هـ[2] وإن لم نستطع الوقوف على تاريخ نزوله القاهرة فأغلب الظّنّ أنه قد رحل إليها قبل هذا التاريخ بسنوات.

فما مدلول كلمة شيخ هنا إذا كان عمر ابن خميس أقل من ثلاثين سنة؟ بل وكيف اكتسب هذه الشهرة في هذا السّن واخترق اسمه أفاق المشرق وقد أجمع المؤرخون أنّه نشأ في أسرة خاملة نابهة ووسط فقير.

كما أنّ شعره لا يعبّر عن فتوة جامحة ولا شباب طامح وإنّما يفصح عن حكمة شيخ وورع زاهد وزهد عالم جليل، فأغلب الظّنّ أنّ فترة من عمره قد اختفت وأن تاريخ ميلاده يكون قبل 650هـ وقد وجدنا صاحب معجم أعلام الجزائر قد أرّخ له من سنة 645هـ إلى 708هـ[3].

وهكذا يكون قد أيّد صاحب المزيّة ونأى عن صاحب الرحلة المغربية، وكذلك نعتقد والله أعلم بعلمه.

---

[1]-عبد الوهاب بن منصور: ابن خميس شعره ونثره م. س ص21.

[2]- عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني حياته وأثاره م.س ص42 وانظر : نيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي طبع على هامش الديباج المذهب الابن فرحون القاهرة 1351هـ ص35-37.

[3]- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص135. نقلا عن الذيل والتكملة. لابن عبد المالك طبع في بيروت -خمسة أجزاء.

3- نشأته:

نشأ الشاعر في بلدته تلمسان و ترعرع في ربوعها يتقيّل برد ظلالها و يستنشق نسيم صباها فهي مسقط رأسه و مرتع صباه يحنّ إليها فيقول:

وإني لأصبو للصّبا كلما سرت و للنّجم مهما كان للنّجم إصباء[1]

كما يذكر في قصيدة أخرى معالمها وهو شاب يلعب كبقيّة أترابه وأقرانه مشبّها نفسه بملك الملوك أرد شير بن بابك (أشهر ملوك الفرس) يقول:

و عهدي بها و العمر في عنفوانه وماء شبابي لا أجيبن و لا مطخ

قرارة تهيام و معنى صبابة ومعهد أنس لا يكذبه لطخ

كأني فيها أرد شير بن بابك ولا ملك لي إلاّ الشبيبة و الشّرخ[2]

فهو يعترف أنّه لا ملك له فيها إلاّ ريعان الشباب و هذا ما يوحي أنّه كان فقيرا و يؤكّد ما ذهب إليه الأستاذ عبد الوهاب بن منصور من أنّ الشاعر قد نشأ في وسط فقير لا يمتّ إلى العلم و المال بسبب، لا مأوى له إلاّ الفنادق ولا فراش إلا سلائخ الضأن.[3] وكذا ذكر ابن خلدون فقال: «فمن أغربها ما حدثني غير واحد من الثّقات أن الفقيه المذكور كان مسكنه بيت فندق وفرشه سلائخ الضأن لا غير».[4]

كما وصفه لسان الدين بن الخطيب فقال: «كان رحمه الله نسيج وحده زهدا وانقباضا... عاملا على السّياحة و العزلة».[5] لعلّ هذا الانزواء و التقلّل راجع إلى ظروفه الإجتماعية، و ظروفه هذه فقر طوّقه فجعله يجنح إلى الزّهد والتصوّف غير مكترث بمتاع الحياة. لا بل ربّما الزّهد هو الذي جعله يفضّل الفقر و يذكره غير مرّة يقول:

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: ابن خميس شعره ونثره- مرجع سابق، ص62.
[2] المرجع نفسه ص96- 97.
[3] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة م س ص 528.
[4] يحيى بن خلدون: بغية الرواد ج1 ص40.
[5] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة م س. ص529.

الفقر عندي لفظ دقّ معناه من رامه من ذوي الغايات عنّاه

كم من غبيّ بعيد عن تصوّره أراد كشف معمـــاه فعمـــاه[1]

ترى من يروم الفقر؟ و أيّ غبيّ أراد كشف معناه؟ أوليس المتصوفون وحدهم من طلّقوا الدّنيا و راموا الفقر. ثم يقول في بيت آخر:

يأبى ثراء المال علمي و هل يجتمع الضدّان:علم ومال[2]

فهو يفضل العلم على المال ويجعلهما ضدّان لا يجتمعان، و هكذا تلاحقه صورة الفقر مرّة أخرى طارقة خياله فيأبى إلاّ أن يكون فقيرا، وإن جرّدها هذه المرّة من معناها المادي ولكنّها في أعماق نفسه حيث يقول:

و أنا الفقير إلى تعلّة ساعة منها و تمنعني زكاة جمالها[3]

يرى طاهر توات أن وضعية أسرته البائسةالخاملة قد أثرت فيه من النّاحية المادية و النّفسية[4] فجعلته يفتخر بشعره متحدّيا به غيره مبيّنا غلبتهلفرسان اللّغة في ساحة البلاغة نافيّا عن نفسه الخمول يقول:

ألا قل لفرسان البلاغة أســـرجوا فقد جاءكم منّي المكـــافي المكافـــح

أيخمل ذكري عندهم و هو نابـــه و يخمط شجوى عندهم و هو شائح[5]

لم تذكر المصادر التّاريخية المطبوعة والمخطوطة شيئا عن أهله وأسرته إلاّ ما ذكره صاحب أعلام الجزائر عن أبيه «عمر بن محمد بن عمر بن خميس الحجري الرّعيني التلمساني، أبو علي :محدّث، فقيه، مشارك في كثير من العلوم ولد بتلمسان وبها نشأ وتعلم ».[6]

ولم تذكر شيوخه الذين أخذ عنهم ولا الأماكن التي تلقّى فيها الفنون وتلقّن مبادئ الفلسفة والعلوم، على الرّغم من أنّ بلدته كانت أنذاك تعجّ بالعلماء و الفقهاء و الأدباء.

---

[1] المقري، نفح الطيب ج7 ص231.
[2] المرجع نفسه، ج7 ص285.
[3] المرجع نفسه، ج9 ص339.
[4] الطاهر توات: ابن خميس شعره ونثره، مرجع سابق، ص44.
[5] المقري: نفح الطيب، مرجع سابق، ج9 ص339.
[6]: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر م س –ص135.

فلا يستبعد إذن أن يكون الشاعر قد أخذ العلوم الدينية والأدبية كالفقه، واللّغة والصّوّف والتّاريخ من علماء و شيوخ عصره كغيره من أبناء جيله الذين كانوا يحفظون القرآن في الكتاتيب والمساجد في مرحلتهم الأولى ثمّ يقبلون على دراسة النّحو واللّغة والأدب والفقه ثمّ يتخصصون في العلوم الدينية والعقلية والأدبية التي كان مقرّها بالمسجد الأعظم الذي كان شبه جامعة على شاكلة القرويين بفاس و الزّيتونة بتونس و الأزهر بالقاهرة[1] و قد أشار الشاعر إلى المرحلة الأولى من تعلّمه في شعره عند رثاء بلدته تلمسان في قصيدة رائعة مطلعها:

تلمسان لو أنّ الزمان بها يسخو منى النّفس لا دار السّلام و لا الكرخ[2]

إلى أن يقول:

وعهدي بها والعمر في عنفوانه وماء شبابي لا أجين ولا مطخ

معاهد أنس عطّلت فكأنّها ظواهر ألفاظ تعمّدها النّسخ

وأربع آلاف عفا بعض آيها كما كان يعرو بعض ألواحنا اللّطخ[3]

ولأن كتم التاريخ أسماء شيوخه، فقد باح لنا بأسماء بعض تلاميذه وأصدقائه ورواة شعره وجلسائه بتلمسان وفاس والأندلس حتّى وإن أحجم الشاعر عن ذكر أسمائهم حيث يقول:

وإخوان صدق من لداتي كأنّهم جآذر رمل لا عجاف، ولا بزخ

فمن تلاميذته الإمام النحوي محمد بن علي بن الفخار الجذامي، والفقيه الأديب البارع محمد بن إبراهيم بن عيشون البلفيقي. أمّا رواة شعره فمنهم القاضي الجليل عبد المهيمن الحضرمي، والأديب الكاتب يحي بن علي القيس، والقاضي محمد بن عبد الرزاق، والقاضي أبو البركات بن الحاج، والأستاذ أبو عثمان بن ليون والرّحالة المغربي، وحازم القرطاجني صاحب المقصورة الشهيرة، حيث كان كثير الافتخار به فيقول: "حازم وما أدراك ما حازم" يردّد ذلك في أكثر أوقاته[4].

---

[1] : الدكتور عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، نشر بمجلة الأصالة. عدد 26، (جويلية- أوت1975) ص133.

[2] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس م.س ص95.

[3] المرجع نفسه، ص6.9

[4] - م ن ص36.

ومن أصدقائه، أبو عبد الله بن حمدون، وأبو زكرياء بن عصام، وأبو غالب المغيلي قاضي فاس أمّا بالأنداس فكثيرون لعلّ أشهرهم أبو عبد الله بن رشيد السّبتي الذي أشاد بذكره في قصائده، وصديقه الوزير ابن الحكيم الذي رقّبه وبوّأه منزلة سامية وعرّفه بأصدقاء آخرين.

ويتّضح من خلال كل الدّراسات التي اهتمت بالشاعر وأرّخت له أن فترة طويلة من حياته قد أهملت أي حوالي ثلاثين عاما، لذلك لا يعرف عن وظائفه بتلمسان إلاّ ما ذكره ابن خلدون في «بغية الرّواد في ذكر ملوك بني عبد الواد»أنه تولّى رئاسة ديوان الإنشاء في أيّام السّلطان أبي سعيد بن يغمراسن (639هـ-703).فراح يمدح بني زيّان ويدافع عنهم بشعره ولكنّه انقلب عليهم أثناء الحصار و حمّلهم مسؤولية تشتيت النّاس بسبب تعجرفهم وقدّم لهم النّصائح ليرجعوا عن غيّهم فلمّا لم يستجيبوا له أوجس منهم خيفة فتسلّل هاربا مودّعا مسقط رأسه راحلا إلى سبتة.

4- رحلاته:

كانت البلاد الإسلامية متعددة الأقطار شاسعة الأمصار، تجوبها قوافل الحجّ والتّجار وكان الوضع السياسي لا يبعث على الاستقرار، فظهرت الرّحلات واشتهر الرّحالون كابن بطوطة و غيره.

وكان الشاعر ابن خميس صديقا حميما لهم يشكو إليهم همومه و أحزانه كأبي عبد الله محمد بن عمر رشيد الفهري السّبتي صاحب رحلة «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكّة وطيبة» وقد شاد به ابن خميس في إحدى قصائده حيث يقول:

وبابن رشيد تعوّذت من	هواه فقد زدت فيه افتضاحا
وقد ضاق صدري عن كتب	وأودعته جفن عيني فباحا
ويابن رشيد تعوذت من	خطوب أجلن عليّ القداحا
ألحّ الزّمان بأحداثه	فألقيت طوعا إليه السّلاحا
أخي وسمي أصغ مسمعا	لشجو حزين إليك استراحا

نأى بصديقك عـــن ربعـــه فكان له النّأي موتا صراحـــا[1]

وإنّي على فيـــح مـــا بينـــنا لأتبع ذاك الشذا حيث فاحـــا

أحنّ إليـــه حنـــين العجـــول ونوح الحمـــام إذا هو ناحـــا

وأسأل عـــنه هبوب النّسيـــم وخفق الوميض إذا ما ألاحـــا

ودرس علـــوم تـــهيـــم بهـــا غمرت الغدوّ بهـــا والرّواحـــا

رحلت لهـــا أيّمـــا رحلـــة كسحت المعارف فيها اكتساحا

بهرت رجـــال الحديث اقتداء وفقت رجـــال الكمال اقتراحا

فما إن جليس إذا قلت قـــال أو إن الخطيب إذا لحت لاحـــا

و لو لم تـــحجّ بهـــا مكّـــة لـــحجّ الملائك عنك صرحـــا[2]

كما ورد على تلمسان الرحالة المغربي أبو عبد الله العبدري الحاجي سنة 688هـ فأكثر مجالسة ابن خميس ومفارضتهوبه كان يأنس مدّة إقامته في انتظار ركب الحج،[3] وأعجبه حاله وذهنه وقد وجده في حال انزواء و تقلّل من الدّنيا وأثنى عليه مع ما اشتهر به العبدري من نقد لاذع وطنـــز مقذع وظنّ بالدّعوت، والألقاب وقال: إنّه لم ير بتلمسان من ينتمي للعلم و لا من يمتّ إليه بسبب سواه.

فلا ضير في أن يتأثّر الشاعر بعصره و بيئته، قال عنه لسان الدّين ابن الخصيب: «وكان يروم الرّحلة وينوي السّفر والقضاء يثبّطه، حدّثني شيخنا الرّئيس أبو الحسن بن الحباب، قال: بلغ الوزير أبا عبد الله ابن الحكيم أنه يروم السّفر فشقّ ذلك عليه، فكلّفنا تحريك الحديث بحضرته وجرى ذلك، فقال الشّيخأنا كالدّم بطبعي أتحرّك كلّ ربيع. »[4]

ونظرا لقلّة المصادر التي تحدّثت عن رحلاته ولضياع بعضها فإنّه لا يمكن حصر كلّ الأماكن التي زارها ولا معرفة سبب سفره إليها. فقد نزل فاس سنة 682هـ وحوكم بها بمحكمة الفقهاء لأنّه لم يتهبالزّندقة إلاّ أنّه استطاع أن ينجو بنفسه تحت جنح الظّلام عائدا إلى

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس، م.س ص93.

[2] م ن ص94.

[3] م ن ، ص23.

[4] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة م.س- ص528.

بلدته، حيث وجد قاضيها ابن هديّة القرشي[1] له بالمرصاد يصبّ عليه غضبه، ويتربّص به الفرصة للإيقاع به، بل ويتهمّه بالزّندقة نظرا لأفكاره الفلسفية، ولربّما بسبب افتخاره بنسبه العدناني لأن ابن هديّة القرشي كان قحطانيّا.

ثم ها هو ذا يقع في ورطة أخرى كادت تودي بحياته، وذلك خلال الحصار الذي ضربه المرينيون على تلمسان، فقد تحرّكت فيه عاطفة إنسانيّة بعدما شاهد من هول المجاعة و فناء النّاس فدعا العائلة الحاكمة إلى ما يرجى من صلاحها، فتقبل الدّخول في طاعة بني مرين وتبقى حاكمة للبلاد باسمهم، فأبى على ملوك تلمسان كبرياؤهم وعزّة نفوسهم أن يقبلوا مثل تلك الإهانة أو يجيبوا على هذه الضّعة، فباعوا وداده بخسا وأغروا بقتله خصومه سرّا، فجاء أولئك الخصوم لقتله صراحة بيد أنّ مكيدتهم فشلت فأقسموا لابن خميس أنّهم لم يكونوا يريدون إلاّ ممازحته، فشاور نفسه في هذه المداعبات الثعبانية فدلته أن لا نجاة في البقاء بجانبهم[2].

وقد عبّر عن ذلك في قصيدته السابقة مشيرا إلى السّبب الذي دعاه للهروب من بني زيان يقول:

و لولا سخائم قوم أبـــــوا ... إيابي ركبت إليك الرّياحـــا

أباحوا حماي وكم مـــــرّة ... حميت حمى عرضهم أن يباحا

ودافعت عنهم بشعري انتصارا ... فكان الجزاء جلاي المتاحـــا

أباعوا ودادي بخســـا فســـل ... أكان سماحهـــم بي رباحـــا؟

و أغـــروا بنفســـي طلابهـــا ... سرارا فجاءوا لقتلي صراحـــا

و آلـــوا يمينـــا على أنّ مـــا ... توهّمت لم يـــك إلاّ مزاحـــا

فشاورت نفسي في ذا، فما ... رأيت لي بغير الفلاة فلاحـــا[3]

---

[1] : أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي القاضي بتلمسان، والكاتب البليغ كان ينشئ الرسالة المطولة، شرح رسالة ابن خميس شرحا جيدا و توفى سنة 736هـ- أنظر تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن النباهي المالقي الأندلسي تحقيق: عبد الستار أحمد فراج الأصفهاني لبنان بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع د ت، ص134 - 135

[2] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس، م.س- ص24.

[3] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة م.س- ص542-543.

فغادر ابن خميس تلمسان قاصدا سبتة سالكا سبيل ملويّة والرّيف وقد وصف طريقه الشاق والمتعب وهو دون أنيس أو رفيق غير طيور القطا والذّئاب ولا يسمع إلاّ نباح الثّعالب فيقول:

أجوب الدّياجيرو و حدي، ولا مؤانس إلاّ القطا والسّراحا

و إلا الثعالب تحتسّ في يميني فتملأ سمعي نباحا[1]

يتساءل الدّارسون عن السّنة التي غادر فيها الشاعر تلمسان ويرى جلّهم أن رحيله كان في آخر سنة 703هـ ودليلهم في ذلك القصيدة التي مدح بها أبازيان ولي عهد أبي سعيد و الذي تربّع على العرش بعد وفاة والده في آخر شهر ذي القعدة سنة 703هـ و هذا ما يعتقده الأستاذ عبد الوهّاب بن منصور في دراسته لابن خميس، وقد وافقه على ذلك الطاهر توات مثيرا للشّكّ في تاريخ كتابة القصيدة، إذ يقول: «نحن مع الباحث في رأيه إلاّ أنّنا نريد أن نقول: إنّه من الممكن أن يكون الشاعر قد مدح أبازيّان قبل تربعه على عرش مملكة تلمسان بمدّة طويلة أو قصيرة وهو و ليّ عهد هذه المملكة ».[2] ويبدو من خلال قراءة القصيدة أنّه محقّ في قوله، وذلك لسببين: أوّلهما أن أبازيان قد تولى الإمارة وحصار المرينيين مضروب على الأسوار، والقارئ للقصيدة لا تستوقفه إشارة أو تلميحه لهذا الحصار، وما يحقّ لشاعر فحل أن يغفل عن ذلك.

وثانيهما:أنّ ابن خميس كان خلال هذه الفترة في خلاف مع الزّيانيين حيث رضي لهم الإستسلام للمرينيين، فكيف له أن يمدح أميرهم وهو معهم في خلاف خطير، وهم منه على ضيق مرير يتربّصون به المكائد أو القتل.

1.في سبتة:

نزل الشاعر مدينة سبتة قصد الإقامة والتّدريس فقد أعجب بها واستحسن منها ماءها وبحرها ومناخها، فقدّم بين يدي أميرها طالب العزفي قصيدته التي يمدحه فيها مشيدا بأمرائها راثيّا تلمسان هاجيّا ملوكها يقول:

تركت لميناء سبتة كلّ نجعة كما تركت للعزّ أهضامها شمخ

وآليت أن لا أرتوي غير مائها ولو حلّ لي في غيره المنّ والمذخ

---

[1] المرجع نفسه، ص543.

[2] طاهر توات: ابن خميس شعره و نثره، م.س- ص6.5

وحسبي منها عدلها و اعتدامها ولجرها العظمى وأريافها النّفخ[1]

ثم أجاد في مدح العزفيين، وأثنى عليهم،ورد إليهم المفاخر، وجعلهم أهل المكارم و المآثر.

وأملاكها الصّيد المقاولة الألى لعزمهم تعنوا الطّراخمة البلخ

كواكب هدي في سماء رياسة تضيئ فما يدجو ضلال ولا يطخو

ثواقب أنوار ترى كلّ غامض إذا النّاس في طخياء غيهم التخّوا

وروضات آداب إذا ما تأرّجت تضاءل في أفنائها الرّمخ

و أبحر علم لا حياض رواية فيكبر منها النّضح أو يعظم النّضخ

رياسة أخيار، وملك أفاضل كرام لهم في كلّ صالحة رضخ

أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد يساد بها إلاّ وأنت لها سنخ

بني العزفيين أبلغوا ما أردتم فما دون ما تبغون وحل و لا زلخ

و لا تذروا الجوزاء تعلو عليكم ففي رأسها من وطئ أسلافكم شذخ[2]

لقد أراد ابن خميس من خلال مدحه لبني العزفي كسب موّدة أهل سبتة، وغنم عطفهم بعد أن رمته الأيام بالمصائب والمحن وأبعدته عن الأهل والوطن. «لكنه ألفى في هذه المدينة من مكر الماكرين وكيد الكائدين، ما أقضّ مضجع غريب مثله، وجعله يرحل عنها سريعا لا يلوي على شيئ »[3] فقد تحرّش به العالم النّحوي ابن أبي الرّبيع الذي أوعز إلى طلبته أن يلقوا عليه أسئلة لإعجازه فأجابهم :أنتم عندي كرجل واحد، يعني أن ما سألوه إنّما تلقّوه من شيخهم ابن أبي الرّبيع. وقد تقدم إليه أصغرهم سنا وعلما وقال له: إن كنت بالمكان الذي تزعم، فأجبني عن هذه المسائل من باب علامات الاعراب التي أذكرها لك. فإن أجبت فيها بالصّواب لم تحظ بذلك في نفوسنا بالنّظر إلى تعاميك عن الإدراك والتحصيل وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد وهي: أنتم يا زيدون تغزون. أنتن يا هندات تغزون. أنتم يا زيدون ويا هندات تغزون. أنت يا هند تخشين. أنتن يا هندات تخشين. أنت يا هند ترمين. أنتن يا هندات ترمين. أنتن يا

[1] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس م.س- ص101.
[2] م ن ص101- 106.
[3] م ن ص30.

وجد رجلا «كبير النّفس واسع الإيثار عالي الهمة، بليغا أديبا شاعرا... مؤثرا لأهل العلم والأدب مهتزّا للمديح، كهفا للغريب، برمكي المائدة، مهلبي الحلوى ريّان من الأدب، وأحيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، وأفرط في اقتناء الكتب حتّى ضاقت قصورها عن خزائنها."[1]

فتقارب الرّجلان لمّا توافقّا وتصاحبا لمّا ترافقا. «فتعارضا حقل المجد، وتباريا في الرّفد، والحمد، فأذن له ذو الوزارتين بأخلاف برّه وإكرامه، وخلع عليه ابن خميس أفواه نثره ونظمه فله فيه القصائد التي حلّت بها لبّات الآفاق وتنفّست عنها صدور الرّفاق»[2] يقول :

ولــولا جوار ابن الحكيــم لما فات نفسي من بني الدّهر إقماء

حماني فلم تنتب محلّي نوائب بســوء و م ترزأ فــؤادي أرز اء

وأكفاء بيتي في كفالة جاهــه فصــاروا عبيدا لي و هم أكفــّاء

دعاني إلى المجد الذي كنت آملا فلم يك لي عن دعوة المجد إبطــاء

وبوّأني من هضبة المجــد قلعــة يناجي السّها منها صعود وطأطاء

وإخوان صدق من صنائع جاهه يبادرني منهــم قيــام و إيــلاء

سراع لما يرجى من الخير عندهم ومن كل ما يخشى من الشرّ أبراء

لقد حمىابن الحكيم الشاعر من المصائب والمؤامرات التي كانت تحاك ضدّه أينما حلّ وبوّأه مكانته العلميةالأدبيّة حتى صار النّاس عبيدا له وهم في منزلته يطيعونه و يحبّونه ولا يسيؤون له ودعاه إلى المجد الذي كان يأمله وعرّفه بأصدقاء جدد .

ويقول في قصيدة أخرى مادحا ابن الحكيم بمناسبة هدية قدّمها له :

خوّلتــني ما لــم تسعه يدي فأصابني مــن كثره غمــت

شتّى أياد كلّمــا عظمــت عندي تلكّأ خاطري الــهتّ

---

[1] المرجع نفسه ج2 ص445.

[2] ابن خاتمة الأنصاري مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية رواية المقري في أزهار الرياض.

يعي لساني أنّهـا عظمـت ويضيق عن شكري لها الوقت

وطأت لي الدّنيـا فلا عوج فيما أرى منهـا ولا أمـت

بالغت في برّي ولا نسـب أدلي إليـك بـه ولا مـتّ

3 – في مالقة و ألمريه :

لم تذكر المصادر الأسباب التي دعت الشاعر لزيارة مالقه والتي سبق له أن مرّ بها عندما كان قاصدا غرناطة فلربّما أراد التّجوال، لأنّه كان كالدّم بطبعه يتحرّك في كلّ ربيع على حدّ قوله ،أو لأنّه أعجب بجمال المدينة فأراد أن يستمتع بمناظرها فقد مرّ بها في الأول على عجل .

أمّا المرية «والتي كانت منذ القرن السّابع الهجري الميناء التجاري الأوّل في الأندلس، الذي يتعامل مع الدّول المسيحية إذ كانت تصلها السّفن من أرغون والجمهوريات الإيطالية ومن أقطار أخرى محمّلة بالبضائع فتفرغها في المرية وتحمل بضائع أخرى أندلسية»[1] فقد زارها سنة 706هـ إذ كان يرسله ابن الحكيم إلى خادمه وقائد بحريته أبي الحسن بن كماشة الذي أكرمه إكراما يليق بمقامه وصار صديقا له وفي هذا يقول ابن خاتمة : «وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبع مئة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن ابن كماشة من خدّام الوزير ابن الحكيم، فوسّع له في الإيثار و المبرّه، وبسط له وجه الكرامة طلق الأسرة».[2]

وقد مدح الشاعر ابن حكيم بقصيدة تعرّض فيها لمدح القائد ابن كماشة، ومطلعها :

العشيّ تعيا والنّوابـغ عن شكر أنعمك السّوابغ

ورسائل ابن كماشـة مـع كلّ بازغة وبـازغ

تأتي بما تهـوى النّعـا نغ مـن شهيّات اللّغالغ[3]

---

[1] د:عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية ط1 1969 دار بيروت لبنان ص98.

[2] ابن خاتمة الأنصاري: مزية المرية رواية المقري في أزهار الرياض وانظر كتاب تعريف الخلف برجال السلف، تأليف أبي القاسم الحفناوي –مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة ط2 1405هـ 1985م –القسم الأول ص377.

[3] المقري: نفح الطيب م.س– ج5 ص361 طبيروت1968 وانظر الدرر الكاملة لابن حجر العسقلاني ج4 ص199 وبغية الوراد ج4 178 و188.

5- وفاته :

لم يكن ذلك العيش الرّغد، وتلك المنزلة السامية التي تبوّأها ابن خميس بغرناطة عند صديقه ابن الحكيم لتهدّئ من شوقه أو تخفّف من صبابته لبلدته ومسقط رأسه فراح يتوق إليها في كلّ حين ويبعثها رسائل الشوق و الحنين.

سل الرّيح إن لم تسعد السفن أنواء فعند صبـــاها من تلمسان أنباء

وإني لأصبو للصبا كلّما ســـرت وللنّجم مهما كان للنّجم إصباء

وأهدي إليها في كلّ يـوم تحيّة وفي ردّ إهداء التحيّة إهـــــداء[1]

آملا أن يأوب إليها يوما .

وهل لي زمان أرتجي فيه عودة إليك ووجه البشر أزهر وضّاء[2]

ثمّ عزم على العودة إلى وطنه، وقد شقّ ذلك على صاحبه فأجابه :أنا كالدّم بطبعه يتحرّك في كلّ ربيع .

وكانت الأندلس أنذاك تعيش اضطرابا سيّاسيّا خطيرا أوعز للبعض أنّه سبب تصميمه واستعجاله بالرّحيل، غير أن القدر كان أعجل وأسبق .

و يقال :إنّ آخر ما صدر من الشاعر هذا البيت .

لمن المنازل لا يجيب صداها محيت معالمها وصمّ صداها[3]

هذا البيت أراده أن يكون مطلع قصيدة يمدح بها صديقه ابن الحكيم بمناسبة عيد الفطر ولكنّه لم يقو على أن يزيد شيئا، ونضبت القريحة، وسكت عن الشّعر اللّسان، وانقضى شهر رمضان وفي هذا يقول ابن خاتمة الأنصاري:«فأشار معناه إلى معناه وأذن أولاه بحضور أخراه » ثم وصف مصرعه وصفا مؤثرا فقال: « وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم عيد

---

[1]: عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس م.س- ص63.

[2]: القري: نفح الطيب ج7 ص296 – طبع دار صادر بيروت 1968 –تحقيق إحسان عباس.

[3]: المرجع نفسه، ج 5 ص362.

الفطر مستهلّ شوال سنة ثمان وسبعمئة وهو ابن نيّف وستين سنة وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم»[1] ويرجع سبب قتله إلى الأحقاد التي كانت تكنّ ضدّ الوزير ابن الحكيم. والدّارس لشخصيّة ابن خميس يمكن له أن يؤكّد هذه الحقيقة لسببين :

1 إن الرّجل كان زاهدا متسامحا، يتجلّى حلمه في عدم حقده، ومكره لمن عادوه، بل كان في كلّ مرّة يفرّ منهم خوفا من القتل أو يهجرهم درءًا للفتنة، مجتنبا الناس لتحقيق السّلامة حاثا على الحلم والصفح والعفو عمن اعتدى يقول:

جانب جميع النّاس تسلم منهم إنّ السّلامة في مجانبة الورى

وإذا رأيت من امرئ يوما أذى لا تجزه أبدا بما منه ترى[2]

1 إنّ القارىء لشعره يقف على نفس بريئة ترى الصّداقة في الإخلاص للمودّة ،وصفاء السّريرة يقول :

وخلوص ودّ في نقاء سريرة كسلاف راح في صفاء زجاج

وقد يضيف الدّارس سببا ثالثا يجمع السابقين ويؤكّدهما ويظهر ذلك في قصّة قتله ،حسب ما روي. فلقد حاول الشاعر أن يستعطف و يتر جّى قاتله –الرّئيس بن عليّ الأبكم حيث قال له عندما همّ بقتله :أنلادخيل النّبيّ صلّى الله عليه و سلّم.فلم يلتفت إليه ثمّ قال له : لم تقبل الدّخيل، الله بيني وبينك، وكان آخر كلامه : أتقتلون رجلا أن يقول :ربيّ الله».[3]

ويختم على الدّارس أن يضيف سببا آخر رابعا وهو ما حدث لقاتله، فقد أصابه فالج شديد وكان يصيح ويستغيث : ابن خميس يطلبني، ابن خميس يضربني، ابن خميس يقتلني، ومازال الأمر يشتدّ به حتّى قضى نحبه.[4]

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس م.س– ص40 أنظر مزية المرية لابن خاتمة الأنصاري ص17.

[2]: محمد عمرو الطمار: تاريخ الأدب الجزائري م.س– ص197.

[3]: سورة غافر الآية 28.

[4]: عبد الوهاب بن منصور: النتخب النفيس، م. س– ص41 وانظر تعريف الخلف برجال السلف ص378.

يبدو أن ذلك لم يكن السّبب، فالحاجة تدفع للتكسّب والإختراع، والعزلة تثير النّفس والوجدان والرّحلة توسّع الفكر والخيال وتفتح الآفاق والمجال. لذلك تصعب الإجابة عن هذا السؤال، ويعزا ذلك إمّا لعزوف الشّاعر عن التأليف قصدا أو لضياعها هدرا.

لقد ذكر الأستاذ عبد الوهّاب بن منصور في كتابه المنتخب النفيس أنّ لابن خميس ديوان شعر حافل جمعه القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الحضرمي في جزء أسماه: الدّر النفيس من شعر ابن خميس.[1]

ولكنّ هذا الدّيوان لا يزال مجهولا إلى اليوم بل حتى جامعه غير معروف، ممّا جعل عبد الوهّاب بن منصور يرجّح أن يكون جامع الدّيوان هو عيد المهيمن الحضرمي رئيس الكتّاب عند الوزير ابن الحكيم.

فقد كان صديقا حميما لابن خميس وراويّة من رواة قريضه كما صرّح ابن القاضي في درّة الحجال.[2]

ترى ما مصير ديوان ابن خميس؟ أيكون مآله مآل المؤلفات العربية الإسلامية التي أمر بإحراقها سنة 1499م الكردينال خمنيس مطران طليطلة عميد الكنيسة الإسبانية في ساحة حديقة غرناطة؟ أم أحرق إثر السّعير التي أجّجت سنة 1671م بقصر الأسكوريال، والتي أتلفت معظم التراث العربي الإسلامي.

ويضيف الطّاهر توات نارا ثالثة حيث يقول : «ولكن هناك حقيقة ينبغي الإشارة إليها وكانت شائعة في عصر الشاعر وهي إحراق كتب كلّ من يتّهم بالزّندقة. كلسان الدين بن الخطيب الذي اتّهم بالزّندقة فجمعت كتبه عندئذ و احرقت».[3]

و كذلك اتّهم ابن خميس بل حوكم في فاس ونجا بأعجوبة و اتّهمه أيضا ابن هديّة القرشي فقال : «إنّه يتفلسف ويحيد عن التشرّع علما وعملا وينحرف».[4]

فأيّ النّيران أحرقت الدّيوان؟ فلو كانت واحدة لاتّقاها ولكنّها نار ونار وثالثة.

---

[1]: عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس، م.س- ص56.
[2] ابن خاتمة الأنصاري: درة الحجال (رواية المقري في أزهار الرياض) ج1 ص164.
[3]: طاهر توات: ابن خميس شعره ونثره، م.س- ص111.
[4]: الأصالة عدد26 جويلية أوت سنة 1975 ص131.

الفصل الثالث:
موضوعاته الشعرية

1- المـــدح:

لقد أشرنا في الفصل السابق إلى بعض الشخصيات التي مدحها الشاعر ابن خميس كأبي زيان عامر بن سعيد، وأبي حاتم النّصري، وابن الحكيم والرّحالة ابن رشيد والقائد بن كماشة، وهؤلاء جميعا يعدّون على الأصابع ممّا يوحي للدّارس أن نصيب المدح في شعر ابن خميس قليل، زيادة على ذلك فإنّ الباحث سوف يجد أن الشّاعر قلّما يخصّص قصيدة بكاملها لممدوحه ولعلّ هذا ما يوحي إلى أنّ الشاعر لم يكن متكسّبا بشعره، متملقا لأهل المراتب والمناصب ولو كان كذلك لأفرد الممدوح بكامل قصيدة كما فعل الشعراء الأمويون من قبل.

ونظرا لقلة قصائده في هذا المجال فإنّه يجدر بنا أن نستعرضها جملة مبتدئين بمطلع كل قصيدة مشيرين إلى صاحبها، وعنوانها كما أوردها عبد الوهاب بن منصور.

1) القصيدة الأولى : من عاذري؟ ومطلعها.

أرق عيني بارق من أثال كأنّه في جنح ليل ذبال[1]

وقد مدح فيها أبا زيان عامر بن سعيد بن يغمراسن[2].

2) القصيدة الثانية : معاهد أنس.

ومدح فيها آل العزفي أمراء سبتة وذلك بعد هروبه من تلمسان.

تلمسان لو أنّ الزّمان بها يسخو منى النفس لادار السلام ولاالكرخ[3]

3) القصيدة الثالثة : وبابن رشيد تعوّذت.

مدح فيها الرّحّالة المغربي العظيم والأديب الألمعي الكبير أبي عبد الله بن رشيد السّبتي.

أطار فؤادي برق ألاحا فما (هزّ) بعد لوكرّ جناحا[4]

---

[1]: عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، م س -ص116.

[2]: أمير المسلمين أبو زيان عامر بن سعيد بن يغمراسن بن زيّان ولد سنة 659 وبويع يوم الأحد ذي القعدة سنة 703 وتوفي صبيحة يوم الأحد 21 شوال 707هـ.

[3]: عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، م س ص96 -دار السلام: بغداد -الكرخ ربضها الشرقي.

[4]- م ن ص89.

4)القصيدة الرّابعة :بابن الحكيم أمّنت صرف ردى.

مدح بها أبا عبد الله بن الحكيم ذا الوزارتين ويذكر فيها غفارة و جّهها له مع هديّة.

كبّت العدا إنعامك البغت فلي الهنا وللعدا الكبت[1]

5) القصيدة الخامسة : اخترت قرب جواره.

ذكر فيها محمد بن يوسف النّصري[2] وخص بالمدح حفيده السلطان محمد الثالث[3]. ويذهب عبد الوهاب بن منصور إلى أنّ اسمه مذكور في أبيات محذوفة لم نجد لها أثرا في كلّ المصادر التي جمعت شعر ابن خميس.

طرقتك وهنا أخت آل علاج والرّكب بين دكادك وحراج[4]

6)القصيدة السّادسة : لم أرد إلاّ سرابا .

ومدح فيها أبا سعيد ابن عامر وذكر فيها الوحشة القائمة بينه وبين ابن خطّاب[5].

مشوّق زار ربعك يا إماما محا آثار دمنتها التثاما[6]

وهذه القصيدة ذكر منها عبد الوهاب بن منصور ثلاثة عشر بيتا في المنتخب النّفيس أمّا ابن الخطيب فقد أوردها كاملة في الإحاطة ومجموع أباتها سبعة و ثلاثون بيتًا.

7)القصيدة السّابعة :

مدح فيها الشاعر القائد ابن كماشة لم يعنونها و لم يذكر منها عبد الوهاب بن منصور إلاّ ثلاثة أبيات وكذا في نفح الطيب.

العشي تعيـا والذّوابـغ عن شكر أنعمك السّوابغ[1]

---

[1]- عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، م س- ص72.

[2]- محمد بن يوسف النصري مؤسس الدولة النصرية بالأندلس بويع سنة 629 وتوثق له الملك بعد حروب وتوفي عام 671هـ.

[3]- المعروف بالمخلوع المبايع سنة 671هـ والمعزول سنة 708هـ.

[4] -عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص78.

[5]- محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المرسى نزيل تلمسان الذي توفي بها يوم عاشوراء سنة 686هـ.

[6]- لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج 2 ص 278/275.

إنّ الدّارس لهذه القصائد والملاحظ لهؤلاء الممدوحين سوف يتوصّل إلى تحديد ظاهرتين:

الأولى : هي أن ابن خميس لم يكن يخصص القصيدة بكاملها للمدح أو يستهلها بالغزل كما فعل الشعراء السابقون بل يلج الغرض مباشرة أو يستهلّه بوقفة حنين لبلدته تلمسان ينتقل من غرض إلى آخر في نفس القصيدة مبديّا الحكمة مسديّا النّصيحة ومعرّجا على قصص السّابقين لأخذ العبرة وفي كلّ ذلك تنعكس نفسيّة الحزينة ويغدو شعره مرآة لنفس تتألّم شوقا وتأنف العيش في الحياة.

الثانية :هي أنّ جلّ الشخصيات التي مدحها الشاعر كانت ذات مكانة سامية ومنزلة مرموقة، فهي إمّا صاحبة وزن سياسي رفيع أو مرتبة علمية وثقافية عالية.

ولعلّ هذا ما يدفع الدّارس إلى الإعتقاد بأنّ الشاعر كان مادحا متكسّبا، يطوق أبواب ممدوحيه طمعا في نوال، أو رغبة في التّقرب لغرض تحقيق طموح في نفسه.

غير أنّ هذا التخمين يشكّل تناقضا مع طبيعة وشخصية ابن خميس، فالرّجل فقيه متديّن، أعرض عن الدّنيا ونأى بجانبه ولم يكن من أهل الرّياء والنّفاق، ولا طامعا في زخرف الحياة إنّه لم يرج منها و دّا لذلك رماها فما هي إلاّ كظلّ سحاب:

فلا ترج من دنياك ودا وإن يكن فما هو إلاّ ظلّ سحـــاب[2]

كما انقطع للصّيام والإعتكاف والخلوة، وانشغل بما هو أنفع، يقول :

أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي يقال فلان ضيّق الصّدر بائع[3]

وهو لا يريد أن يستبدل الرّشاد بالغيّ لأنّ في ذلك ضلال مبين، وإن فعل البعض ذلك، فكم صالح أمسى طالحا، يقول :

لبعت رشادي بالغيّ ضلّة وكم صالح مثلي غدا وهو طالح[4]

---

[1]- المقري: نفح الطيب ج 5 ص361.
[2]- المرجع نفسه ج7 ص288.
[3]- م ن ج8 ص339.
[4]- م ن ص ن.

بل ويدعو إلى التحفظ من اللّسان وصونه والتزام الصّمت.

تحفّظ من لسانك ليس شيءٌ أحقّ بطول سجن من لسان

وكن للصّمت ملتزما إذا ما أردت سلامــة في ذا الزّمان[1]

وبما أنّ الشاعر عاش في عصر طغا عليه الفقه والتديّن وبرز شعراء وأدباء آخرون كان لهم وزنهم ومكانتهم، كابن خطّاب الذي أشار إليه الشاعر في قصيدته التي مدح فيها أبا سعيد عامر. وكان ابن خميس يحفظ بعض أشعاره حيث أنشد أبياتا له للرّحالة المغربي العبدري أثناء حلوله تلمسان والتي يقول فيها ابن خطاب:

أبصرت أبواب الملوك تغص بال راجلين إدراك الغنــا والــجاه

فأنفت من ذاك الزّحام وأشفقت نفسي على إنضاء جسمي الواه

ورأيت باب الله ليس عليه من متزاحم، فقصــدت بــاب الله

و اتخذته من دونهم لي عــدة وأفقت من غيّ وطول سفــاه[2]

فلا غرابة أن يكون الشّاعر قد تأثّر بمضمونها فراح يردّدها، كما يذهب طاهر توات إلى أنّ الشاعر يكون قد سمع قول صديقه عبد المهيمن الحضرمي فأعجبه فيه قوله:

أبت همّتي أن يراني امرؤ مدى الدّهر يوما ذا خضوع

وماذاك إلاّ لأنّني اتقيت بعزّ القناعة ذلّ الخضــوع[3]

فلأن خرج الشّعراء الأمويون والعبّاسيون عن نهج الجاهليين من ذكر الجمال والطّلل إلى التغزّل بالحسان ووصف الخمرة والرّياض للوصول إلى المدح. فإنّ الشاعر ابن خميس قد خرج عن هؤلاء كما سبق أن أشرنا إليه باستثناء قصيدة مدح فيها محمد النّصري حيث استهلّها بالغزل وما عرف متغزّلا إلا في قصيدتين دمية من مرمر و هذا المطلع الاستهلالي الذي يصوّر فيه ليلة سمر دارت فيها كأس الهوى يسرة ويمينا.

---

[1] – محمد عمرو الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ص196.

[2] – طاهر توات: ابن خميس شعره ونثره ص116 وانظر الرحلة المغربية ص16.

[3] – م ن ص ن وانظر أبي عبد الله بن خميس التلمساني بحث الأستاذ المهدي البوعبدلي نشر بمجلة الأصالة العدد 49-50 سبتمبر أكتوبر 1977م.

طرقتك وهنا أخت آل علاج والرّكب بين دكادك وحراج

في ليله ليلاء لم ينبـــح بهـــا كلب و لم يصرخ أذين دجاج

أنى اهتدت للمظلين توهّنوا منها لهتك دياجـــر وديـــاج

متسربلي برد الظّلام كأنّهم فيه قداح في رمايـــة ســـاج

ثمّ ها هو ذا الشاعر يقف على الأطلال فيصف المنازل وقد درست ومحت معالمها الحرب والرّياح فصارت أطلالا مقفرة خالية، لم يبق منها إلاّ ما تلبّد بالأرض من أحجار كأنّها الحمام الجواثم، وورق تسجع وتصوّت في سكون الخلاء.

ومنازل درس الرّسوم بلاقع أخوين من هيج ومن هيجاج

محت معالمهـــنّ غير مثلـــم كسوار تاج أو كمدوملج عاج

وموائل مثل الحمام جواثـــم ورق وأسجع دائم التشحاج[1]

ويواصل الشاعر واصفا كيف قضى ليلته تلك.

كم ليلة مرّت و لم يشعر بها غيري وغير منادمي وسراجي

بتنا ندير إلى إنبلاج صباحها كأس الهوى صرفا بغير مزاج

وتدير أعيننا حديث غرامنا بمزامر من (فضـــة) وأحـــاج

بمؤرّج النفحات من دارين أو بمدارج النّسمـــات من دراج[2]

ثمّ يسدي الشاعر حكمة دون أن يبرح مجلسه، بل يمتاح منه صورة يعكسها على حكمته في تشبيه مرسل مجمل جميل. حيث يقول :

وخلوص و دّ في نقاء سريرة كسلاف راح في صفاء زجاج

ويصل أخيرا إلى ممدوحه فيبيّن سبب تقرّبه منه، فهو فريد في زمانه، يستوجب الإخلاص وغيره يستحق المداهنة والمداراة، ويسدي الشاعر النّصيحة تلو النّصيحة، مقرّا بفضل ممدوحه عليه لأنّ

---

[1]: عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص 78.

[2]: م ن ص79.

ما أصبح فيه من نعمة وعزّ راجع إليه، ولكن الشاعر لم يذكر اسم ممدوحه، ولعلّ هذا ما جعل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور يعتقد أنّ فيه حذفا معلّلا ذلك إلى عدم ارتباط البيت الأوّل بما سبق[1].

أمحضته حظي من الزّمن الذي ... أعي مراسي أهله وعلاجي
واخترت قرب جواره لخلوصه ... وتركت كلّ مماذق مـــراج
مافي زمانك غيره فاخلص له ... غيبا وداهن من أردت وداج
لا تحفلنّ بغيره و استعصـــين ... بوقاره من كلّ غمر مـــاج
اترك بني الدّنيا واعرض عنهم ... فعساك تطعم لذّة الأثـــلاج
أصبحت مـــن ألائه وولائـــه ... في عزّة ضحيـــا وعـــزّ داج
ولو أنّني عجت الرّكاب ميمّما ... أحدا سواه حمدت معاجي[2]

يواصل الشاعر في إطراء صاحبه، متدرّجا في مراقي المبالغة لإبراز مكانته في الثبات والوقار والعقل ومنزلته في الجود والكرم والشجاعة إلى أن يصل إلى ما هيّأه له الله من فوز وغلبة وظهور على الأعداء.

طلق إذا احتلك الزّمان أنار في ... ظلمائه كالكوكب الوهّـــاج
طود الرّصانة والرزانة والحجا ... بحر للنّـــدا المتلاطم الأمـــواج
وغمامة إلهامي عـــلى آمالـــه ... من غـــير إرعاد و لا إرعـــاج
وهزبر آجام القنى الضاري إذا ... سقطت عواتمها على الإزجاج
ضمن الآله لـــه على أعدائـــه ... ما شاء من ظفر ومن إفـــلاج[3]

ويصل إلى ذكر ممدوحه محمد الثالث مشيدا بجدّه أبي الحجاج محمد بن يوسف النّصري مؤسّس الدّولة النّصرية، وأسلافه مشيرا إلى الإمتزاج الحاصل بين قبيلتي حمير اليمنية وصنهاج البربرية

---

[1] – م ن ص 80.
[2] – م ن ص80 المماذق: الذي لا يخلص في صداقته.
[3] – م ن ص80 و81 الإرعاج: تتابع لمعان البرق الإفلاج: الغلبة والظهور.

وانصهارهما لتأسيس مملكتهم غائرا في تاريخ أسلافه اليمنين ذوي الجاه والملك والرئاسة والسّياسة والبسالة في الحروب.

أبــقى أبــو عبــد الله محمــد ما شاد و الده أبو الحجــاج
وبنى أبو إسحاق[1] قبــل وصنوه ركن الضّعيف و مؤلا المحتاج
و جرى على أثار أسلاف لهــم درجوا وكلّهم على منهــاج
مــا منهــم إلا أغــرّ مبــارك مصباح ليل أوصباح عجــاج
بيت بنوه مــن ســراوة حمــير في الذروة العليــا من صنهاج
كم كان في الماضين من أسلافهم من ربّ إكليل و صاحب تاج
آساس كلّ رئاسة و رؤوس كــ لّ سياسة وليوث كــلّ هيّاج[2]

قفل الشاعر من اليمن متوجّها إلى غرناطة بالأندلس، مادحا ملوكها بني نصير، مشيرا إلى حروبهم مع الإسبان المسيحين، ذاكرا موقعة العقاب الشهيرة التي انهزم فيها المسلمون، فكانت بداية نهاية الدّولة الموحدية، ويواصل ملوك بني الأحمر جهادهم، فيتابع الشاعر تمجيده لهم مبجّلا يوسف في نزاله،ومعاركه معظّما مكانته العلمية والأدبية، مبيّنا فصاحته وسخاءه في اليسر والعسر.

أعيت نجوم اللّيل من سهر و ما أعيى أبو موسى[3] من الإدلاج[4]
حتّى أصارتــه لرحــمة ربّــه يوم العقــاب و قيعة الإعلاج
وأقيم نجل أخيه بعــد مقامــه فيهم يطاعن مثلــه ويــواجي
فردا يلــف كائبــا بكتائــب ويكب أفواجــا على أفــواج

---

[1] – يريد بأبي إسحاق الأمير اسماعيل بن يوسف النصري المتوفى654هـ . أنظر :عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص81.
[2]– عبد الوهاب بن منصور م س ص81.
[3]– يقول عبد الوهاب بن منصور: لعله يوسف النصري والد عبد الله الأول ص81
[4]– يوسف بن نصر الخزرجي، أبو الحجاج والد السلطان محمد بن يوسف النصري أول ملوك بني الأحمر م ن ص ن.

إلاّ الأولى سبقوا ببار فضلهـــم من سائر الأصحاب والأزواج
وكفى بحكمتنا إقامة حجـــّة وبركننـــا من كعبة الحجّاج[1]

ويغور الشاعر مرّة أخرى في أعماق تاريخ اليمن ليستحضر التّبابعة ملوكهم الأولى الذين ترّبعوا على عرش حمير وحضرموت قرونا متعاقبة فدانت لهم فيها ممالك الدنيا طواعية. وإنّما يفعل الشاعر هذا من أجل أن يظهر مفاخره القديمة ويشهر مجده التليد الواضح وضوح إشراقة الصّبح.

ولنا مفاخر في القـــديم شهيرة كالصّبح في وضح وفي إبلاج
منّاالتّبابعـــة[2] الذين بباهـــم كانت تنيخ جباه كل خراج
ولأمرهم كانت تدين ممالك الـــ دّنيا بلا جـــبر و لا إحـــراج
من يقتدح زندا فإنّ زنادهـــم في الجود وارية بلا إحـــراج
أبوابهم مفتوحـــة لضيوفهـــم أبدا بلا قفـــل و لا مـــزلاج

وفي القصيدة التي مدح فيها بني العزفي نجده يبدأها برثاء المدن، ثم ينتقل إلى الهجاء وأخيرا يصل إلى غرض المدح.

برزت هذه الظاهرة في قصيدته الآتية :

تلمسان لو أنّ الزّمان بها يسخو مني النّفس لادار السّلام ولا الكرخ

---

[1] م س ص83.

[2] التبابعة : هو لقب أطلق على ملوك الحمير لما اتسعت دولتهم وقد آمنوا برسالة الرسول ووقفوا على اسمه وذلك قبل ميلاده بمئات من السنين وتمنوا لو عاشو فأدركو أيامه وذبّوا عن حياضه قال: أحدهم وهو التبع (أسعد أبو كرب بن مليكيكرب):

شهدت على أحمد أنّه رسول الله باري النّسـم
فلو مدّ عمري إلى عمره لكنت وزيرا له أو ابن عم
وجاهدت بالسيف أعداءه وخرّجت عن صدره كل هم

انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام –د. جواد علي ج2 دار العلم للملايين بيروت –مكتبة النهضة بغداد 1969 ص514.

وانظر كذلك : ابن رشيق القيرواني –العمدة في محاسن الشعر وآدابه –تحقيق: د.محمد قرقزان لبنان بيروت، دار المعرفة، ط/1 د ت. ص945.

وداري بها الأولى التي حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحنق اللّبـــخ
وعهدي بها و العمر في عنفوانه وماء شبابي لا أجـــين ولا مطـــخ
قرارة تهيـــام و مغنى صبابـــــة و معهـــد أنـــس لا لِمذّ به لطـــخ
معاهد أنـــس عطلت فكأنّهـــا ظـــواهر ألفاظ تعمّدها النّســـخ
و أربع آلاف عفا بعض آيـــها كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخ
فمن يك سكرانا من الوجد مرّة فإني طـــول الدّهر منـــه لملتـــــخ
أأنسى وقوفي لاهيّا في عراصها؟ ولا شاغل لي إلا التو دّع و السبـــخ
كأني فيها أرد شبر بن بابـــك و لا ملك لي إلا الشبيبة و الشـــرخ

ثمّ يصل إلى هجاء بني زيان حيث يحملهم مسؤولية تشتيت أمر النّاس، وقد نصحهم لما فيه صلاحهم ولكنّهم تعجرفوا وتكبروا، ثمّ يبين ما أصابهم من عذاب وقهر وأسر بسبب رفضهم لنصيحته، يقول :

سعيتم بني عمّور في شت شملـــنا فما تجركم ربح و لا عيشنا ربخ
دعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكم فر دّكم عنه التعجرف و الجمـــخ
تعاليتموا عجبا فطـــمّ عليكـــم عباب لـــه في رأس عليائكم جلخ
وأولتموني العجب حتى هلكتـــم جماعا غواة مـــا ينهضـــم قفـــخ
كفاكم بها سجنا طويلا وإن يكن هلاك لكـــم فيها فهي لكم فـــخ
فكم فئـــة مـــن ظفرتم بنيلهـــا بأبشارها من حجن أظفاركم برخ
كأنّكم مـــن خلفها و أمامهـــا أسود غياض وهي ما بينكـــم أرخ
فللسوق منها القيد إن هي أغربت وللهام إن لم تعط ما رعت النقـــخ
كأنّ تحتها من شدّة العلق القطـــا ومن فوقها من شدّة الحذر الفتـــخ
وأقرب ما تهذى به الهلك والتّوى وأيسر ما تشكو به الذلّ و الفتـــخ

فماذا عسى نرجوه مـــن لمّ شعتها وقد خرّمنها الفرع واقتلع السّلـــخ

وأخيرا يختم هجاءه ببيتين قاسيين على بني زيان كأنّه المتنبيّ في هجاء كافور الأخشدي.

زعانف أنكال لئـــام عناكـــــل متى قبضوا كفا على إثره طخوا

ولما استقلوا من مهاوى ظلالهـــم وأوموا إلى أعلام رشدهم رخوا .

ثمّ بيّن كيف دعاهم أبو يعقوب المنصور إلى الشرف الذي يذلّ و يخضع له الجبل العظيم، فلم يستجيبوا لذلك، فذاقوا وبال رفضهم لأنه كان قدرا محتوما عليهم فلا مفرّمن لحاقه، ثمّ بيّن كيف أنّه ظلّ يدعو النّاس للخروج عن طاعتهم ولكنّه لم يجد أذنا صاغيّة، فراح يبذل كل جهده وكامل طاقته لاستئصالهم ولكن بدون جدوى فإن استئصالهم صعب ونزعهم وعر.

ولعلّ هذا ما يدلّ على أنّ لابن خميس سابقة سجّلها عليه التاريخ إذ يتساءل الباحث عن السّبب الذي جعله يدعو بني زيان للاستسلام في الوقت الذي رفضت فيه نساؤهم أن يقعن أسيرات لدى المرينيين، فلا يجد الدّارس إلاّ كونه رأى من هول الكارثة ما هان عليه أمر الاستسلام.وقد صبر الزيانيون لطول الحصار وجاء الفرج عندما اشتدّت الأزمة فكيف لو كان الاستسلام فألا يكون معه الذّل والهوان؟

لم يعثر الباحث على إجابة كافية لموقف ابن خميس من الحصار سوى أن يرجع ذلك إلى موقف عقائديّ ديني، يبيح له عدم التميز بين المرينيينوالزّيانيين فهم إخوة مسلمون سواء.

ثمّ يصل الشاعر غير خسران آسفا بل معجبابميناء سبتة ومائها وهوائها وأريافها راغبًا في شرب مائها والمكوث بها.

تركت لميناء سبتة كـــل نجعة كما تركت للمعزّ أهضامها شمخ

و آليت ألاّ أرتوى غير مائهـــا ولو حلّ لي في غيرهالمنّ والمذخ

وألا أحط –الدهر- إلا بعقرهاولو بوّأتني دار إمـــرتها بلـــخ

فكم نقعت من غلة تلكم الأضنى وكم أبرأت من علة تلكم اللّبخ

ثمّ ها هو ذا الشاعر يصل العزفيين فينوّه بملوك سبتة ذوي الأصل اليمني[1] حيث يخضع لعزّهم كل رئيس متكبّر متعجرف، ثم يخلع عليهم بردا من الهاية والنّور وغزارة العلم المتدفّق الغامر للنّاس فهم آخر الرّؤساء وأفضل الملوك.

وأملاكها الصّيد المقاولـــة الأولى لعزّهم تعنـوا الطّراخنـــة البلـــخ

كواكب هديّ في سماء رئاســـة تضيء فما يدجو ضلال ولا يطخو

ثواقب أنوار ترى كـلّ غامض إذا النّاس في صحياء غيّهم التخوا

وروضات آداب إذا ما تأرّجت تضـــاءل فـــي أفنائهـــا الرّمـــخ

و أبحـــر علم لا حياض روايـــة فيكبر منّا النضح أو يعظم النّضخ

بنوا العزفيين الأولىمن صدورهم وأيديهم تملأ القراطيس والطّرخ

رئاسة أخيـــار و ملك أفاضـــل كرام لهم في كلّ صالحة رضـــخ

ويذكر فضلهم عليه بالمالوالمتاع والعلم والحلم لأنّهم يكرمونه ويتعطفون عليه حتّى وإن ابتعد وجفا عنهم ويغدقون عليه بالعطايا إذا زارهم.

وإذا ما بدا منّـــا جفاء تعطّفوا علينا وإن حلّت بنـا شدّة رخّوا

نزورهم حـــذّا نحافـــا فنثـــني وأجمالنا دلـــح وأبداننـــا دلـــخ

ثمّ يستعرض الشاعر قصّة ملك اللّخميين النعمان بن المنذر باني الخورنق، ليضرب به مثلا في الزّهد والإعراض عن الدّنيا.

---

[1]: هو النعمان بن امرئ القيس باني الخورنق، لما أتى ملكه ثلاثون سنة علا مجلسه على الخورنق، ونظر ما حوله، فأعجبه، ففكر وقال: أي درك في هذا الذي ملكته اليوم، ويملكه غدا غيري، ثم دعا حجابه ونحاهم عن بابه وساح في الأرض، وفيه يقول عدي بن زيد:

وتدبر رب الخورنق لإذا شـــ رف يوما وللهدى تفكـــير

سره حاله و كثـــرة مـــا يمـــ لك والبحر معرضا والسّدير

فارعوى حاله وقـــال ماغبـــ طة حي إلى الممات يصـــير

أنظر الدكتورعبد العزيز عتيق، تاريخ العرب في عصر الجاهلية -دار النّهضة للعربية للطباعة والنشر بيروت عام 1971 ص258/264.

وما الزّهد في أملاك لخم ولا التّقى ببدع وللدنيا لزوق بمن يرخو

وإلاّ ففي ربّ الخورنق غنية فما يومه سرّ ولا صيته رضخ

تطلّع يوما والسّرير أمامه وقد نال منه العجب ما شاء والجفخ

وعنّ له من شيعة الحقّ قائم بحجّة صدق لا عبام ولا وشخ

فاصبح يجتاب المسوح زهادة وقد كان يؤذى ببطن أخمصه النتخ

ويعود الشاعر من عند أسلافه اللّخميين إلى أحفادهم العزفيين، ومن النعمان بن امرىء القيس إلى أبي حاتم العزفي مبيّنا زهده المحلا أن يلفتنا إلى وجه التّشابه بينهما، لأنّه تخلّى عن الحكم تاركه لأخيه وأقبل على العبادة فنال الرّضا و المحبّة وفي ذلك مثل لكلّ زاهد وموعظة لكلّ طامع.

وفي واحد الدّنيا أبي حاتم لنا دواء ولكن ما لأدوائنا نفخ

تخلّى عن الدّنيا تخلّي عارف يرى أنّها في ثوب نخوته لتخ

وأعرض عنها مستهينا لقدرها فلم يثنه عنها اجتذاب ولا مصخ

فكان له من قلبها الحبّ والهوى وكان لها من كفّه الطّرح والطّخ

وما معرض عنها وهي في طلاب كمن في يديه من معاناها نبخ

ولا مدرك ماشاء من شهواتها كمن حظّه منها التّبجّح والنجخ

ولكنّنا نعمى مرارا عن الهدى ونصبح حتّى ما لآذاننا صمخ

ومالامرىء عمّا قضى الله مهرب ولا لقضاء الله نقض ولا فسخ

أمّا أمير العزفيين أنذاك أبي طالب العزفي فيمدحه مقرّا بأنّه أصل كلّ سمية سؤدد، مبيّنا فضله على النّاس.

أبا طالب لم تبق سيمة سؤدد يساد بها إلاّ وأنت لها سنخ

تسوّغت أبناء الزّمان أياديّا لدرها في كل سامعة شخ

وأجريتها فيهم عوائد سؤدد فما لهم كسب سواها ولا نخّ

غدهم غواديها فهي في عروقهم دماء وفي أعماق أعظمهم مـــخّ

وعمّهم حزنا وسهلا فأصبحوا ومرعاهم ورخ ومراعيهم ولـــخ

ينهي الشّاعر قصيدته بتقديم نصائح لبني العزفي ليبلغوا مطمحهم لأنّه لاشيء يقف في وجوههم، وليواصلوا محاربة أعدائهم لأنّهم قادرون على تحقيق الانتصار، وليترفّعوا عن الصغائر والتّوافه وليسموا إلى العلا ليطأوا الجوزاء كما فعل أسلافهم من قبل.

بني العزفيين أبلغوا مـــا أردتـــم فما دون ماتبغون وحلّ و لا زلخ

ولا تقعدوا كمن أراد سجالكم فما غوبكم جفّ ولا غرمكم وضخ

وخلّوا وراء كلّ طالب غاية وتيهوا على من رام شأوكم و انخوا

ولا تذروا الجوزاء تعلو عليكم ففي رأسها من وطء أسلافكم شدخ

ويختم الشاعر قصيدته مفتخرا بخائيته البديعة التي يفضّ بها أفواه الأعداء ويفقه لهم أعينهم. خائية خلع عليها الحسن والجمال فراحت تتمايل كبرًا وعزّة لأنّها يمانية حسناء زارت يمانيين، فحقّ لها الزّهو والكبر أمام الأعداء والحسّاد.

لأفواه أعدائي وأعيني حسّـــدي إذا جلّيت خائيتي الفضّ والفضـــخ

دعوها تـــهادى في ملاءة حسنها ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ

يمانيـــة زارت يمانـــين فانثنـــت وقد جدّ فيها الزّهو واستحكم الزّمخ

يبدأ الشاعر قصيدته الخائية (وبابن رشيد تعوّذت) بالشّوق والحنين وذكر شيء من أحواله، باستهلالة تنمّ عن نفس حزينة متردّدة لا ترضى بما هي عليه ولا تنعم به ولا هي قادرة على الرّجوع والعودة إلى موطن الأصل، فليس أمامها إلاّ ظلام حالك يرتسم فيه سنا البرق كسيف جبان متردّد في ساحة الوغى لا يقدر على الإقدام ولاهو راض بالتّخلف والفرار، ثم لا تلبث بعد إغفاءة خفيفة أن تظهر نجوم مغربة تكاد تختفي عن الأنظار بعد أن أدركها ابتلاج الصّبح، ليفيق الرّوض بزهره ويحيّ نسيم الصّبا للصّباح ويستفيض دموع الشاعر ويلهب نار جوانحه شوقا وحنينا.

أطار فؤادي بـــرق ألاحـــا فما هزّ بعد لوكرّ جناحـــا

كأنّ تألّـــقـــه في الدّجـــــا حسام جبان يهاب الكفاحا

أضـــاء وللعـــين إغفـــــاءة تلذّ إذا ما سنـــا الفجر لاحا

كمعـــنى خـــفي بـــدا بعضه وزيد بيانـــا فزيد اتّضاحـــا

كأنّ النّـــجوم وقد غربـــت نواهل مـــاء صدرن قماحـــا

لواغـــب باتت تجـــد الشرى فأدركها الصّبح روحي طلاحا[1]

وقد لبـــس اللّيـــل أسمالـــه فمحت عليه بـــلا وانصياحـــا[2]

وأيقـــظ روض الرّبا زهـــره فحيا نسيم صبـــاه الصّباحـــا

كـــأنّ النّهـــار وقد غالـــها مبيت مال حـــواه اجتياحـــا

أتى يستفيض دموعي امتياحا ويلهب نار ضلوعي اقتراحـــا

فلم يلف دجن انتحابي شحيحا و لم يلق زند اشتياقي شحاحـــا[3]

و لولا توقّـــد نـــار الحشـــا لأنفدت ماء جفوني امتياحـــا[4]

ثم يأفل الكرى بفعل هديل حمام، ويتبادل الشاعر مع الطائر الهموم والأحزان ويشتدّ التّوقان، وتفيض الدّموع، وكأنّ الشاعر أبو فراس الحمداني وهو أسير الرّوم وما هو بأسير وإنّما يسجنه الشوق والحنين لبلدته تلمسان.

وممّا يشرّد عنّي الكـــرى هديل حمام إذا نمت ناحـــا

ينـــوح عليّ و أبكي لـــه فأقطع ليلى بكا و نياحـــا

أعـــين أريحي أطلت الأسى عليك وما زدت إلا انتراحا

---

[1]: طلح البعير: أعيى وتعب.

[2]: محا الثوب: بلي؛ وانصاح: تشقق

[3]: الشحيح والشحاح: البخيل والحريص.

[4]: عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، م س- ص 90.

دعيني أر دّ ماء عيني فلـــم أرد بعد مائك ماء قراحـــا

أحنّ إليك إذا سفت ريـــحا وأبكي عليك إذا ذقت راحـــا[1]

وأفنى التياحا إليـــك وكـــم أشحت بوجهي عنك انتشاحا[2]

تلك البلدة التي أمست لا تفارقه لحظة، لم يغادرها طواعية وإنّما أخرج منها كرها فلقد حقد عليه بنو زيّان و همّوا بإجلائه بعد أن أباحوا حماه، ولطالما دافع عنهم من قبل، ولكنّهم نسوا ذلك فباعوا وداده بخسا و دبّروا له مكيدة لقتله سرّا، فلمّا تو جّس منهم خيفة وافتضح أمرهم زعموا يمينا إنّ ما فعلوا كان مزاحا، فقرّر الشاعر أن يغادر بلدته عساه يجد في الأرض متسعا أو يلقى أمنا.

ولولا سخائم قـــوم أبـــوا إيّابي إليك ركبت الرّياحـــا

أباحوا حماي وكـــم مـــرّة حميت حمى عرضهم أن يباحا

ودافعت عنهم بشعري انتصارا فكان الجزاء جلاي المتاحـــا

أباعوا ودادي بخسا؟فســـــل أكان سماحهم بي رباحـــا؟

وأغروا بنفســـي طلابـــهـــا سرارا فجاءوا لقتلي صراحا

وآلوا يمينـــا علـــى أنّ مـــا توهّمت لم يك إلاّ مزاحـــا

فشاورت نفســـي في ذا فما رأت لي بغير الفلاة فلاحـــا

تسلّل الشاعر في جنح الليل، كآبق أطلق القيد من قدميه، قاصدا سبتة، يجوب الدّياجير وحده. فيكابد المشقة ويعاني من أهوال وأخطر الطريق لا أنيس له إلاّ ما يصادفه من حيوانات كطائر القطا والذّئاب، ثمّ يمرّ ببدو ألفاهم أعاجم شوس العيون قباحا. لكنّه خلص من إسارهم ونجا من الموت؛ وواصل سيره، لا يدري أين يقوده قدره.

---

[1]: ساف: اشتم.

[2]: الالتياح : العطش –وأشاح: أعرض –النشح: الشرب حتى الإمتلاء. أنظر عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس في شعر ابن الخميس –ص90.

فبتّ أناغي نجوم الدّجا نجاء فلم ألف إلاّ نجاحا

أجوب الدّياجير وحدي ولا مؤانس إلا القطا والسّراحا

وإلاّ الثعالب تحتس في يميني فتملأ سمعي ضباحا

أجوب الأفاحيص فيحا قفارا وأعروا الأداحي غرّا تلك صياحا

فأعي شوارد هذي عداءً وأعلو لواغي تلك صياحا

و جواب بدوٍ إذا استنبحوا أجابوا عواءً وأمّوا النّباحا

يرون قتالي في الحجر حلاّ وإذهاب نفسي فيه مباحا

قصدت سناهم فلم أخطهم أعاجم شوس العيون قباحا

فسل كيف كان خلاصي من إسارهم ؟أسرى أم سراحا[1]

فها هو ذا القدر يفكّ عنه الهموم، ويبدّله ساعة هنيئة ممتعة، فلقد لقي حيّا عربيا رجاله شمّ الأنوف كرام فصاح، وألفى فيه السّماحة والعناية ووجد النوق والغيد الحسان.

لقد فتن الشاعر بنساء الحي ووصفهنّ باليعافير في الهيئة والقدّ والحسن وسواد العين وشبّههنّ بأبقار الوحش في اتساع العين وحورها، ولم يسلم من أن يقع أسير إحداهنّ، فقد شكّت سهام لحظها قلبه الذي أصبح جريحا معلّقا بها وكاد يفقد عقله بعد رحيلها.

و لا مثل بيت تيمّمته فلم ألف إلا العنا والسّماحا

عيابا ملاء و نيبا سمانا و غيدا حسانا و عودا أقاحا

وإلاّ أعاريب شمّ الأنوف كرام الجدود فصاحا صباحا

وإلا يعافير سود العيون يرين فساد المحبّ صلاحا

يردّدن فينا لحاظا مراضا يمرضن منّا القلوب الصّحاحا

وتحت الوجاح طلا ربرب لو أنّ القيان رفعن الوجاحا

[1]: عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص91.

أراني محاســـن منـــه فلـــم أطق عـــن حمـــاه بقلبي براحـــا
محيّا وسيما و فرعـــا أثيـــثا وقدّا قويـــما وردفـــا رداحـــا
و أبدى لعيني بدائـــع لـــم تدع لي عقلا بـــها حين راحـــا
إذا لـــم يرد غير سفك دمي فحلّ وبلّ له مـــا استباحـــا
ومازلت سمحا بنفسي كذا مـــتى ما رأيت الوجوه الملاحا[1]

مضت ساعة التغزّل والسّلوان، وقد تركنا القلب فيها معلّقا بالحسان، وها هو يتذكّر الأصحاب ويشكو الزّمان، فقد ألحّ عليه بأحداثه ومصائبه، ولم يجد الشاعر بدّا سوى أن يلقي إليه سلاحه.

لقد فرّق بينه وبين الأهل، وأبعده عن بلدته تلمسان التي ما كان يظنّ يوما أنّه سوف يفارقها، لا بل قد أعجله بالسّير ولم يترك له فرصة للوداع.

و بابن رشيد تعـــوذت من هواه فقد زدت فيه افتضاحا
وقد ضاق صدري عن كتمه و أودعته جفـــن عيني قباحا
و بابن رشيد تعوذت مـــن خطوب أجلن عـــلي القداحا
ألـــحّ الزّمـــان بأحداثـــه فألقيت طوعـــا إليه السّلاحا
وفرّق بيـــني و بين الأهيل ولـــم ير في ذا عليه جناحـــا
وطوح بي عن تلمسان ما ظننت فراقي لـــها أن يتاحـــا
و أعجل سيري عنها فلم يدعـــني أو دّع تلـــك البطاحا[2]

يبث الشاعر صديقه ابن رشيد همومه ويحكي له مآسيه، وإنّه ليرى في بعده عن ربعه موتا صريحا، لأنّه كان في قومه عزيزا مبجّلا فصار الآن لا يكترث به أحد ولا يولى اهتماما، ويعجب الشاعر لدهره الذي أقسى عليه بما صار يعانيه أو لم يكن في حمى وحفظ قرب صديقه

---

[1]: م ن. ص92/93.
[2]: م ن. ص93.

ابن رشيد فليتهميتطيع أن يطير إليه ليستريح، فقد هدّمه الدّهر ركنا شديدا و لم يبق له إلاّ فيحا بينهما راح يتبع شذاه كلّما فاح.

نأى بصديقك عن ربعـــه فكان له النأي موتاصراحا

و كان عزيزا على قومـــه إذا هاج خاضوا إليه الرّماحا

فا هو إن قال لم يلتفـــت إليه امتهانا له واطّراحـــا

عجبت لدهري هذا ومـــا ألاقى مساء به و صباحـــا

لقـــد هدّمني ركنا شديدا و ذلل مـــني حياء لقاحـــا

وقيت الرّدى من أخ مخلص لواستطعت طرت إليه ارتياحا

و إني على فيح مـــا بيننا لأتبع ذاك الشذا حيث فاحا[1]

إنّ لوعة الشوق قد أحرقته وحرقة الحنين ما برحته، لذلك راح يستعجل ويتسرّع في توقانه، ويكثر عدّ ما ناح الحمام، ولا يكفيه ذلك بل راح يخبر صاحبه عن حاله وما يكابده جسمه من أسقام، فقلبه يذوب اشتياقا وصدره يتّسع انشراحا إليه.

أحنّ إليـــه حنـــين العجول و نوح الحمام إذا هو ناحـــا

وأســـأل عنه هبوب النّسيم وخفق الوميض إذا مـــا ألاحا

وإن شئت عرفان حالي و ما يعانيه جسمي ضنى أو صحاحا

فقلب يذوب إليك اشتياقـــا وصدر يفـــاح إليك انشـــراحا[2]

ويعبر الشاعر في النّهاية عن تلك المحبّة وذلك الشوق بمدح صاحبه وتبجيله، فيصبغ عليه من الصّفات الحسنة والخلال الكريمة، الطبيعية والمكتسبة ما يجعله سابق أقرانه في العلم والأخلاق، لا يجارى ولايبارى فقد جمع أفضل المكارم حتّى صارت وشاح سيف مجده وعلاه، يهيم بدروس العلم بكرة وعشية، نشأ عن الخير وتعوّده فأصبح لا يعرف غيره.

---

[1]: م ن. ص93/94.

[2]: م ن. ص94.

بهر رجال الحديث علما فما ينطق بحضرته أحد، ولايخطب بوجوده خطيب،ولو لم يكن حاجّا من قبل لحجّت الملائكة بدله وفي هذا مبالغة صريحة عند الشاعر ابن خميس.

ثمّ ينهي قصيدته ومدحه ببيت يرجو فيه من صاحبه أن يحفظ جناحه لأفكاره بما تحمل من معاني وأفكار فالرّجل في أعلى مقام.

مكارم جـــمعت أفذاذهـــا فكانت لعضب علاك وشاحا

ودرس علـــوم تـــهيم بـــها عمرت الغدو بـــها والرّواحـــا

نشأت عـــن الخـــير واعتدته فلم تدر إلاّ التّقى والصّلاحـــا

رحلت لـــها أيّمـــا رحلـــة كسحت المعارف فيها اكتساحا[1]

بهرت رجـــال الحديث اقتداء و فقت رجال الكمـــال اقتراحا

فما إن جليس إذا قلت قـــال أو أن لخطيب إذا لحت لاحـــا

و لو لـــم تحجّ بـــها مكـــة لـــحجّ الملائك عنك صراحـــا[2]

يمتاز مدح ابن خميس بما فيه من الصّدق، والتعبير عن الواقع المصحوب بالحكمة والنّصيحة ولكنّه ينحو أحيانا إلى المبالغة التي تشفع لها جماليات اللّغة والتصوير.

وابن خميس كغيره من الشعراء الذين يتناولون المدح بذكر الصّفات الشخصية للممدوح من كرم وشجاعة وإخلاص ورجاحة عقل وبشاشة.

يقول في مدح محمّد النّصري مبيّنا الصّفات التي تميّز بها الممدوح والتي كانت سببا في مجاورة الشاعر له.

وأخترت قرب جواره لخلوصه وتركت كلّ مماذق مـــراج

مافي زمانه غيره فاخلص لـــه عيبا وداهن من أردت وداج

---

[1] يشير إلى الرحلة التي قام بها الإمام محمد بن رشيد السّبتي مع ابن الحكيم، وجمع فيها (رحلة ملء العيبة، وإحضار ما جمع بطول الغيبة، في وجهة إلى مكةوطيبة) -أنظر محمد بن عبد الله التنسي -تاريخ بني زيان ملوك تلمسان -تحقيق محمود بوعياد ص128.

[2] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص95/94.

لا تحفلن بغـــيره واستعـــفين بوقاره من كلّ غمر مـــاج[1]

وممدوح الشاعر لشدّة طلاقة وجهه ينير كما ينير الكوكب الوهّاج في الظّلمات.

طلق إذا احتلك الزّمان أنار في ظلمائه كالكوكب الوهّاج[2]

وهو طود عظيم من الرصانة والرّزانة ورجاحة العقل وبحر متلاطم الأمّواج في جوده وسخائه.

طود الرصانة والرّزانة والحجا بحر النّدى المتلاطم الأمواج

وهو كالغمامة التي تجود بالغيث دون رعد ولا برق.

وغمامة الهامي على آماله من غير إرعاد ولا إرعاج[3]

كما نجد ممدوح الشاعر أقوى وأجمل من الصّباح المنير الذي يتخافت ضوءه ويتضاءل حينما يلاقي جبين ممدوحه، حيث تتضاءل الشمس لتغدو قمرا صغيرا.

يتضـــاءل الصّبـــح المـــنير إذا لاقى سناه جبينك الصلت[4]

حتّى كأنّ شمس الضّحى قمر وكأنّ ضوء شعاعها فخـــت

ولعلّ الشاعر هاهنا متأثر بالنّابغة الذّبياني في مدحه للنعمان بن المنذر ملك الحيرة حيث يقول :

أنت شمس والملوك كواكب إذاطلعت لم يبد منهنّ كوكب

ويصف الشاعر ممدوحه بالشجاعة والغلبة والظهور على الأعداء حيث يقول :

وهزبو آجام ألقنى الضّاري إذا سقطت عوائمها على الأزجاج

ضمن الإله لـــه على أعدائه ما شاء من ظفر و من إفلاج[5]

---

[1] م ن ص80.
المماذق: الذي لا يخلص في صداقته.
المراج : من يزيد في الحديث ويكذب.
[2] م ن ص80.
[3] م ن ص80.
الرعاج: تتابع لمعان البرق. الفيروز أبادي القاموس المحيط ج1 ص259.
[4] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس ص96.
الفخت : ضوء القمر أو ظله.
[5] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س- ص81/80. الافلاج : الغلبة والظهور. الفيروز أبادي القاموس المحيط ج1ص278.

ثمّ ينتقل الشاعر إلى مدح آل ممدوحه:

ما منهم إلاّ أغرّ مبـــــارك مصباح ليل أو صباح عجاج

كم كان في الماضين من أسلافهم من ربّ إكليل و صاحـــب تاج

أساس كلّ رياسة و رؤس كـــــ ل سياسة و ليوث كل هيّـــاج[1]

فردا يلف كتائبا بكتائـــــب ويكب أفواجا على أفـــــواج

حتى تجلى دجن كـــل عجاجـــة عنهم وأمسك رعد كلّ ضجـــاج[2]

ثم يبالغ الشاعر في وصف ممدوحه فيجعله تخشاه أسود الغاب وهي في عرائها، وحتى الرّوم وهي محميّة في أسوارها وأبراجها.

تخشاه أسد الغاب في أجماتها والرّوم في الأســوار والأبــراج[3]

ويقول في أبي زيان عامر بن أبي سعيد حيث جعله كالكعبة المنصوبة للجود يحجّ النّاس إليها من كلّ حدب وصوب، مبيّنا فضله عليه بما نال منه من العطايا.

وكعبـــة للجـــود منصوبـــة يسعى إليها النّاس من كلّ حال[4]

لقيت مـــن عامـــرهم سيّدا غمر رداء العمد جـــمّ النّـــوال[5]

أمّا في ابن رشيد فيصفه بالتّقوى والصّلاح لأنّه نشأ على الخير وتعوّده يقول :

نشأت على الخير و اعتدتـــه فلم تدر إلاّ التّقـــى والصّلاحا

لم يقتصر الشاعر على ذكر صفات ممدوحه الفطرية بل تعدّاها إلى ذكر الصّفات المكتسبة كالثقافة، والعلم وأحيانا يجمع بينهما كما فعل في قوله في مدح السلطان محمد الثالث :

جمع الفصاحة، والصّباحة والنّقا و الجود في وجد وفي إحـــراج

---

[1] المرجع نفسه ص81.

[2]:عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ص82. الدجن: إلباس الغيم الأرض وأمطار السماء والمطر الكثير (القاموس ج4 ص209) الضجاج: المشارة والمشاغبة الصحاح مجلد1 ص326.

[3] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس ص83.

[4] م.ن. ص116.

[5] م.ن. ص94.

وكما جمع الشاعر بين الجود والفصاحة جمع كذلك بين الحلم والعقل والعلم ويبدو ذلك واضحا في مدحه لبني العزفي أمراء سبتة إذ يقول :

يريّوننا بالعلم والحلم والنّهـــا فما خرجنا بزّ ولا حدّنـــا برخ[1]

إنّ ممدوح الشاعر ذو مكانة عظيمة بحيث لا يمكن لأحد أن يضاهيه وينافسه مكانته العلمية ومنزلته الثقافية في ردّ الآراء ونقض البراهين، والدّليل على ذلك أنّه إذا أراد يوما أن يجلي أمرا أو يبيّن حقيقة علميّة، فهو لا ريب سوف يفوق حهابذة الميدان ويزيد على ما يرى الثوري و الحجّاج، أمّا إذا خاض في الكلام عن الغريب فهو لا يبالي بالعتبيّ ولزا جّاجّ لأنّه يفوقهما خبرة ودراية بغريب الكلام. وفي هذا يقول الشاعر :

أو من يشق من الأنام غبـــاره في ردّ أراء و نقض حجاج

إن خاض يوما في بيان حقيقة رأبى على الثّوري و الحجّاج

وإذا تكلم في الغريب وضبطه لم يعبأ بالعتبيّ والزّجّـــاج[2]

أمّا في نظم الشّعر فإنّ قصائده أفضل بكثير من قصائد الحطيئة. وأراجزه خير من أراجز العجلى ورؤية بن الحجّاج. أمّا الرّحالة المغربي الكبير ابن رشيد والذي كان أديبا عظيما ذا عناية بالعلم والأدب صديقا للشاعر. فقد ذكر تعمّقه الواسع في العلوم التي اشتهر بها وذاع صيته في الآفاق لأنّه اكتسح المعارف اكتساحا في رحلته وبهر رجال الحديث اقتداءً بحيث لا يمكن لجليس أن يقول وهو حاضر ولا لأي خطيب أن يخطب وهو موجود لأنّه يفوق غيره ثقافة وأخلاقا إلى درجة أنّه لو لم يحجّ بمكّة لحجّت عنه الملائك صراحا.

ودرس علوم تهيـــم بهـــا عمرت الغدو بها والرواحـــا

رحلت لها أيّما رحـــلة كسحت المعارف فيها اكتساحا

---

[1] المقري نفح الطيب ج7 ص293–الخرج: وعاء وضع على ظهر الدابة الصحاح مجلد1ص309
البزّ: الثياب.
البرخ: الرّخيص من الأسعار.

[2] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، م س: ص83.

بهرت رجال الحديث اقتداءً وفقت رجال الكمال اقتراحـــا

فما إن جليس إذا قلت قال أو أن خطّيب إذا لحت لاحـــا

ولو لم تحج بها مكّـــــــة لحجّ الملائـــك عنك صراحـــا[1]

أمّا بني العزفي فهم روضات آداب يفوح أريجها فيتضاءل تحت أفنانها الشجر الملتفّ وهم مجامر يحترق فيها النّدّ دون نار ولا دخّان في حدائق نرجس، وهم أبحر علم اتساعا ونفعا لا حياض رواية.

وروضات آداب إذا تأرّجت تضاءل في أفياء أفنانهـــا الرّمـــخ

مجامر ندّ في حدائق نرجس تنمّ و لا لفح يصيـــب و لا دخ

و أبحر علم لا حياض رواية فيكبر منها النّضح أو يعظم النضخ[2]

ويبدو أنّ الشاعر هنا متأثر بمعنى الحديث النّبوي الشريف، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إنّما مثل الجليس الصّالح وجليس السّوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه وإمّا أن تجدمنه ريحا طيبا، ونافخ الكير إمّا يحرق ثيابك وإمّا أن تجد منه ريحا منتنة. "[3]

وممدوحو الشاعر كواكب هدي تنير الطّريق المستقيم لتبديد الضّلال، وهم ثواقف أنوار ترى كلّ غامض إذا الناس حاروا في ضلالهم.

كواكب هدي في سماء رئاسة تضيء فما يدجو ضلال ولا يطخو

ثواقب أنوار ترى كلّ غامض إذا النّاس في طخياء غيّهم التخـــوا[4]

---

[1] م.ن. ص83.

[2] المقري -نفح الطيب ج7 ص293.

[3] الإمام الحافظ يحيى الدين أبي زكرياء يحيى بن شريف النّووي -منهل الواردين شرح رياض الصالحين ضبط الأصل: د صبحي الصالح -دار العلم للملايين أنظر صحيح البخاري ج5 ص2104.

[4] المقري نفح الطيب م س. ج7 ص 293.

وأخير يجمع الشاعر أحسن وأفضل الصّفات، فطرية ومكتسبة في كلمة مكارم، فينسج بها وشاحا بديعا، موشى رفيعا يعبّر عن عزّة صاحبه وقدره وسيف علاه :

مكارم جمعت أفـــذاذهـــا فكانت لعضب علاك وشاحا[1]

قد يتخلّى الشاعر أحيانا عن ذكر الصّفات، ويعمد إلى بيان فضل الممدوح عليه، ومساعدته له في رفع شأنه بين النّاس، وكسب أصدقاء جدد، يتقرّبون إليه طاعة و محبّة فيعافون ما يعاف، ويشاؤون ما يشاء.

ولولا جوارابن الحكيم محمّـــد لما فات نفسي من بني الدّهر إقماء

حماني فلم تنتب محلي نوائـــب بســـوء و لم ترزأ فـــؤادي أرزاء

وأكفأ بيتي في كفالة جاهـــــه فصـــاروا عبيدا لي وهم لي أكفـــاء

يؤمّون قصدي طاعة و محبّـــــة فما عفتـــه عافوا وماشئتـــه شاؤوا[2]

وإخوان صدق من صنائع جاهه يبـــادرنني منـــهم قيـــام وإيـــــلاء

سراع لما يرجى من الخير عندهم ومن كلّ ما يخشـــى من الشرّ أبراء[3]

وكذلك نجد هذا مع بني زيان فهم الذين ساعدوا وخفّفوا على النّاس أمورهم الصعبة لذلك فهم رؤساء أخيار، وملوك أفاضل كرام.

ولولا بنو زيان ما لـــذّ لي الـــ ـــعيش ولا لهت عليّ اللّيالي

هم خوّفوا الدّهر وهم حفّفـــوا على بني الدّهر خطـــاه الثّقال[4]

يقرن الشاعر أحيانا مدحه بالإفتخار والإعتداد بالنّفس تماما كما يفعل المتنبّي، ولكنّ ابن خميس لا يتجرّأ لأن يكثر ويبالغ في أن يجعل لنفسه نصيبا مع الممدوح كما كان يفعل مادح سيف الدّولة.

---

[1] م. ن. ص.285.
[2] م ن ص296.
[3] م.ن ص296/97.
[4] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، م س- ص125.

حماني فلم تنتب محلى نوائب بسوء و لم ترزأ فـــؤادي أرزاء

و أكفأ بيني في كفالة جاهه فصاروا عبيدا لي وهم لي أكفاء

يؤمون قصدي طاعة ومحبة فما عفته عافوا و شئتــه شاؤوا[1]

أو يفتخر بشعره كما في قوله :

لأفواه أعدائي، وأعين حسّدي إذا جلّيت خائيتي الغصّ والفضــخ

دعوها تهادى في ملاءة حسنا ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ[2]

ولعلّ ثقافته الواسعة، وروايته للشعر الجاهلي والأموي قد ساعده على إيراد الحكم والنّصائح كما يتجلّى ذلك أثناء مدحه لبني العزفي، فهو يدعوهم إلى تحقيق ما يرغبون فما دون ذلك ما يمنعهم، و يحثّهم على مواجهة الأعداء لأنّهم قادرون، وينصحهم بالتّرفّع عن صغائر الأمور والتخلي عن توافهها.

بنو العزفيين أبلغوا ما أردتـــم فمادون ما تبغون وحل ولا زلــخ

ولا تقعدوا عمن أراد سجالكمّ فما غربكم ولا غرفكم وضـــخ

وخلّوا وراء كلّ طالب غايــة تيهوا على من رام شأوكــم وانخوا

ولا تذروا الجوزاء تعلوا عليكم ففي رأسها من أسلافكم شــدخ[3]

يعتقد طاهر توات أن هذا النّصح يكاد يشبه نصح بشار بن برد للثائر الفاطمي إبراهيم بن عبد الله الذي كان مناوئا للخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور.[4]

وأبيات بشار هي :

أقول لبسام عليه جلالـــــة غدا أيحيّا، عاشـــقا للمكــارم

من الفاطميين الدّعاة إلى الهدى جهارا، ومن يهديك مثل ابن فاطم

---

[1] المقري نفح الطيب ج7 ص296.

[2] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص 106.

[3] المقري نفح الطيب ج7 ص294.

[4] طاهر توات -ابن خميس شعره ونثره م س- ص127.

فأدن على القربى، المقرب نفسه ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم

وخلّ الهويني للضّعيف، ولا تكن نؤوما، فإنّ الحزم ليس بنائم

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم[1]

ويقدم الشاعر ابن خميس نصائح كذلك في معرض مدحه للسلطان محمّد الثالث حيث يقول :

ما في زمانك غيره فأخلص له غيبا وداهن من أردت وداج

لا تحفلنّ بغير واستعفين بوقاره من كلّ غمر ماج

اترك بني الدّنيا وأعرض عنهم فعساك تطعم لذّة الإثلاج[2]

ثمّ يمزج الحكمة المستخلصة من تجارب حياته بالنّصيحة النّافعة لممدوحه ويعرضها في مدحه ليقدّمها لصديقه ابن الحكيم .

لا تحسبنّ البخت نيل غنى نيل الرّضا منه هو البخت

و نهجت سبل المكرمات فما لمؤمّل عن غاية ألت

هادن طغاة الكفر ما هدأت حتّى يجيء نهارها المحت

دعها تودّع في معاقلها ما لم تعدّ جفاتها العنت[3]

يأخذ الشاعر ابن خميس صور ممدوحه من الطبيعة بما اشتملت عليه من أمطار وبحار وحدائق وجبال.فممدوحه ابن الحكيم مثلا مطر نافع، شامل للمرتفع والمنخفض، وهو ظلّ معتدل في الصيف ودافيء في الشتاء حيث يقول :

عمّ الورى جودا و فضل غنى حتّى تساوى العدّ و الغلت

وهمى على عال ومنخفض لم يبق فوق لا، ولا تحت

ظلّ إذا نصطاف معتدل عطر الشّذا وحيا إذا نشتو[4]

---

[1] الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور –ديوان بشار بن برد ج7 ص94/193 –طبع تونس 1976م.

[2] لسان الدين بن الخطيب الإحاطة في أخبار غرناطة م س –ص550/549.

[3] م.ن ص547.

[4] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص75-76.

أما في الجود والكرم فإنّ الطّبيعة تهديه البحر والغمام.

طود الرّصانة والرّزانة والحجا بحر النّدى المتلاطم الأمواج

و غمـــامة الهامي على آماله من غير إرعاد وإزعـــاج[1]

ثمّ يستعمل الرّوضة الّتي يفوح أريجها أدبا، والبحر الذي ينضخ علما عند مدحه لبني العزفي فيقول :

وروضات آداب إذا ما تأرّجت تضاءل في أفياءِ أفنانـها الرّمـــخ

وأبحر علم لا حيـــاض روايـــة فيكبر منّ النضخ أو يعظم النّضخ[2]

2- الفخـــر :

لم يطرق الشاعر ابن خميس الفخر في قصائد مفردة، فجلّ فخره يرد داخل القصيدة الواحدة المتنوعة الأغراض، وغالبا ما يكون في آخرها، وقد يجيء بيتا أو بيتين فقط.

ويبدو أنّ حالته الاجتماعية البسيطة قد حرمته من دواعي الفخر فلم يجد في شخصيته إلا داعيّين داعي النّسب وداعي الشّعر.

ولذلك يسمح لدّارس فخره أن يقف على نوعين من الإفتخار عند ابن خميس : افتخار قبلي وافتخار شخصّي.

ففي الافتخار القبلي نجده وكأنّه يريد إحياء نزاع عربي قبلي قديم واقع بين القحطانيين والعدنانيين والذي صاحبهم حتّى الأندلس. لذلك يتساءل الدّارس، لماذا لم يفتخر بعربيته وفقط ؟ خاصّة وأنّه في بلاد غير عربية الأصل وبين أجناس آخرين ؟ أو لم يجد لنفسه ندّا من الأمازيغ المستعربين ؟ أم أن كلّ ذلك إنّما هو لضرب الماكرين والسّاخطين كابن هدية القرشي العدناني ؟ يقول :

يغصّ ويشجي نهشل ومجاشع بما أورثتني حمير السّكاسك[1]

---

[1] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبارغرناطة م س- ص550.

[2] المقري: نفح الطيب م س ص293.

يفتخر ابن خميس بانتمائه القحطاني وبيمانيته دون أن يخرج عن المعاني السائدة من قبل في العصر الجاهلي والأموي والإسلامي.إذ ينسب لقومه الكرم، ورعاية ابن السّبيل، والشّجاعة في الحروب والتفوّق على الآخرين. يتجلّى ذلك بوضوح في القصيدة التي مدح فيها بني العزفي والتي ختمها بفخر يتغنّى فيه بأمجاده العربيّة القحطانية ويذكر تتابعة اليمن. فهم لم يخلقوا إلاّ لإغاثة الجائع المسكين وحماية اللاّجيء المغترب، وأن سيوفهم مطبوعة على حزّ الغلاصم والأوداج، فالأعداء تهابهم عند اللّقاء، يقول :

إنّا بنو قحطان لم نخلق لغيـــ ر غيات ملهوف ومنعة لاجي[2]

بسيوفنا البيض اليمانية التي طبعت لحزّ غلاصـــم، ووداج

تأبى الأحجام مـــن أعدائنا يوم اللّقاء طهـــارة الأمشـــاج[3]

ثم ينتقل إلى ذكر دورهم في الإسلام، فهم أنصار دين الهاشمي، وحماته في المواقف الصّعبة ولعلّه يشير حسب رأي عبد الوهاب بن منصور إلى حماية الأنصار للرّسول -صلّى الله عليه وسلم- يوم تفرّق عنه المسلمون في غزوة حنين، ثمّ يستدلّ على ذلك الدّور الفعّال بما أثر عنهم من حكمة يمانية أشاد بها الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-وبالرّكن اليمني لبيت الله الحرام:[4]

أنصار دين الهاشمي، و حـــزبه وحماته في الجحفل الرّجراج

و فداته بنفوسهم ونفيسهـــم من غدر مغتال (وحدة) هاج

---

[1] لسان الدين بن الخطيب الإحاطة في أخبار غرناطة م س - المجلد الثاني ص 535.
نهشل قبيلة عدنانية ومجاشع بن دارم أبو قبيلة من تميم.
حمير: ابن سبأ بن يشعب بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة قحطانية والسكاسك: حي باليمن جدهم سكاسك بن أشرس. أنظر تاريخ العرب القديم أبيه عاقل ص33.

[2]: بنو قحطان: هم عرب الجنوب أو قبائل اليمن نشأوا في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة. أنظر تاريخ العرب القديم أبيه عاقل ص33.

[3]: عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص84/83.

[4]: " قال إذا جاء نصر الله وجاء الفتح وجاء أهل اليمن نقية قلوبهم لينة طاعتهم الايمان يمان، والفقه يمان والحكمة يمانية" رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما. أنظر : عبد الرحمن بن علي محمد بن عمر بن الربيع -تحقيق عبد الله الحبشي "بغية المستفيد في مدينة زبيد" مركز الدراسات اليمانية صنعاء 1979 وأنظر هذا الحديث وتمامه في نثر الدر المكنون ص27.

هم صفوة الخلق التي اختيرت له وسواهم همج من الأهمـــاج
وكفى بحكمتنا إقامـــة حجّـــة وبركننا من كعبة الحجّـــاج[1]

ثمّ يعود ثانية للإفتخار بنسبه وقومه ذاكرا أمجادهم التاريخية مبيّنا بأنّ التّبابعة منهم خضعت لهم ممالك الدّنيا طوعا لا كرها لأنّهم قوم كرام النّفوس وأبوابهم مفتوحة دائما وأبدا لضيوفهم يقول:

و لنا مفاخر في القديم شهـــيرة كالصّبح في وضح وفي إبلاج
منّـــا التّبابعة الذيـــن ببابهـــم كانت تنيخ جباة كلّ خراج
ولأمرهم كانت تدين ممالك الدّ نيا بلا جبر ولا إحـــــــراج
من يقتدح زندا فإن زنادهـــم في الجود وارية بلا إحـــراج
أبوابهم مفتوحـــة لضيوفهـــم أبدا بلا قفل ولا مـــــزلاج[2]

وفي القصيدة التي مدح فيها بني العزفي ينسب لليمنيين الزّهد والتقوى ويضرب لذلك مثلا بأملاك اللّخمين القدامى، حيث يروي قصة أحد ملوكهم وهو النعمان بن امرئ القيس الذي تخلّى عن ملكه وساح في الأرض زهادةً.

وما الزّهد في أملاك لخم ولا التّقى ببـــدع وللدّنيا لزوق بـــمن يرخو
وإلا ففي ربّ الخورنـــق غـــنيـــة فما يومـــه سرّ ولا صيته رضـــخ
تطلّع يومـــا والسّـــرير أمامـــــه وقد نال منه العجب ما شاء والجفخ
وعنّ لـــه من شيمة الحقّ قائـــم بحجّة صـــدق لا عبـــام ولا وشخ
فأصبـــح يجتاب المسوح زهـــادة وقد كـــانيؤذي بطن أخمصه الذّخّ[3]

وقد فتخر الشاعر كذلك بالعرب عموما مبيّنا الأنفة والأصل الكريم والفصاحة وذلك عند مروره ببعض القبائل وهو في طريقه إلى سبتة حيث قال :

---

[1]: عبد الله بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص84.
[2] م ن ص ن
[3] م ن ص104.

وإلاّ أعاريب شمّ الأنــوف كرام الجدود فصاحا صباحا[1]

وير دّد الشاعر كلمة اليمن كثيرا في شعره، ليس في موضع الافتخار بهم بل حتّى في افتخاره بشعره وقصائده، ففي البيت الأخير من هذه القصيدة نرى كيف اجتمع الفرع بالأصل فحقّ الزّهو واستحكم الكبر يقول :

يمانيّــة زارت يمانــين فانثنــت وقد جدّ فيها الزّهو واستحكم الزّمخ[2]

أمّا الإفتخار الشّخصي فيتمثل في كفاءته الأدبيةوالفكرية، وقدرته على النّظم، هذا النّظم الذي يتحدّى به أعداءه من أن يأتوا بمثله، ومن ذلك خائيته التي نظمها ليكمّم أفواه أعدائه ويضرب على أعين حسّاده، يقول:

لأفــواه أعدائي، و أعــين حسّدي إذا جليت خائيتي الفــضّ والفضخ

دعوها تهادى في مــلاءة حسنهــا ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ

يــمانيــة زارت يمانــين فانثلــت وقد جدّ فيها الزّهو واستحكم الزّمخ[3]

وفي القصيدة التي مدح بها الوزير ابن الحكيم يبيّن الشاعر قدرته الشعرية، وتمكّنه من صياغة قصيدته كيف يشاء دون الإخلال بقواعد الشعر ومن غير ارتكاب عيوبه، يقول :

إليك أبا عبد الإلــه صنعتها لزوميّة فيهــا لسرّي إفشــاء

مبرّأة مما يعيــب لزومهــا إذ عاب إكفاء سواها وإيطاء[4]

---

[1] م.ن. ص92.

[2]: عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م. س ص106 –الزمخ: الكبر.

[3]: م.ن ص106.

[4]: م.ن ص66-67 –الإيطاء : تكرير كلمة الروى لفظا ومعنى –الإكفاء : اختلاف الروي بحروف متقاربة المخارج وكلاهما من عيوب القافية.

ولعله متأثر بأبي العلاء المعري في لزوميّاته وإن أجمع الدّارسون أن قصيدة ابن خميس ليس فيها لزوم ما لا يلزم. هذا التأثر يبرز مرّة أخرى في الإفتخار بأفكاره وأسلوبه في ختام قصيدته التي مدح بها الرحالة المغربي ابن رشيد حيث يقول :

وهنّ بنات فكري، وقــد أتينك فاخفض لهنّ الجناحا[1]

ويفتخر الشاعر بنفسه وبشاعريته، فهو شاعر مستملح النّزعة عذب المقال يلتفظ الألفاظ لفظ النّوى وينظم الشعر كاللآل مقلّدا معيار الدّيلمي[2] في قوله :

ما كنت لولا طمعي في الخيال أنشد ليلى بين طول الليال

ويقول ابن خميس :

خذها أبا زيّان من شاعــر مستملح النزعة، عذب المقال

يلتفظ الألفاظ لفــظ النّوى وينظــم اللألاء مثــل اللآل[3]

ويتحدّى الشاعر في رسالته الشعرية النثرية والتي وجهها إلى أبي الفضل وأبي البركات أن ينسج أي شاعر على منوالها، يقول :

خذها أبا الفضل بن يحيى تحفة جاءتك لم ينسج على منوالها

ما جال في مضمارها شعر ولا سمحت قريحة شاعــر بمثلها

وأنل أبا البركات من بركاتها وادفع محال شكوكه بمحالها[4]

وسواء أكان الشاعر يقصد بالتحفة رسالته، أو معنى صوفيّا في نظر طاهر توات فإنّ الشاعر يفتخر ويتحدّى غيره.

---

[1]: م. ن ص95.

[2]: أبو حسن مهيلر بن الديملي الشيعي، كان ماجوسيا وأسلم على يد الشريف الرضى سنة 394 وتتلمذ على يده، وجاره في منازعة حتى كاد يفوقه، توفي ببغداد سنة 428هـ أنظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ج2 ص65.

[3]محمد عمرو الطمار: تاريخ الأدب الجزائري م س – ص 181.

[4]عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص121.

ويبدو أن هذا الافتخار والتحدّي قد قذف في نفسه قليلا من الإعجاب، حتى أصبح النّاس له عبيدا وهم في منزلته يطيعونه، ويحترمونه، فهم رهن إشارته، يعافون ما يعافه ويشاؤون ما يشاؤه، وقد لبىّ النّداء إلى المجد الذي دعاه إليه صديقه ابن الحكيم ولكأنّه يخطو خطوات المتنبّي، حين يقول :

ولولا جوار ابن الحكيم محمّد لما فات نفسي من بني الدّهر إقماء

وأكفأ بيتي في كفالة جاهـــه فصاروا عبيدا لي وهم لي أكفاء

يؤمون قصدي طاعـــة و محبّة فما عفته عافوا وما شئته شاؤوا

دعاني إلى المجد الذي كنت آملا فلم يك لي عن دعوة المجد إبطاء

وبوأني من هضبة العز قلعـــة يناجي السّها منها صعود وطأطاء[1]

ثمّ هاهي ذي الأرض تأنف مقامه، فلا يجد بدا سوى أن يعود أدراجه، فيمتطي رحاله حيث يقول:

وتأنف الأرض مقامي بها حتى تهاداني ظهر الرّحال

ويكثر حساده في كل مقام وقاذفيه بالبهتان في كل مقال :

وأيّ مقام ليس لي فيه حاسد؟ وأيّ مقـــال ليس فيه قادح

ثمّ يتحدّى فرسان البلاغة، ويبين منزلته الحقيقية ويجلّي ذكره :

ألا قل لفرسان البلاغة أسرجوا فقد جاءكـــم منّي المكافي المكافح

أيخمل ذكري عندهم وهو نابه ويغمط شجوي عندهم وهو شائح[2]

ثمّ يتعجّب من الإقامة ببلدة دون أن يصيبه أذى من جهّالها، ولعلّ البلدة هي مدينة فاس، وجهّالها هم فقهاؤها الذين اتهموه بالزّندقة فحوكم ونجا بأعجوبة، يقول :

ومن العجائب أن أقيم ببلدة يوما وأسلم من أذى جهّالها

---

[1] م ن- ص66.
[2] م ن- ص 87.

شغلوا بدنياهم، أما شغلتهم عني؟ فكم ضيّعت من أشغالها[1]

فتعجّب ابن خميس يشبه تعجّب المتنبّي من إقامته بإحدى القرى اللّبنانية لبني كلب عند بعلبك في قوله :

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهود[2]

بيد أن هذا التّشابه لا يسمح للدّارس أن يسلّم بهذا الحكم فالفرق بين الشخصيتين واضح والبون بين الطّموحين شاسع.فابن خميس فقيه زاهد، لايجري وراء دنيا يصيبها، إنّما هو فار من مصائب تلاحقه ومكائد تحاك له، لذلك راح يصحب فخره أحيانا بالحكمة والنصيحة، فهو يرى أنّ جسده يفنى وأعماله وصفاته تبقى، يقول :

فلا تدعون غيري لدفع ملمّة إذا ما دهى من حادث الدّهر داهك

فماإن لذاك الصّوت غيري سامع وما إن لبيت المجد بعدي سامك

تفارقني الرّوح التي لست غيرها وطيب ثناني لاصق بي صائك[3]

ثمّ يقدّم نصيحة لبني الدنّيا، لأنّه بصير بالأمور طويل المراس عن تجارب ذاق حلوها ومرّها، تعرّضت له الأهوال والمصائب.

إليكم بني الدّنيا نصيحة مشفق عليكم، بصير بالأمور نقاب

طويل مراس الدّهر جذل مماحك عريض، مجال الهّمّ، جليس ركاب

تأتّت له الأهوال أدهم سابقا وغصت به الأيام أشهب كاب[4]

وهو مع ذلك غير قانط ولا ساخط ولا معاتب للدّهر، يقول :

ولا تحسبوا أنّي على الدّهر عاتب فأعظم ما بي منه أيسر مابي

ولذلك كان حكمه على الدّهر والزّمان يختلف عمّن سبقه من الرّجال، يقول :

---

[1] م. ن- ص120.

[2] مصطفى السيبتي: شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لبنان، بيروت، دار الكتاب العالمية، ط/1 1406هـ/ 1986 ص63.

[3] المقري: نفح الطيب م س- ج7 ص283.

[4] م ن ص285.

أما تراني آخذا ناقصا عليه مـا سوّفني من محال

و لم أكن قطّ له عائبا كمثل ما عابته قبلي رجال[1]

فهو إذن لا يوافق قول المتنبّي :

أريد من زمني ذا أن يبلّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزّمن[2]

ولا قول عنترة :

عتبت الدّهر كيف يذلّ مثلي ولي عزم أقدّ به الجبالا[3]

افتخر الشاعر كذلك بمنصبه الفلسفي، وميله الصّوفي، ويتجلّى ذلك خصوصا في رسالته الشعرية النثرية خاصّة حين يقول:

أنا من بقية معشر حركتهم هذي النوى عراك الرحا بثفالها

أكرم بها فئة أريق نجيعهـا بعيا، فراق العين حسن مآلهـا

إلى أن يقول :

اعلم أبا الفضل بن يحيى أنّني من بعدها أجرى على آسالهـا

فإذا رأيت مولها مثلي فخذ في عذله إن كنت من عذلهـا[4]

---

[1] م ن ص284.

[2]: حنا الفاخوري: منتخبات الأدب العربي ، منشورات المكتبة البولسية بيروت لبنان ط/5- ص326.

[3]: كرم اليستاني: ديوان عنترة –دار صادر بيروت ص203.

[4] المقري: نفح الطيب م س ج7 ص298.

3- الحنـــين :

لعلّ أهم غرض تفجّرت فيه قريحة الشاعر، وفاضت له عاطفته جداول حبّ وغدران شوق تسقي ربوع تلمسان من بعيد هو الحنين.

لقد غادر الشاعر بلدته وقلبه معلّق بأبواب أسوارها الموصدة، وقد آلمه الفراق فراح يرثي معالمها ويتوق إليها راغبا في الأوبة لوشاء القدر. لذلك فغالبا ماكان الشاعر يبدأ قصائده بالحنين ثم ينتقل إلى الأغراض الأخرى إلاّ قصيدة واحدة خصّصها للشوق وحده.

ففي قصيدة التي مدح فيها بني العزفي، تطرّق في أوّلها إلى رثاء تلمسان، وهجا ملوكها ثم انتقل إلى مدح بني العزفي.

فيوهذا الرثاء تتجلّى عاطفة الشاعر الصادقة والقوية المعبّرة عن تعلّقه ببلدته الجميلة إنّه يتشوق لمشاهدها ويتأوّه من تذكّره لمعاهدها فهي عنده أفضل من دار السلام والكرخ، فليت الزّمان يجود عليه برجعة إلى داره الأولى ومسقط رأسه ومرتع صباه أين قضى أيام عمره الأولى، يقول :

تلمسان لو أنّ الزّمان بها يسخو ... منى النّفس لا دار السّلام ولا الكرخ

وداري بها الأولى التي حيل دونها ... مثال الأسى لو أمكن الخق واللّبـــخ

وعهدي بها والعمر في عنفوانـــه ... وماء شبابي لا أجين ولا مطـــــخ

قرارة تهيام ومغنى صبابـــــة ... ومعهد أنس لا يلذّ لطـــــــخ[1]

ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف معالم بلدته التي تعرّضت للتّخريب من جرّاء الحرب التي شنّها المرينيون عليها وأصبحت هذه المعالم أطلالا بالية كأنّها ألواح صبيان قد لطّخوها بالكتابة، هذه الألواح التي طالما استعملها الشاعر وهو طفل يتعلّم في كتاتيب تلمسان.

معـــاهد أنـس عطّلت فكأنّـــها ... ظواهـــر ألفـــاظ تعمـــدّها النّسخ

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص96 –دار السلام: بغداد –الكرخ : ربعها الشرقي –اللبخ : الضرب والشتم –الطخ : الدنس –ملتخ : سكران مختط لا يفهم شيئا –العفار: شجر يتخذ منه الزناد –المرخ: شجر رقيق سريع الوري.

وأربـــع آلاف عفا بعض آيـــها كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخ[1]

ويشتدّ الشوق إلى درجة للسّكر، فلأن سكر الناس بهم مرّة فإنّ الشاعر دائم السّكر ومن أراد أن يوقدنار جذوة فإنّ نار الشاعر أسعر، يقول :

فمن يك سكرانا من الوجد مرّة فإنّي من طول دهري لملتـــــخ

ومن يقتدح زندا لموقد جـــدوة فزند اشتياقي لا عفار ولا مزخ[2]

ثمّ يحيل تلك المعاهد الخربة والأطلال البالية إلى أيّام عهدها عندما كان يتمتع بين جنباتها، فكيف له أن ينسى لهوه في عرصاتها مختالا كما يختال الرّخ، عاديا كما يعدو الظبّي، لاعبا كما يمشي الفـــرخ، فشبه نفسه بأعظم ملوك الفرس معترفا ألاّ ملك له بتلمسان إلاّ ريعان الشباب واللّهو واللّعب، ولعل هذا ما يضيف بعض التـــأكيد على أن الشاعر كان فقير الحال، يقول :

أأنسى وقوفي لاهيا في عراصها؟ ولا شاغل لي إلى التـــو دّع والسّبخ

وإلاّ اختيالي ماشيّا في سماطها زيجّا كما يمشـــي بطرته الـــــرّخ

وإلا فعدوي مثلما ينفر الطـــّلا وليدا، وحجلي مثلما ينهض الفرخ

كأنّي فيها أرد شيرين بابـــك ولا ملك لي إلا الشبيبة والشـــرخ[3]

بعد ذلك يصف الشاعر أصدقاءه فيشبههم بالجآذر حسنا وهيئة، وهم كذلك وعاة مهتدون لا يلتفظون فحشاء ولا يرتكبون منكرا، الكبير منهم والصغير سيان. ولكنّهم مضوا ومضى ذاك الزّمان، فغاب عهد الشباب والأنس وولّت أيّام السعادة والبذخ.

وإخوان صـــدق من لداتي كأنّهم جآذر رمل لا عجاف ولا بزخ

وعاة لم يلقـــى إليهم من الهـــدى وعن كل فحشاء ومنكرة صلخ

---

[1]: م.ن ص96.

[2] م.ن. ص97.

[3] م.ن ص ن. السبخ : الفراغ –الرخ: من قطع الشطرنج –الطلا: ولد الظبي.أردشير بن بابك بن ساسان مؤسس الطبقة الرابعة من ملوك الفرس. أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الأول دار الكتاب العربي بدون تاريخ ص221.

هم القوم كل القوم سيّان في العلا شبابهم الفرغان والشيخة السّلخ

مضوا ومضى ذاك الزّمان و أنسه ومن الصبا والمال والأهل والبذخ[1]

وبالإضافة إلى الحسن والقد والورع والأدب فإنّ أصدقاء الشاعر ذوي ثقافة وعلم ودراية.

كأن لم يكن يوما لأقلامهم بهـــا صرير و لم يسمع لأكعبهم جبـــخ

و لم يك في أدواحها مـــن ثنائهم شميم ولا في القضيب من لينهم ملخ

ولا في محيا الشمس من هديهم سنا ولا في جبين البدر من طيبهم ضمخ[2]

لئن كان الشعراء الجاهليون يستهلون قصائدهم بالوقوف على الأطلال ووصف الناقة، فإنّ الشاعر أصبحت الأطلال لديه تلمسان، فهي في موضع الطلل وفي موضع الغزل، بل أصبحت الموضوع المقصود لذاته وسواها عارض.

ففي قصيدته التي مدح فيها بني العزفي يفجّر الشاعر وجدانه أشواقا ومحبة يبعثها لتلمسان، فهو يسأل الريح عساها تمنّ عليه بخبر، ويرى في خفقان البرق إشارة وتحية من بلدته، يقضي الليلة تلو الليلة محدّقا صاغيّا نحو الشرق ينتظر نبأ عن تلمسان تجيء به ريح الصّبا.

سل الريح إن لم تسعد السّفن أنواء فعند صباها مـــن تلمسان أنباء

وفي خفقان البرق منهـــا إشارة إليك بما تنمي إليـــك و إيمـــاء

تمـــر الليالي ليلـــة بعـــد ليلـــة وللأذن إصغـــاء وللعين إكلاء

وإنّي لأصبو للصّبا كمـــا سرت وللنّجم مهما كان لمنّجم إصباء

وأهدي إليها كـــلّ يـــوم تحيّة وفي ردّ إهـــداء التحيّة إهـــداء[3]

ثمّ ينتقل إلى وصف حاله حيث أصبح كهائم قد أضناه الحب، يبحث عن طيف حبيبته في كلّ مكان لا يغادره ذكراها. فهو يحاول أن يستجلب النّوم كرها لأن مضجعه قد ملىء قتادا

---

[1] م.ن ص98. اللدّة: الترب – العجف: الهزال- البزخ: خروج الصدر ودخول الظهر.
[2] م.ن ص98.
[3] م.ن. ص62.

وسلاء، عساه يرى طيفها في نومه ليخفف عليه حرارة اللّوعة، ويهدّىء من شدة الشوق، ثمّ أنّى له أن يتخلّص من طيفها وهي تراقبه في كلّ حين، يقول :

واستجلبت النّوم الغيرار ومضجعي قتاء كما شاءت نواها وسلاء

لعلّ خيـــالا مـــن لدنـــها يمـــرّ بي ففي مرّه من جوى الشّوق إبراء

وكيف خلوص الطّيف منها؟ ودونها عيون لهـــا في كلّ طالعـــة راء[1]

إنّ هذا النّزاع يكاد يهلك الشاعر، وقد لاحظه بعض النّاس فعاتبوه عن هذا الحبّ المفرط والشّوق المسرف فيه أفلا ينساها وقد بلى فيها كل شيء، يقول :

وكم قائـــل تفنى غراما بحبّهـــا وقد أخلقت منها ملاء وأملاء[2]

وهذا الهيام الشديد، والطّيف الطّارق، وانتظار الصّبا كرسول ليشكّل حبّا خاصّا على شاكلة حبّ جميل بثينة، في قوله :

ألا يا ريح الشمال أما تريني أهيم وإنّي بادي النّحول؟

هبي لي نسمة من ريح بثن ومنّي بالهبوب إلى جميـــل[3]

وقوله :

ألمّ خيال من بثينة طارق على النأي مشتاق إليّ وشائق[4]

ثمّ يسير الشاعر إلى تلك الفاجعة التي نزلت ببلدته والمحنة التي ألّمت بها، ذلك الحصار المريني الطّويل الذي أحكم على أسوارها فصارت عرضة للعابثين خرابا، ومكانا ضيّقا لقاطنيها الذين رحلو عنها. فلم تعد كعهدها مقاما طيّبا للنازلين والرّاكبين، يقول :

لعشرة أعوام عليها تجرّمت إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء

يطنّب فيها عائتونه وخرب و يرحل عنها قاطنون وأحياء

---

[1] م.ن. ص62-63. الإكلاء: ترديد البصر في الشيء مصوبا ومصعدا.
[2] م.ن. ص63. القتاد شجر صلب له شوك كالأبر.
[3] بطرس البستاني: جميل بثينة- الديوان: دار بيروت للطباعة والنشر 1988 ص86.
[4] م ن ص ن.

كأنّ رماح الذاهبين لملكها قداح و أموال المنازل أبـــداء

فلا تبغين فيها مناخا لراكب فقد قلصت منها ظلال وأفياء[1]

يتساءل الشاعر فيما بعد : هل ينسيه ما أصابها من دمار أيام أنسه؟ وهل ستنطفىء نار الحرب بعد كل هذا الشقاء الذي نزل ببلدته ويحين الوقت الذي يعود فيه الشاعر إليها فرحا مستبشرا؟ ثمّ يتحسّر خوفا من أن يهلك قبل أن يرى أصحابه ويطرق الدّير التي طالما طرقها ليلا وطاف بين أزقتها والنّاس نيّام، يقول :

فيا مترلا نال الرّدى منه ما اشتهى ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء

وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي إذا ما انقضت أيّام بؤسك إطفاء؟

وهل لي زمان أرتجي فيه عـــودة إليك ووجه البشر أزهر وضـــاء

فواحر بالي إن هلكت و لم أقـــل لصحبي بها الغرّ الكرام إلا هاؤوا

و لم أطرق الدّير الذي كنت طارقا بليل وبدر الأفق أســـلخ مسناء

أطيف بـــه حـــتى تمرّ كلابـــه وقـــد نام عسّاس وهـــوم سبّاء[2]

وهكذا أصبح الشاعر لايجد في سواهالذّة لماء ولا طيّب طعام إلاّ في بلدته، يقول :

فما لشرابي في سواك مزازة ولا لطعامي دون بابك إمراء[3]

ثمّ يذكر الشاعر أحد أحيائها ألا وهو " درب حلاوة "الذي أصابه الخراب والدمار، ويتمنّى الشاعر أن يعود إلى حالته الأولى حينما كان يمرّ به الأصدقاء والأحباب.

وياداري الأولى بدرب حلاوة وقد جدّ عيت في بلاها وإرداء

أما آن أن يحمي حماك كعهده و تجتاز أصحاب عليه أحمـــاء

أما آن أن يعشو لنارك طارق جنيب لـــه رفـــع إليك ودأداء

---

[1] م.ن. ص63. – تجرم العام : انقضى –القيظ: شدة الحر الأهراء: شدّة البرد.

[2] م.ن. ص64. –الأقداح: ج قدح بالكسر سهم الميسر –ولعل المراد بالأبداء ما يرجه لاعبو الميسر.

[3] م.ن. ص65. –الإنسا: الحمل على النسيان.

يرجى نوالا أو يؤمّل دعـــوة فما زال قارّي في ذراك وقرّاء[1]

لعلّ أروع ما قال الشاعر ابن خميس في الشوق والحنين هي قصيدته " يطير فؤادي " التي نظمها بالأندلس، وخصّصها للشوق وحده من دون ذكر الأغراض الأخرى. بثّ فيها كامل عاطفته وإحساسه، وسكب كل مافي جنانه من محبّة وشوق، وطاف فيها بين أشهر أحياء تلمسان متأملا مناظرها البديعة، متبرّكا بضريح شيخها الجليل ووليّها الصالح أبي مدين الغوث.

تلمسان جاءتك السحابُ الدّوالح وأرست بواديك الرّياح واللّواقح

وسح على ساحات باب جيادها ملث يصافي تربها ويصافـــــــح[2]

لقد أصبح فؤاده يطير كلما لمح بارق علّه يسمع خبرا عن بلدته، وينهل دمعه كلما ناح طائر بل صار كل شفر من أشفار جفونه دلوا يمتح دموعه، وفي كل جزء من فؤاده تضرم نار شوقه، فكأنّما الماء كل الماء دموعه وكأنما النار كل النار ما تخفيه جوانحه من شوق، وهو مع ذلك يحاول أن يكتم هذا الحزن البليغ واللوعة الشديدة، ولكنّه لا يطيق ذلك لأنّ الدمع يفضحه.

يطير فؤادي كلّما لاح لامـــح وينهل دمعي كلما ناح نائـــح

ففي كل شفر من جفوني مائح وفي كل شطر من فؤادي قادح

فما الماء إلا مـــا تسحّ مدامعي ومـــا النّار إلا ما تجن الجوانح[3]

بعد باب الجياد يذكر الشاعر معلما آخر من معالم تلمسان، ألا و هو ساقية الروميّ وهي ما تعرف بساقية النصراني والتي لها مكانة خاصّة عند الشاعر لأنّه طالما غدا فيها وراح لاهيا لاعبا مستمتعا بمسيل الماء فيها سارحا في بساتينها جامحا في ميادينها، يقول :

لساقيـــة الرومي عندي مزيـــة وإن رغمت تلك الرّوابي الرّواشح

فكم لي عليها من غدوّ وروحة تساعـــدني فيـــها المنى والمنائـــح

---

[1] م.ن. ص65. –هاوا: خذوا –المزازة: لذاذة الطعم –الإمراء: طيبة –درب حلاوة: درب شهير بتلمسان –الإحماء: جمع حميم المخلص في صداقته الرفع والدأداةسرعة السّير.

[2] م.ن. 85. الملث: مطر يدوم أياما.

[3] م.ن. 85. متح الماء: استقاه واستخراجه من البدر.

فطرفي على تلك البساتين سارح وطرفي على تلك الميادين جامـــح[1]

ثم يلقي على قرية العبّاد تحية عطرة، مثلما يفوح المسك من نافجته أو وعائه، مترحما على دفينها الو لي الصّالح أبي مدين شعيب[2] ، الذي وإن بعد عنه جسم الشاعر فإن الروح متعلقة به والقلب نازل له، مشيّدا بجهده وسعيه في نيل المعارف وإدراك الحق، فسعيه مشكور وتجارته رابحة لن تبور.

عـلى قرية العبّاد مـني تحيّـة كما فاح من مسك اللّطيمة فائح

وجاد ثرى تاج المعارف ديـمة تغصّ بـها تلك الرّبى و الأباطح

إليك شعيب بن الحسين قلوبـنا نـوازع لكـن الجسوم نـوازح

سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور و تجرك رابـح[3]

وغير بعيد عن العبّاد، يسير الشاعر نحو الشرق فيتذكر الوريط، وتمتزج روحه بالطّبيعة بل يغدو هو نفسه الطبيعة، فهو لا ينسى أبدا وقفة ببساتينه التي تفوح شذى وعطرا، مشرفا على شلالاته حيث يتراءى ماؤها في عينه كصفائح بيض، ثم يتساءل :أهذا الماء ماء الغدير أم دمع عينيه المنساب. فإن كان فيض دمعه فهو سكران بحبه.

وإن أنس لا أنس الوريط ووقفة أنافح فيـها روضـة وأناوح

مطلا على ذاك الغدير وقد بدت لإنسان عيني من صفاه صفائح

أماؤك أم عيني؟ عشية صدقت علية فيـما ما يقول المكاشح

لئن كنت ملانا بديعي طافحا فإنـي سكران بحبّك طافـح[4]

---

[1] م.ن. 86. الطرف بالفتح العين وبالكسر: الكريم من الخيل. -اللطيمة: نافجة المسك وسوق العطارين. -تاج المعارف: يريد به أبا مدين شعيب بن الحسين دفين العباد.

[2] هو الولي الشهير أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري، أصله من ناحية إشبيلية بالأندلس ورحل إلى المغرب حيث اتبع طريق الصوفية. اشتهر أمره ببجاية توفي قرب تلمسان ودفن في قرية العباد. توفي سنة 594هـ.
عبد الحميد حاجيات: كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان -الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1394-1974 ص23. وأنظر أيضا كتاب الوفيات لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب الشهير بابن قنفد القسنطيني. تحقيق: عادل نويهض- المكتب التجاري للطباعة والتوزيع بيروت ط/1 - 1971م ص298.

[3] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س. ص85.

[4] م .ن. ص 87.

ثمّ يعود إلى الواقع فيراه ماء خالصا صافيا ينسكب من شهب شاهق ليحث القرائح ويستنهضها للوصف والتعبير عن هذه الروعة والجمال، فهو أرق من شوقه المكتوم وأصفى من دمعه المسكوب حبا وشوقا إلى تلمسان.

قراح غدا ينصب من فوق شاهق بمثل حـــلاه تستحث القرائـــح

أرق من الشوق الـــذي أنا كاتم وأصفى من الدمع الذي أنا سافح

ثمّ يعود الشاعر إلى وسط تلمسان وكيف له أن ينسى قلبها النابض حركة وتجارة، ورواقها البديع الذي تستعرض فيه حسناواتها جمالهن. إنّها القيسارية التي تركها الشاعر لا عن تهاون. وكيف يتركها طوعا ورغبة، وغزاله سارح فيها، سائرا من ميمنها إلى ميسرها.

تركتك سوق البزّ[1] لا عن تهاون وكيف؟ وظبيي سانح فيك سارح[2]

هذه تلمسان التي أحبّها الشاعر وبكى لفراقها، فغدت قطعة من روحه، فهو يمزج عواطفه وأحاسيسه كما يفعل الأندلسيون حين يصفون الطبيعة، وهو الغائب والحاضر، الغائب بجسده في غرناطة، والحاضر بروحه في تلمسان. إنه الحنين والشوق الجارف حين يتحول هياما لمحبوبة، لعب بين أحضانها وتغذّى من جناها، لا بل قل: إنها الأم التي أنجبته ورعته وغذته من خيراتها فكم مترلا يألفه الفتى وحنينه أبدا للمترل الأول.

وإنّها العاطفة الوطنية بتعبيرنا الحديث، التي جعلته ينظم حائيته الرائعة. فلقد عبر الشاعر فأحسن، وصور فأبدع ولولا روعة ما فعل لما اصطفى حائيته زكرياء يحيى بن خلدون وأوردها في مؤلفه " بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد".

---

[1] سوق البزّ: هو سوق القيسارية اليوم يقول عبد الوهاب بن منصور ربّما كان الشاعر مستقرا بأحد فنادقه كما يستشف من بعض النصوص.

[2] م. ن. ص88.

4- الطبيعة :

تمثل الطّبيعة أوسع مجال استمد منه الشاعر أوصافه وصوره التي يبرز بها أفكاره ويرسم بها عواطفه، وعلى الرّغم من أنّه لم يترك في غرض الوصف قصائد مستقلة إلا اثنتين إحداهما فضّل فيها الحشيش على الخمر، فكانت أشبه بخمريات أبي نواس، والثانية دمية من مرمر تجلت فيها قدرته الغزلية حيث وصف فيها المرأة وصفا حسنا ممتزجا بالطبيعة آخذا منها تشابيهه وصوره.

إلاّ أنّ الطبيعة كانت حاضرة في جل نظمه وعناصرها مذكورة في كلّ قصائده التي مدح فيها أو افتخر أو تشوق أو حنّ لبلدته ومسقط رأسه تلمسان.

و لعلّ جمال تلمسان بما حباها الله من مناظر بديعة كشلالات الوريط، وحدائق غناءة كان له الأثر في نفسه، فأوحى اليه ما أوحى من رحابة الخيال وذوق الجمال، وكذلك مكوثه بالأندلس، واتصاله بالأندلسيين، ولكنّه لم يصل إلى غاية ما وصل إليه هؤلاء في وصف الطبيعة و لم يبلغ ما بلغه جنّان الأندلس[1].

و ممّا تردّد في شعره من الطّبيعة ريح الصبا التي ذكرها الشعراء الجاهليون ومن أتى بعدهم وهي ريح شرقية منعشة تهب في الصبّاح، ولكنّها عند الشاعر أكثر من ذلك أوكلت لها مهمة أخرى فهي تأتيه بأخبار بلدته فيطمئن على أهله وأصدقائه فيرتاح، لذلك راح يذكرها في كل مرّة ويتعلّق بها في كل وقفة ويصبو إليها في كل هبّة، يقول :

وإني لأصبو للصّبا كلما سرت ... وللنجم مهما كان للنجم إصباء[2]

وهي تحمل بين نسماتها تحيّات أزكى وأعطر من شميم العنبر، إذ يقول :

وتحية جاءتك في طيّ الصّبـــا ... أزكى وأعطر من شميم العنبر[3]

---

[1] جنان الأندلس: الشاعر ابن خفاجة.

[2] صبا إلى الشيئ حنّ إليه. والإصباء: الاصباء: الاستهواء. الإفصاح في فقه اللغة ص953 .

[3] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س. ص111.

ثمّ يستعمل الشاعر بدل الصّبا النّسيم حيث يشخّصه ويسأله عن حال صديقه ابن رشيد، فيقول:

وأسأل عنه هبوب النّسيم وخفق الوميض إذا ألاحا[1]

ومرّة أخرى يذكر نسيم الصبّا عندما يوقظ روض الربا زهره ويلقى نسيم الصبّا تحيّة على الصّباح، يقول :

وأيقظ روض الرّبا زهره فحيا نسيم صباه الصّباحا[2]

ثمّ نجد الشاعر يستعمل كلمة الرّيح بلفظ واحد في صدر مطلع قصيدته "حنين إلى تلمسان" معبّرا فيها عن شدّة شوقه متطلعا إلى سماع أخبار بلدته تلمسان، حيث يقول :

سلّ الريح إن لم تسعد السفن أنواء[3] فعند صباها من تلمسان أنباء[4]

فكأنّ الشاعر مطلع على المدلول القرآني للرّيح[5]، فهي هنا تهيج البحر، وتكثر الأمطار فلا تسمح للسفن بالملاحة لتحمل له أخبار بلدته لذلك أعرض الشاعر عن الرّيح في عجز البيت وخصّ الصّبا لرقّته ونعومته لتجيئه بأنباء تلمسان في وقت إرساء السفن وتوقف الملاحة بسبب هيجان البحر بفعل الريح،فقد أكّد هذا معنى البيت الذي يليه لم يذكر فيه البرق، ثمّ يستعمل

---

[1] م. ن. ص24.

[2] م. ن. ص89.

[3] الأنواء ج نوء : الأمطار قال عنترة.

طال الثواء على رسوم المنزل بين اللكيك وبين ذاك الحرمل

فوقفت في عرصاتها متحيّرا أسل الديار كفعل من يذهل

لعبت بها الأنواء بعد أنيسها والرّامسات وكل جون مسبل

منتخبات الشعر العربي لحنا الفاخوري م س ص42. وانظر كرم البستاني ديوان عنترة دار بيروت للطباعة والنشر 1978 ص56.

[4] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص62.

[5] الريح: هي الهواء المتحرك وعامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الريح بلفظ واحد فعبارة عن العذاب... فمن الريح "إنّا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا" القمر آية 19. "فأرسلنا عليهم ريحا" فصّلت 16. "كمثل ريح فيها صرّ" آل عمران 117. انظر شرح مفردات القرآن الكريم –سميح عاطف الزين. دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة –بيروت ط/2– سنة 1984 ص377.

الشاعر كلمة الرياح التي مدلولها الخاص فهي تختلف عن الرّيح فهي تعبّر عن الرحمة لأنّها ذات منافع للنّاس وفوائد للنبات فهي تلقح الأشجار والأزهار، وتسوق السحاب، يقول :

تلمسان جادتك السّحاب الدّوالح وأرست بواديك الرّياح اللّواقح[1]

ويتمنّى الشاعر أن يركب الريّاح ليعود إلى بلدته تلمسان لولا ضغائن قوم أبوا رجوعه :

ولولا سخائم قـــوم أبوا إيّابي إليك ركبت الرّياحا

كما ذكر الشاعر كل أنواع الريّاح في بيت واحد من قصيدته "لله أيام قضيتها" التي يفتخر فيها بنظمه وفكره.

بمطهم الفكر الذي ما إن له إلا بمستن الأدلّة مصرع

إلى أن يقول :

من بعدما عفت السواري سبله ومحت معالمه الريّاح الأربع[2]

والريّاح الأربع هي :الصبّا وعكسها الدّبور وريح الشمال وريح الجنوب، ولعله متأثر في هذا البيت بالشاعر ذي الرّمة في قوله :

لميّة أطـــلال بحزوى دوائـــر عفتها السوافي والرياح الحواصر[3]

والرياح تبشر بالخير النافع للأرض، فتثير السحاب الكثيف المحمل بالأمطار الغزيرة النافعة للبلاد والعباد، وهذا ما ذكره في بيت سابق.

تلمسان جادتك السّحاب الدّوالح وأرست بواديك الرّياح اللّواقح

ومع هذه الفائدة العظمى إلاّ أنّ ظلها يضرب به المثل في سرعة فوات الأمر لذلك استعمله الشاعر في صورةالمشبه به لبيان حقيقة الدّنيا ومتاعها الزّائل :

---

[1] المقري: نفح الطيب م س ج7 ص338 لواقح: جمع لاقحة والمراد تحمل لقاح النبات وفي القرآن الكريم "وأرسلنا الرياح لواقح".

[2] عبد الوعاب بن منصور: المنتخب النفيس م س ص139.

[3]:- يوسف خليل: ذو الرمة شاعر الحبّ والصحراء- دار المعارف بمصر 1970م. السوافي: الرياح التي تسفي التراب. عفت: درست.

واستعمل ابن خميس الصبح المنير، والشمس والقمر وضوءهما حيث وصف بهاء وجمال ممدوحه وصديقه ابن الحكيم في مبالغة جعلت الصبح المنير يتضاءل أمام وضوح جبينه، وشمس الضحى تغدو قمرا، وشعاعها ظلّه، يقول :

يتضاءل الصّبـــح المنـــير إذا لاقى سناه جبينك الصّلت[1]

حتى كأنّ شمس الضحى قمر وكأنّ ضوء شعاعها فخت[2]

واستعمل الشاعر الصّباح لتشبيه آباء وأجداد السلطان محمد النصري حين قال :

وجرى على آثار أسلاف لهم درجوا وكلّهم على منهـــاج

ما منهم إلاّ أغـــر مبـــارك مصباح ليل أو صباح عجاج[3]

وشبه الشاعر مفاخره القحطانية القديمة في شهرتها بالصبح في وضعه وفي إيلاجه.

ولنا مفاخر في القديم شهيرة كالصّبح في وضح وفي إيلاج[4]

وبما أن الشاعر كان يميل إلى العزلة فلا شك أنّها كانت تدفعه إلى النّظر في السماء ومع زهده وتصوفه فإنّها تدعوه إلى التأمل في عظمة الخالق بما أبدع من نجوم وكواكب سابحات.

وإني لأصبو للصّبا كلما سرت وللنجم مهما كان للنجم إصباء

وحينما طالت به الغربة بالأندلس وأحرقه الشّوق واشتدّ به الحزن راح يتأمّل السّماء ينتظر أفول النجوم وانبلاج الصبح كالشاعر الجاهلي المهلهل بن ربيعة التغلبي لما أهاج قذاء عينه إذكار مقتل أخيه كليب راح يراقب الجوزاء منهمر الدمع ينتظر انصراف النجوم في ليل حالك طويل:

وبت أراقب الجوزاء حتى تقارب من أوائلها انحدار

وأبكي والنجوم مطلعـــات كأن لم تحوها عنّي البحار

---

[1] الصلت الجبين الواضح المستوي.

[2] الفخت ضوء القمر أو ظله.

[3] م.ن ص81.

[4] م. ن. ص 84.

ولقد أبيت الليل لا أدري به سهرا كما بات السليم الأرمد

أرعى كواكبه، وأرقد صبحه والصبح أنأى من هواي وأبعد

فردا أكابـــد لوعتي وظلامـــه حتى يقـــوم لورده المتهجّـــد[1]

إنّ هذه النّجوم التي أذهبت عنه الكرى فبات يرعاها ويرقب الصبح المنير ينظر إليها نظرة أخرى حيث شبهها بحصباء در في بساط أخضر وذلك في قصيدته " دمية من مرمر " التي يتغزل فيها حيث يقول :

طرقتك وهنا والنجوم كأنّها حصباء در في بساط أخضر[2]

النّباتات :

ذكر الشاعر ابن خميس في شعره أنواعا مختلفة من النّباتات كالأشجار والأزهار وما يفوح منها من رائحة ذكية ويضّوع من أريج منعش. وذكر نباتات شوكية صحراوية كالقتاد فقال :

واستجلب النوم الغرار ومضجعي قتاد كما شاءت نواها وسلاء[3]

وذكر كذلك شجر العفار و المرخ في قوله :

ومن يقتدح زندا لموقد جذوة فزند اشتياقي لا عفار ولا مرخ[4]

واستعمل الشاعر صورة الشجرة التي خرجت منها الفروع واجتثت منها العروق للتعبير عن تفرق الناس وتشتتهم بعد النكبة التي أصابت تلمسان فقال :

فماذا عسى نرجوه من لم شعثها وقد خر منها الفرع واقتلع الشلخ[5]

---

[1]: عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص107.

[2]: م.ن. ص110.

[3]: القتاد: شجر صلب له شوك كالأبر.

-السلاء جمع سلاءة شوكة نخل المنتخب النفيس ص62.

[4]: العفار شجر يتخذ منه الزند -المرخ: شجر رقيق سريع الوري.

[5]: الشلخ: الأصل والعرق -المنتخب ص100.

وذكر الشاعر الزّهر عموما فقال :

و ايقظ روض الرّبا زهره فحيّا نسيم صباه الصّباحا[1]

كما جاء ذكر النرجس في مدحه لبني العزفي :

مجامر ندّ في حدائق نرجس تنم ولالفح يصيب ولا دخّ[2]

أمّا الأقحوان فقد شبه به أسنان الحسناء وهي تبتسم في قصيدته الغزلية "دمية من مرمر"

نظـــرت إليك بمثل عيني جؤذر وتبسّمت عن مثل سمطي جوهر

عن ناصع كالدّرّ أو الكبرق أو كالطّلع أو الأقحـــوان مؤشـــر[3]

ولا ينسى الشاعر شذا هذه الأزهار حين تفوح رائحته وتنتشر وقد استعمل ذلك في قصيدته التي مدح فيها ابن رشيد ليعبر عن العلاقة الطيبة بينهما فقال :

وإني علـــى فيـــح ما بيننا لأتبع ذاك الشذا حيث فاحا

فقلب يذوب إليك اشتياقا وصدر يفاح إليك انشراحا

وغرس وداد أصاب فضاء نديّا وصادف أرضا براحا[4]

كما شبه الشاعر رجالات بني العزفي الأوائل بروضات الآداب التي تأرّجت فتضاءل في ظلال أغصانها الرّمخ قال :

وروضات آداب إذا تأرّجت تضاءل في أفياء أفنانها الرمخ[5]

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص89.

[2] م. ن. ص89 -الدخ لغة الدخان.

[3] م.ن ص110.

[4] م.ن ص94.

[5]

أمّا الذّئب فقد ذكره ثلاث مرّات ففي القصيدة التي مدح فيها ابن الحكيم، بين فضله عليه بما نال من نعم ومنزلة ونوم هادئ هنيئ فذكر الذئب على سبيل التمثيل للمقارنة بين نومه عند صديقه ابن الحكيم وعند غيره. قال :

ولا مثل نومي في كفالة غيره ولذّئب إلمام وللصلّ إلماء[1]

وذكره مرّة ثانية جمعا مع الضّباع أثناء حديثه عن أيّام العرب في الجاهلية وما دار فيها من حروب مهلكة للناس تترك القتلى كرائس للضّباع والذّئاب. يقول:

وسل عروة الرّحال عن صدق بأسه عن بيته في جعفر بن كلاب

تبرّض صفو العيش لمّا استشفه فداف له البرّاض قشب حباب

فأصبح في تلك المعاطف نهزة لنهب ضباع أو لنهش ذئاب[2]

واستعمل الذئب بمعنى العدو في مكره وخداعه وتربّصه للمسلمين مبيّنا دور ممدوحه ابن الحكيم في تأمين بلاد المسلمين حيث يقول.

أمّنت أرض المسلمين فلا ذئب يخاف بها ولا لأصت[3]

---

[1] م. ن. ص66. الصّلّ (بالكسر) : الحيّة التي لا تنفع معها رقية أنظر: أدب الكاتب لابن قتيبة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار العلم للملايين الطبعة الرابعة 1963 ص169.
والإلماء: الذهاب بالمشي خفية ابن منظور لسان العرب المجلد1 ص1254.

[2] المقري نفح الطيب ج7 ص287. قشب حباب: سمّ الحية.
عروة بن عتبة بن جعفر بنكلاب الملقب بالرحّال كان سيّد هوازن، وقد قتله البرّاض بن قيس فجرت بين هوازن وقريش حرب الفجار الآخر التي شهدها الرّسول-صلّى الله عليه وسلم- وله من العمر أربع عشرة سنة. أنظر: الأعلام للزركلي الطبعة الثانية 1375هـ 1956م. ج 5 ص18.
بنو جعفر بن كلاب فرع من بني كلاب الذين هم من بني عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. أنظر: جمهرة أنساب العرب، وأيام العرب في الجاهلية.
البرّاض بن قيس الكناني فاتك جاهلي ضرب بفتكه المثل (أفتك من البرّاض) وتبرّأ منه قومه لفجوره وشروره وبسببه وقعت حرب الفجار الآخر سنة 38 قبل الهجرة، وكان قد فتك بعروة الرّحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب. أنظر: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج/22 ص60 وما بعدها. بيروت دار الثقافة 1960.

[3] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص73.

الطّيور:

أمّا الطّيور فقد ذكر الشاعر أشهرها، عندما تقتضي الضرورة وتستدعي الفكرة نوعا مناسبا منها ففي موضع الشوق والحنين غالبا ما كان الشاعر يستعمل الحمام للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره حيث كل في نوحه ما يوافق بكاءه وحزنه، وأحيانا كان يعمم في إشارته لهذه الطيور وفي هذا التعميم نوع من التخصيص وهذا ما يتجلّى في قوله:

يطير فؤادي كلّما لاح لامع وينهلّ دمعي كلّما ناح صادح

ظباء مغانيها عواط عواطف وطير مجانيها شواد صـــوادح[1]

ذكر الشاعر كلمة دجاج في بيت من مطلع قصدته التي مدح فها السلطان محمد الثالث معتبرا عن سكون ليلة مظلمة لانباح كلب فيها ولا صياح ديك يقول:

في ليلة ليـــلاء لم ينبح بـــها كلب و لم يصرخ أذين دجاج[2]

ثمّ ذكر الحمام في نفس القصيدة عند حديثه عن منازل درست رسومها، مشبّها بعض ما بقى فيها كالحمام الجواثم.

ومنازل درس الرسوم بلاقع أخوين من صبح وهجهاج

محت معالمهن غـــير منـــام كسوار تاج أوكد ملح عاج[3]

ومواثل من الحمام جوائم ورق واسبح دائم التشجاج

ويتشوق الشاعر لرؤية صديقة ابن رشيد، فيطول ليله ويشرد نومه بسبب هديل حمام كلّما أغفا الشاعر لحظة أيقظه صياحه فيزيده بكاء ونياحا يقول:

ومما يشرد عنّي الكرى هديل حمام إذا نمت صاحا

---

[1] م. ن. ج9- ص338.

[2] لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة م س ص 548

[3] م. ن. ص549

ينوح علي وأبكي لـــه فأقطع ليلى بكاء ونياحا[1]

ثمّ يحنّ إلى صديقه وينوح عليه الحمام.

أحنّ اليه حنين العجول[2] ونوح الحمام إذا هو ناحا[3]

وفي نفس القصيدة ذكر الشاعر القطا ولعلّه قد صادفها طريقه من تلمسان إلى سبتة حيث قال:

أجوب الدّياجير وحدى ولا مؤانس إلا القطا والسّراحا[4]

كما ذكرها في بيت من قصيدته "معاهد أنس" التي مدح فيها بني العزفي وذلك عند تعرّضه لهجاء بني زيان وهم داخل تلمسان في خوف وقلق والعدوّ يتربص بهم وقد صوّر هذا المشهد كمثل القطا تحذر عقابا فوقها.

كأنّكم من خلفها وأمـــامـــها أسود غياض وهي ما بينكم أرخ

فالسوق منها القيد إن هي أغربت وللهام إن لم تعط ما رعت النّفخ

كأن تحتها من شدة القلق القـــطا و من فوقها من شدة الحذر الفتح[5]

أما الغراب فقد ذكره الشاعر مرّتين: الأولى في قصيدة "نصيحة مشفق" وذلك عندما تعرّض فيها إلى قصّة حرب البسوس مبيّنا ما تركته من حزن وأسي في الحيّين المتقاتلين:

فما تسمع الأذن في عرضتهم سوى نوح لكلى أو نعيب غراب[6]

وذكره مرّة أخرى في بيت شعري اقتسمه مع جرير وللنّابغة الذبياني وهو قوله:

بان الخليط وبان قلبي إثره سحرا كما زعم الغراب الأسود[7]

---

[1] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص 90.
[2] وردت في الإحاطة الفحول.
[3] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص 94.
[4] م. ن. ص 91.
[5] م ن. ص 99. الفتخ من العقبان اللينة الجناح.
[6] م ن. ص 69
[7] م ن. ص 107

قال جرير:

بان الخليط ولو طوعت مابانا وقطعوا من حبال الوصل أقرانا[1]

و قال النّابغة الذبياني:

زعم البوارح أنّ رحلتنا غدا وبذلك خبيرنا الغراب الأسود[2]

و ذكر الشاعر كلمة الفرخ وهو ولد الطائر مشبها مشيته وهو يلعب في صغره بمشية الفرخ عندما ينهض يقول:

وإلا فعدوي مثل ما ينفر الطّلا وليدا وحجلي مثل ما ينهض الفرخ[3]

لا تكاد قصيدة من قصائد ابن خميس تخلو من ذكر الطبيعة ولعلّ ذلك يدلّ على إعجابه بجمالها، وفطرته في تذوقها وتأمّلها رغم أنّه لم يرد في ما وصل من شعره وصفا كافيا للرياض والأشجار والأزهار والأنهار والجبال إلا أنّه ولع بأخذ الصورة أو الصورتين في البيت أو البيتين لمشهد طبيعي جميل،يوشّي به غرضه أو يجلّى به فكرته، فتغدو القصيدة كأنها في وصف الطبيعة وما هي في غرضه.

ويمثل وصف معالم تلمسان وهو يتشوق إليها بالأندلس نموذجا لبراعته في الوصف وقدرته على التصوير ففي قصيدته الحائية "يطير فؤادي" يضعنا أمام مشهد بديع ولوحة طبيعية جميلة، يبدو الشاعر فيها وافقا متأملا روض الوريط مطلاّ على غديره حيث ينسكب ماؤه من ذروة الجبل صافيّا كأنّه صفائح من لجين، ثم يقحم الشاعر نفسه وتمتزج صورة الإنسان بالغدير فكأنّما الماء دمع الشاعر فائضا ويمسي الشاعر بعده سكران حبّا.

ثمّ تبرز عناصر أخرى في الصورة، فيظهر مهر الشاهر متهاديّا في الروض ويطفو غزاله في عباب الماء سابحا. يقول :

وإن أنس لا أنس الوريط ووقفة أنافــح فيها روضه وأنــاوح

---

[1] إليا حاوي: شرح ديوان جرير لبنان بيروت دار الكتاب اللبناني ط/1- 1982 ص 699.
[2] كرم البستاني: ديوان النابغة الذبياني، دار صادر بيروت،المؤسسة العربية للتوزيع تونس ص38
[3] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س. ص97.

مطلاّ على ذلك الغدير وقد بدت لإنسان عيني من صفاه صفائح

أمؤك أم عيني عشيّة صدقـــت عليـــه فينا ما يقول المكاشـــح

لأن كنت ملآنا بدمعي طافحا فأني سكـــران بحبـــك طافـــح[1]

وإن مهري في تلاعبك سائحا فذلك غزالي في عبابك سابـــح

ثمّ يعود الغدير الى أصله فيغدو ماء خالصا أرق من شوق الشاعر وأصفى من دمعه المنسجم، ينسكب من أعلى الجبل فيثير القرائح للتعبير والتصوير:

قراح غدا ينصب من فوق شاهق بـــمثل حـــلاه تستحث القرائـــح

أرق من الشوق الذي أنا كاتـــم و أصفى من الدمع الذي أنا سافح[2]

ومع هذا الوصف الرّائع فإنّ ما وصل من شعر ابن خمس في الطبيعية غير كاف ولا يعبر بحقّ عمّا تتميز به بلدته تلمسان من محاسن مغريات وأماكن فاتنات، أضف إلى ذلك أن الشاعر قد مكث بالأندلس موطن السحر والشعر الطّبيعي فترة زمانية لا بأس بها تكفيه للإطلاع على ما بلغة الأندلسيون في هذا المجال بل تمكنه من الوقوف بنفسه على مظاهر جمال فردوسهم ولعلّ هذا ما يؤكد من أنّ شعره قد ضاع جلّه ولو وصلنا كاملا لوجدنا وصفا أبدع وخيالا أرحب وفي ذلك قال ابن خلدون: "ولو اعتمدنا نقل مختاره لضاقت به الأوراق وخرجنا عن قصد التاريخ"[3]

---

[1] م. ن. ص 87.

[2] م. ن. ص87. – قراح: الماء الخالص.

[3] يحيى بن خلدون: بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور عبد الحميد حاجيات– الجزائر– المكتبة الوطنية ص112.

الزّهـــد :

كان للأحداث السياسية والظروف الاجتماعية والفكرية دور كبير في صقل شخصية ابن خميس ونسجها على منوال عصره. فالأحداث السياسية المضطربة في المغرب العربي آنذاك لم تدع مجالا للهو والمرح، ولم تترك سبيلا لتشيوع الترف والمجون فقد ركن الخاصة والعامة من النّاس إلى التديّن وشيّدوا من صروح الدين والعلم ما أرسى ثقافة دينية وجعل الصراع على أشدّه بين السلفية والصوفية. وقد بلغ عصر الشاعر نضجا فكريا وفقهيا أعطى للحياة صبغة دينية جعلت الشاعر ينشأ نشأة دينية ويتربى بين أحضان علماء وفقهاء كبار عرفتهم بلدته وينحو نحو الزّهد فانزوى وعزف عن مباهج الحياة وقد ذكر هذا الرّحالة المغربي العبدري حينما التقى به في تلمسان حيث قال: "فإني وجدته على حال انزواء وتقلل من الدّنيا"[1] كما ذكره لسان الدّين بن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة فقال: "كان رحمه الله نسيج وحده زهدا وانقياضا...بعيدا عن الرّيا والهوادة عاملا على السياحة والعزلة."[2]

إنّ الدّارس لشعر ابن خميس ليقف على شخصية راضية بما كتب لها في الحياة قنوعة بحضّها اليسير تؤثر الفقر من أجل العلم لأنّ العلم والمال لا تجتمعان بينهما برزخ لا يبغيان. يقول :

يأبى ثراء المال علمي وهل يجتمع الضّدّان علم ومال[3]

وترى في العودة الى الغي ظلالامبيّنا وخسارة عظيمةآخذة العبرة ممن افتتن أو ار تدّ.

لبعث رشادي فيه بالغيّ ضلّة وكم صالح مثلي غدا وهو طالح4

ويبدو أنّ الشاعر كان كثير الصيّام والاعتكاف والخلوة وهذه من صفات الزّهاد يقول:

أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي يقال فلان ضيق الصدر بائع5

---

[1] العبدري: الرحلة المغربية م س ص11.
[2] لسان الدين ين الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة م س ص528.
[3] المقري: نفح الطيب م س ج7 ص285.
[4] م ن ج9 ص339.
[5] م ن ص ن.

ويدعو إلى التزام البيت تجنّبا للفتنة وحفاظا على الدّين، ويأمر بفعل الخير وترك الحقد والضغينة حيث يقول:

كن حلس بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك وافعل دائما حسنا

وإن ىظلمت فلا تحقد على أحد إن الظغائن فاعلم تنشئ الفتـــنا[1]

كما دعا إلى صون اللّسان لأنه مصدر المصائب والوبال فهو جدير بأن يلجم حقيق بأن يسجن، وينصح بالتزام الصمت لأنه آمن وأسلم في زمن الفتن.

تحفّظ من لسانك ليس شيء أحق بسجن مـــن لســـان

وكن للصمت ملتزما إذا ما أردت سلامـــة في ذا الزّمان[2]

وينصح الشاعر مرّة أخرى إلى اجتناب النّاس لتحقيق السّلامة ويدعو إلى الحلم والصّفح والعفو عند المقدرة فالله كفيله سوف يقتصّ للمظلوم عاجلا أو آجلا.

جانب جميع النّاس تسلم منهم إن السّلامة في مجانبة الورى

وإذا رأيت من امريء يوما أذى لا تجزه أبدا بما منه تـــرى[3]

كما كانت نظرته للدّنيا نظرة ازدراء، يحذّر منها ويسدي الحكمة والنصيحة ويلقي الموعظة الحسنة لتجنّبها ضاربا لذلك أمثلة من التاريخ لمن شاء أن يعتبر، فالدّنيا عند الشاعر تحمل على الفتى وإن كان محظوظا،فإمّا أن ترفعه،وإما أن تذلّه فلا توسّط عندها، لا مفرّ من خيرها وشرّها لذلك يقدم الشاعر نصيحة لتركها ويخاطب من يرجو ودّها،ويتمنّى محبّة منها بأن لا يفرح بذلك فما هو إلاّ ظل سحاب سرعان ما يزول فالأفضل تركها وتجنّبها يقول :

---

[1] محمد عمرو الطمار: تاريخ الأدب الجزائري م س ص196.

[2] م ن. ص ن.

[3] م ن. ص ن.

لكنّها الدّنيا تكرّ على الفتى وإن كان منها في أعزّ نصاب

وعادتها أن لا توسط عندها فإما سماء أو تخوم تراب

فلا ترج من دنياك ودا وإن يكن فما هو إلاّ مثل ظلّ سحاب[1]

وما الحزم كل الحزم إلاّ في اجتنابها فأشقى الورى من تصطفي وتحابي

ثم يستدل على نصيحته بما فعلته من خراب في العمران والبشر، فقد فرقت الأسر والأصحاب والخلاّن،ومرّغت في التراب أبطالا وأقوياء في الحروب وأثكلت الكثير من النّساء يقول:

فكم عطلت من أربع وملاعب وكم فرّقت من أسرة وصحاب

وكم غفّرت من حاسر ومدجّع وكم أثكلت من معصر وكعاب[2]

ومع ذلك فإنّ الشاعر قد خدع بالعيش فيها فشبّهها بالسّراب الذي يحسبه الظمآن ماء فإذا وصله لم يجد شيئا، أو كشهد النحل الذي ملئ عسلا صافيا وقد دسّ فيه السّم الناقع الخليط بالصّائب.

خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصّادي بلمع سراب

تقول هو الشهد المسور جهالة وما هو إلاّ السّم شيب بصاب[3]

لذلك راح الشاعر يحذّر من الدّنيا بل يدعوإلى اجتناب بني الدّنيا عندّما نصح ممدوحه السلطان محمد النّصري بتركهأل الدّنيا واعتزالهم عساه يتذوّق طعم الحياة ويستذّ راحة البال.

اترك بنيالدّنيا وأعرض عنهم فعساك تطعم لذّة الإثلاج[4]

---

[1] المقري: نفح الطيب م س ج7 ص287.
[2] م ن. ص288.
[3] م ن. ص286. الصاب : شجر مرّ ما عصر منه كهيئة اللبن.
[4] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص80.

ولا يكتف الشاعر بذمّ الدّنيا وذكر مثالبها وتحذير النّاس منها وإنّما يغور في التاريخ ويسرد القصّة ويسوقها في معرض الاستشهاد والاستدلال بمنتهى اللباقة حتى لا يشعر القارئ أنّها حشو زائد بل يأنس بها ويعدّها جزءا متمّما للموضوع ففي قصيدته التي مطلعها:[1]

أنبئت ولكن بعد طول عتاب وبعد لجاج ضاع فيه شبابي

وعظ المغترين بزخرف الدّنيا بقصّة حرب البسوس[2] فيشير إلى منزلة القبيلتين المتحاربتين بكر وتغلب وعزّة كليب وائل ثم جرأة جسّاس وإقدامه على قتل كليب بسبب ناقة البسوس التي عقرها كليب فأنست الحديث عن عقر ناقة النبي صالح عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك سببا في ترك الحيين يهويان من العزّة والسؤدد إلى حظيظ الذلّ والضّعف والحزن والهوان.

وما صاحب الدّنيا كبكر وتغلب ولا كليب ريّ فحل ضـــراب

إذا كعت الأبطال عنه تـقـدّموا لمحاريب غرّ في مـتون عـــراب

وإن ناب خطب أو تفاقم معضل تلقّاه منّهم كـلّ أصيد نـــاب

تراءت لـجسّاس مخيلـة فرصة تأتت لـــه في جيئة و ذهـــاب

فجاء بـــها شوهاء تنذر قومـــها بتشييد أرحام و هـــدم قبـــاب

وكان رغاء الصقب في قوم صالح حديـــثا فأنساه رغـــاء سراب*

فما تسمع الآذان في عرضتهم سوى نوح ثكلى أو نعيب غراب[3]

---

[1] م ن. ص48.

[2] حرب البسوس أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير- دار الكتاب العربي-د ت ص313-320.

* سراب هي التي ضرب العرب بها المثل فقالت أسأم من سراب أنظر: ابن أثير الكامل ص313.

[3] المقري نفح الطيب ج7 ص287.

ثمّ تعرّض في نفس القصيدة إلى حرب الفجّار التي وقعت بين كنانة وقيس بعد عام الفيل بعشرين سنة والتي أورى فتيلها البرّاض الكناني بعد قتله لعروة بن عتبة الكلابي من قيس عيلان وقد شاركت فيها قريش وحضرها الرّسول صلى الله عليه وسلّم .[1]

وسل عروة البرّاض عن صدق بأسه وعن بيته في جعفر بن كلاب

وكانت على الأملاك منه وفادة إذ آب منـــها آب خير مآب

تبرّض صفو العيش لما استشفّه فداف له البرّاض قشب حباب

فأصبح في تلك المعاطف نهزة لنهب ضباع أو لنهش ذئاب

أما في قصيدته الخائية التي يرثي فها تلمسان ويمدح بني العزفي والتي مطلعها:

تلمسان لو أن الزّمان بها يسخو منى النفس لا دار السلام والكرخ

فإنّه يضرب مثلين في الزّهد الأوّل ببني الخورنق النّعمان بن قيس الذي لمّا أتى على ملكه ثلاثون سنة علا مجلسه على الخورنق، ونظر ما حوله فأعجبه، ففكر وقال: أي درك في هذا الذي ملكته اليوم ويملكه غدا غيري؟ ثم دعا حجّابه ونحاهم عن بابه، وساح في الأرض وفيه يقول عديّ بن زيد يخاطب النعمان:

و تدبّر ربّ الخورنق إذ أشـــ رف يوما وللهدى تفكـــير

سره حالـــه وكثرة مـــايمـــ لك والبحر معرضا والسدير

فارعوى حاله وقال وما غبـــ طةحيّ إلى الممات يصـــير

أما ابن خميس فيقول:

وما الزّهد في أملاك لخم ولا التّقى ببـــدع وللدّنيا لزوق بمن يرخـــو

ولاّ ففي ربّ الخورنـــق غنيـــة فمـــا يومـــه سرّ ولاصيته رضـــخ

تطلع يومـــا والسريـــر أمامـــه وقد نال منه العجب ما شاء والجفخ[2]

---

[1]: جرجري زيدان: العرب قبل الاسلام – لبنان– بيروت– منشورات دار مكتبة الحياة 1966 ص322–323.

[2] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص103–104.

وعنّ له مـــن شيعة الحقّ قائـــم بحجّـــة صـــدق لا عبام ولا و شخ

فأصبـــح يجتاب المسوح زهـــادة و قد كان يؤذي بطن أخمصه النتخ[1]

أمّا الثاني: فهو أبو حاتم العزفي الذي تنحّى عن الملك طواعية من نفسه تاركا كرسي العرش لأخيه،وأقبل على العبادة معرضا عن الدّنيا مستهينا بقيمتها، رغم أنّها أهدته العلم ووهبته الملك و الجّاه ولكنّه قابل حبّها وإقبالها بالإعراض والصّدوف. يقول :

و في و احد الدنيا أبي حاتم لنا داوء و لكن ما لادوائـــنا ننـــح

تـخلّى عن الدّنيا تخلّ عارف يرى أنّها في ثوب نـــخوته لتـــخ

وأعرض عنها مستهينا لقدرها فلم يثنه عنها اجتذاب و لا مصخ

فكان له من قلبها الحبّ والهوى وكان لها من كفّه الطرح و الطخّ[2]

بيد أنّه رغم هذا الادراك العميق لحقيقة الدّنيا والاعتبار بقصص بعض السّابقين، إلا أنّ الإنسان في نظر الشاعر تعمى بصيرته وتصمّ آذانه كأن لم يسمع شيئا ولعلّ هذا ما يدلّ على أنّ الشاعر لم يكن مرائيّا وإنّما يعبّر عن إخلاص في الزّهد ومراقبة للنفس واعتراف بالنّقص.

وهذا سبيل ينقله من ضفاف الزّهد إلى رحاب الصّوفية التي تلمس في بعض قصائده خاصّة في قصيدته النثرية "عجبا لها."

عجبا لها، أيذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببالـــها

وأنا الفقير إلى تعلـــة ساعـــة منها و تمنعنى زكاة جمالـــها

كم ذا وعن عيني الكرى متألق يبدو ويخفى في حفي مطالهـــا

يسمو لها بدر الدجـــا متضائلا كتضاؤل الحسناء في أسمالـــها

وابن السبيل يجيء يقيس نارها ليـــلا، فتمنحه عقيلة مالـــها

يعـــتادني في النوم طيف خيالها فتصيـــبني ألحاظـــها بنبالهـــا

كم ليلة جادت بـــه فكأنـــما زفت على ذكاء وقت زوالهـــا

---

[1] م ن. ص104. العبام : الأحمق الثقيل. الوشخ: الوذئ الضعيف.

[2] م ن ص104. المصخ: الاقتراع. -الطخ: الرمي والإبعاد.

وسواد طرتـــه كجنح ظلامها و بياض غرته كضوء هلالـــها
دعني أشمّ بالوهم أدنى لمعـــة من ثغرها وأشمّ مسكة خالـــها
ما راد طرفي في حديقة خدّهـــا إلاّ لفتنـــتـــه بحســـن دلالـــها
أنسيب شعوي رقّ مثل نسيمها فشمول راحك مثـــل ريح شمالها
وانقل حديث الهوى واشرح غر يب لغاتها واذكر ثقات رجالهـــا
وإذا مررت برامـــة فتوق مـــن أطلائها و تـــمش في أطلالهـــا[1]
وانصب لمغز لهـــا حبالة قانص و دع الكرى شركا لصيد غزالها
وأسل جداولها بفيض دموعها و انضد جوانبها بفضل سجالها[2]

ثم يلج الشاعر باب الفلسفة فيقحم نفسه في زمرة الحكماء ذاكرا فئة منهم، يقول:

أنا مـــن بقية معشر عركتـــهم هذي النوى عرك الرّحى بثفالها
أكرم بـــها فـــئة أريق نجيعهـــا بغيا، فراق العين حســـن مآلها
حلّت مدامة وصلها وحلّت لهم فإن انتشوا فبحلوهـــا وحلالها
بلغـــت بهرمس[3] غاية مـــا نالها أحد، و ناء لهـــا لبعد منـــالها
وعد على سقراط[4] سؤرة كأسها فهريق مـــا في الدّن من جريالها
وسرت إلى فاراب[5] منها نفحة قدسية جـــاءت بنخبة ءالـــها

---

[1] الرامة كناس الرئم (بيت الضبي) والأطلاء ج طلا ولد الظبي.
[2]: السجال : ج سجل الدلو العظيمة
[3] يعرف التاريخ ثلاثة من كبار الفالسفة والنجمين باسم هرمس. أولهم هرمس الساكن بصعيد مصر أنذر بالطوفان وبنى الأهرام. وثانيهم: هرمس البابلي بنى مدينة بابل بعد نمرود بن كوش. وثالثهم: هرمس المصري الذي يسمى طريسميجيسطيس. أنظر: تاريخ مختصر الدول للعلامة غريغوريوس المطبعة الكاثولكية بيروت وقف على طبعه ووضع حواشيه الأب أنطوان صلحاني اليسوعي ط/2- سنة 1958. ص7.
[4] سقراط : كان من كبار فلاسفة اليونان،نبغ في القرن الخامس قبل الميلاد في عصر كثرت فيه ضوضاء السوفسطائية وهو أحد تلاميذ فيتاغورس. انظر: محمد فريد وجدي –دائرة معارف القرن العشرين ،دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان طبعة 1971م المجلد الخامس، ص180.
[5] فاراب: مدينة في تركستان وراء نهر سيخون وإليها ينسب أبو نصر محمد بن محمد الفارابي الحكيم الفيلسوف صاحب التصانيف في فنون الفلسفة مات بدمشق سنة 339هـ. أنظر: معجم البلدان للإمام ياقوت الحموي مج/4- ص225.

وتغلغلت في سهرورد[1] فأسهرت عينـــا يؤرّقها طـــروق خيالها

فخبا شهـــاب[2] لمـــا أشرقـــت و خوى و لم يلبث لنور جلالها

وبدت على الشوذي[3] منها نشوة ما لاح منهـــا غير لمعـــة آلها

إلى أن يقول في آخر بيت من هذه القصيدة :

وأنل أبا البركات مـــن بركاتهـــا وادفع مـــحال شكوكه بمحالها

وكذلك يتجلّى تصوّف ابن خميس في قصيته (من عاذري) التي مدح فيها أبا زيان بن سعيد بن يغمراسن والتي استهلها بقوله.

أرّق عيني بارق من أثـــال كأنّه في جنح ليـــل ذبـــال

أثار شوقا في ضمير الحشا وعبرتي في صحن خدي أسال

حكى فؤادي قلقا واشتعال وحفن عيني أرقـــا واهمـــال

جوانـــح تلفـــح نيرانـــها و أدمع تنهل مثـــل العـــزال

قـــم نطرد الهمّ بمشمولـــة نقـــض الليل إذا الليل طـــال

و عاطـــها صفراء ذمّيـــة تمنعها الذمّـــة من أن تنـــال

كالمسك ريحا واللّمى مطعما والتّبر لونا والهوى في اعتدال

عتّقها في الدّنّ خمّارهـــا والبكر لا تعرف غير الحجال

لا تتقب المصباح لا واسقني على سنا البرق وضوء العلال

فالعيش نوم والرّدى يقظة والمرء ما بينهمـــا كالخيـــال[4]

---

[1] سهرورد:بصمّ أوّله، وسكون ثانيه، وفتح الرّاء والواو، وسكون الرّاء ودال مهملة بلدة قريبة من زنجان وأذربيجان أنظر: معجم البلدان لياقوت الحموي مج/3 – ص152.

[2] شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي كان أبرع علماء عصره في الفلسفة والأصول الفقهية مفرط الذكاء قتل سنة 587هـ ولمّا تحقق القتل كان ينشد البيت.

أرى قدمي أراق دمي وهان دمي فها ندمي.

أنظر: السهروردي نوابغ الفكر العربي بقلم سامي الكيلاني دار المعارف بمصر ص 53

[3] أبو عبد الله محمد الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي دفين الربض الشمالي من تلمسان المعروف باسمه وقد كان أحد كبار المتصوفة في وقته. أنظر: بغية الرواد ص127و128.

[4] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص114–115 الذبال: ج ذبالة: الفتيلة –العزال: ج عزلاء مصب الماء من الرّواية.

إنّ الأثار التي تركها الشاعر في التصوف يسيره جدّا بل لا نكاد نجد قصيدة مفردة في هذا الغرض إلا إشارات صوفية غامضة يختم بها قصائده أحيانا وغالبا ما يستعصى فهمها. فهي إذن لا تعبر بحقّ عن شاعريته وطول نفسه.

ولذلك يتساءل الدّارس عن هذا الغرض أهو زهد حقيقي نابع عن إيمان خالص واعتقاد راصخ؟ أم هو ناتج عن تقلب في الحياة كتقلب الدهر أملته الظروف الاجتماعية وتعاقب النكبات؟ والشاعر نفسه يرى الدّهر متغيرا ولا يستغرب من تقلب النّاس من حال إلى حال حيث يقول:

كأنّـه الدّهـــر وأي امرئ يبقى على الدّهر إذا الدّهر حال

أمـــا تراني آخـــذا ناقضـــا عليـــه ما سوّفنـــي من محـــال[1]

ويقول طاهر توات في هذا المجال " إذارجعنا الى زهد وتصوّف الشاعر فإنّه يبدو لنا من خلال آثاره التي بين أيدينا أنّه لم يكن زاهدا ومتصوّفا بمعنى الكلمة، ولو كان كذلك لما وجدناه يتأسّف على شبابه، ويتذكّر تلك الأيام الحلوة التي قضاها في تلمسان لأنّ الصّوفي هو ابن وقته لا يتأسّف على الفائت، ولا ينتظر الوارد[2]"يقول ابن خميس وهو يتشوّق إلى تلمسان.

مضوا ومضى ذاك الزمان وأنسه ومر الصّبا والمال والأهل والبذخ[3]

ويقول كذلك.

وهل لي زمّان أرتجي فيه عودة إليك ووجه البشر أزهر وضّاء[4]

ثمّ يتأسّف على شباب مضى، وشيب أتى وعمر انقضى لم يتذوّق فيه غير اللّوعة والصّبابة

وما أسفي إلاّ شباب خلعته وشيب لي إلاّ نصول خضاب

وعمر مضى لم أخل منه بطائل سوى ما خلا من لوعة وتصابي[5]

ثمّ يتذكّر شبابه عند مشيبة فيرى أنّه لم يبق له بعد ضياعه ما يفقد.

ولّى الشباب وشرخه لم يبق لي بعد الشّباب وشرخه ما أفقد[1]

---

[1] م ن. ص115.
[2] الطاهر توات: ابن خميس شعره ونثره م س ص165.
[3] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص98- البذخ الأبهة.
[4] م ن. ص64.
[5] المقري: نفح الطيب م س ج7 ص288.

ويضيف الدّارس أمرا آخر أدهى من التّغزّل وهو تناوله للحشيش، وهذا ما يستشفّ من قصيدته "مدامة حيدر" التي يفضّل فها الحشيش على الخمر بل ويدعو إلى تناولها مبيّنا فضائلها ناهيّا عن سماع كلام محرّميها. يقول :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر[1] معتّقة خضراء لـــون الزبرجـــد

يعاطيلها بدر مـــن الإنس أغيـــد يميل على غصن من البان أملـــد

هي البكر لم تنكح بمـــاء سحابـــة ولا عصرت بالرّجل يوما ولا اليد

وفيها معـــان ليس للخمر مثلـــها فلا تستمـــع فيها كـــلام المفنّد[2]

ولا عبـــث القسيس يومـــا يذمّها ولا قرّبوا مـــن دنّها نفس ملحد

ولا قـــول في تحريمها عند مالـــك ولا حدّ عنـــد الشافعي وأحمـــد

(ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبـــار مـــن لم تزوّد)[3]

قد يبدو للدّارس أن هذا كان نزق زهده وتصوّفه، ولربّما كان الشاعر حديث الانزواء والتقلّل. بيد أن الشاعر تربّى في محيط دينيّ وترعرع بين أحضان فقهاء ونهل من معين علماء ومتصوفين، ولربما قد حفظ القرآن وهو صغير يزاول تعليمه في أحد كتاتيب تلمسان وهذا ما يستشف من قوله :

وأربع آلاف عفـــا بعـــض آيها كما كان يعرو بعض ألواحا اللّطخ[4]

لذلك يتساءل الباحث: كيف زهد الشاعر عن متاع الحياة ولم يزهد في تناول الحشيش؟ خاصّة وأن الحشيش كان مثار شك وريب ومسألة خلاف. أو ليس تركه أقرب إلى التقوى وتجنّبه أسلم وأنجى للراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه؟ كما أنّ الدّارس لا يجد في شعر ابن خميس إنابة إلى الله وتضرعا واضحا ولا حضّا على طلب الآخرة. لعل هذا ما يثير الشكّ ويبدي التساؤل، ويدفع إلى ضرورة دراسة شعر ابن خميس دراسة عميقة للوقوف على كنه هذه الشخصية وإجلاء حقيقة زهده وتصوّفه.

---

[1]: حيدر حيدرة بن يحيى من علماء بغداد له موضع في إباحتها و كان يستبيحها.

[2]: بيت طرفة بن العبد.

[3] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص 96.

[4] م ن. ص 96.

الفصل الرابع:
الخصائص الفنية

ولقد علّق على هذين البيتين الشّريف السّبتي فأحسن ما قال: « أنشدنا غير واحد من شيوخنا عنه، فأخذ في ذلك بالعكس من مآخذ الناس. وقد ارتكب في هذه القصيدة وفي غيرها من حوشيّ اللّفظ كثيرا، و كان أقدر النّاس على ذلك و أحسنهم إيرادا له، و هو من أبلغ خلق الله إذا تعارب، فلو أنّ الشّنفرى، و ثابت بن جابر وتأبّط شرّا، و السّليك بن عمرو وأشباههم من صعاليك العرب، ذهبوا إلى أن يصفوا حالهم في التّلصّص على أحياء العرب لما زادوا على قوله:

و جواب بدو إذا استجوبوا أجابوا عواء و أمّوا النّباحا

و قد سمعت شيخنا الخطيب أبا عبد الله الصّديني- رحمه الله- يقول غيرما مرّة : « لو أخّر الله النعمان بن المنذر والحارث الجفنى، حتّى يدركهما أبو عبد الله بن خميس، لم يستحي أن ينشدهما مع نابغة بني ذبيان."[1]

غير أن استعمال الشاعر للألفاظ الغريبة لم يكن ليخلّ بفصاحة شعره «و مع أنّ بعض قصائده الشعرية لا يفهم دون الاستنجاد بالمعاجم اللّغوية والمصادر التّاريخية فإنها مع ذلك منظومة في سلك من السّلاسة و العذوبة بحيث لا يكاد المرء يفرغ من تفهّم شطر حتّى تدفعه الرّغبة في المتعة باستجلاء الغريب الى تفهّم الشّطر الثاني و هكذا من بيت إلى بيت..."[2].

فالألفاظ الغربية تزيد أسلوبه رونقا وجمالا وتعكسقدرته الفائقة على التّحكّم في اللّغة والتّصرف فيها.

ومن الأمثلة الواضحة على هذا الغريب ما نجده في قصيدته الهمزية التي يتشوّق فيها لتلمسان ويمدح الوزير أبا عبد الله بن الحكيم يقول:

وكيف خلوص الطّيف منها؟ ودونها عيــون لها في كلّ طالعة راء

فواحرّ بالي إن هــلكت و لم أقــل لصحــبي الغرّ الكرام ألا هاؤ !

و لم أطرق الدّير الذي كنت طارقا بليل و بدر الأفق أسلغ مسناء

---

[1]- محمد بن أحمد الحسني: رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة . عن المنتخب النفيس ص 45

[2] م ن ص 48.

أطيـــف بـه حتّى تهّر كلابـــه و قد نام عسّاس و همّ سبّاء

أما آن أن يعشو لنارك طارق جنيب له رفع إليك ودأداء

ففي البيت الأول نجد كلمة راء حيث يعجز القارئ عن فهمها كما يعجز الدّارس عن تحديد معناها وقد ذهب الأستاذ عبد الوهّاب بن منصور في كتابه " المنتخب النفيس من شعر ابن خميس إلى أنّه يريد بالرّاء الرّقيب مشيرا إليه بالحرف الأوّل منه[1].

أمّا في البيت الثاني فنجده يستعمل كلمة هاؤا[2] و لعلّه يريد بها خذوا.و في الأبيات المتبقية نجد أسلغ[3] معناه شديد الحمرة، و مسناء كثير الضّوء، ثمّ كلمة عسّاس[4] من عسّ عسّا أي طاف باللّيل و تطلق على حارس اللّيل و لا تزال هذه الكلمة مستعملة إلى اليوم في بلاد المغرب العربي.و أمّا السّبّاء[5] فتعني البئيس الذي ينقع الطريق مشتقّة من السّبا وهو الطّريق، والسّابلة هم أبناء السّبيل المختلفة في الطّرقات ثمّ كلمة دأداء[6] عدو فوق الخبب يقال مرّ يدأدئ أي أسرع في السّير.

و يقول في مدح صديقه ابن الحكيم:

و بوّأني مـــن هضبة المجد تلعـــة يناجي السّها منها صعود وطأطاء

و لا مثل نومي في كفالـــة غيره و للذّئب إلـمام و للصّلّ إلـــماء

---

[1] م ن – م س. ص 63.

[2] م ن. ص 63.

[3] الفيروز آبادي:مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي– القاموس المحيط، طبعة جديدة لوفان ط/1 دار الكتاب العلمية بيروت ج 3. ص 144.

[4] م ن ج 2 ص 361.

[5] الجوهري:إسماعيل بن حماد – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية –تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ط/3–1982. ج 5 ص 1424.

[6] أبو بشير اليمان بن أبي اليمان البنتيجي: التقفيةفي اللّغة. تحقيق د: خليل إبراهيم العطية مطبعة العاني بغداد 1976. ص 89.

فكلمة طأطاء هي المنهط يسّر من كان فيه[1] وهي عكس كلمة صعود المذكورة في البيت والصّلّ هي الحيّة[2] والإلماء الذّهاب بالشّيء خفية.[3]

أما في قصيدته الخائية "معاهد أنس عطّلت" والتي يرثي فيها تلمسان و يمدح بني العزفي فنجدها مليئة بالغريب زاخرة بالحوشي الذي يجد فيه الشاعر لذّة و مجالا للافتخار والتباهي في استعماله.يقول متشوّقا لبلدته تلمسان:

وداري بها الأولى التي حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحنق اللّبخ

وعهدي بها و العمر في عنفوانه وماء شبابي لا أجين و لا مطخ

إذ الدّهر مثني العنـــان منهنـــه ولاردع يثني من عنان ولا ردخ

فالشاعر يستعمل كلمات غريبة كاللّبخ وهو الضّرب والشّتم[4] ثمّ المطخ وهو الدّنس[5] والرّدخ وهو الرّأس[6] والمراد الزّجر.

ويصف أصدقاءه و أترابه فيقول:

و إخوان صدق من لداتي كأنّهم جآذر رمل لاعجاف و لا بـــزخ

وعاة لما يلقى إليهم من الـــهدى وعن كلّ فحشا ومذكرة صـــلخ

هم القوم كلّ القوم سيّان في العلا شبابهم الفرغان والشيخة السلـــخ

كأن لم يكن يوما لأقلامهم بهـــا صرير و لم يسمع لأكعبهم جبـــخ

و لم يكن في أدواجها من ثنائهم شميم ولا في القضب من لينهم ملخ

---

[1] الفيروز آبادي: القاموس المحيط ج 1 ص 26.

[2] ابن قتيبة: أدب الكاتب تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد –دار العلم للملايين ط/4-1963. ص 169.

[3] الفيروز آبادي: القاموس ج/3 ص 144.

[4] ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب- دار بيروت للطبع والنّشر سنة 1968 مج/3 ص 50.

[5] م ن. ص 56.

[6] محمد عمرو: الطمار تاريخ الأدب الجزائري م س- ص 184.

نلاحظ في هذا المقطع كلمفي جلّ القصيدة أنّ القافية تكاد تكون كلّها غريبا، فالبزخ[1] هو خروج الصّدر ودخول الظّهر. والصلخ[2]هو الصّمم والسّلخ[3]هو الصّيرورة في آخر العمر(آخر الشهر) والجبخ[4] تحريك الكعاب وإجالتها، أمّا الملخ[5]فمن ملخ أي تلهّى.

ثمّ ينتقل الشاعر إلى هجاء بني زيّان مستعملا في كلّ بيت لفظة غريبة كعادته، يقول:

سعيتم بني يغمور في شتّ شملها فما تجركم ربح ولا عيشنا ربخ

دعيتم الى ما يرتجى من صلاحكم فردكم عنه التعجرف والجمـــخ

تعاليتم عجبا فـــطم عـــليكـــم عباب له في رأس عليائكم جلخ

وأوغلتموا في العجب حتى هلكتم جماحا غواة ما ينهنهكم قفـــخ

وكالعادة نجد الكلمة الأخيرة من كلّ بيت غريبة يستعصى فهمها فالزّبخ[6] هو العسر والجمخ[7] هو التكبّر و الجلخ[8]هو البضع بالسّيف من اللّحم والقفخ[9]الضرب على الرأس ثمّ يقول:

فكـــم فئة منّا ظفـــرتم بنيلهـــا بأبشارها من حجن أظفاركم برخ

كأنّكم من خلفهـــا وأمامهـــا أسود غياض وهي مـــا بينكم أرخ

فللسّوق منها القيد إن هي أغربت وللهام إن لم تعط مـــا رعت النقخ

وأقرب ما تهدي به الهلك والتّوى وأيسر ما تشكو بـه الذّلّ والفتخ

فماذا عساي نرجوه من لمّ شعثنا؟ وقد خرّ منها الفـــرع واقتلع الشّلخ

---

[1] الجوهري: الصحاح مجلد 1 ص 419.
[2] ابن منظور: لسان العرب مج/ 1 ص 34.
[3] الفيروز ابادي: القاموس المحيط ج 1 ص 360.
[4] الزّبيدي: محمد مرتضى الحسيني – تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق عبد السلام محمد هارون طبعة حكومة الكويت1970 ج 7 ص 241.
[5] الأحمدي نويوات: موسى بن محمد الملياني– معجم الألفاظ المتعدية بحرف ط 2 دار العلم للملايين بيروت عام 1973 ص 354 .
[6] محمد عمرو الطمار: ابن خميس شعره ونثره م س . ص 184.
[7] ابن المنظور: لسان العرب م 1 ص 13.
[8] الأحمدي نويوات: معجم الألفاظ المتعدية بحرف م س ص 36.
[9] البندينجي: التقفية في اللغة م س ص 295.

زعانف أنكـــل لئامّ عـــناكـــل متى قبضـــوا كفّا عـــلى إثره طخّوا
و لّما استقلّوا من مهاوي ضلالهم وأومـــوا إلى أعـــلام رشدهم رخّوا
دعاهم أبو يعقوب للشرف الذي يذلّ لـــه رضوى و يعنو لـــه دمخ
فلم يستجيبوا له فذاقوا وبالـــهم وما لامرئ عن أمر خالقـــه نـــخّ

فالأبشار[1] هي الجلود، والحجن[2] الاعوجاج، والبرخ[3] قطع من بعض للّحم، الأرخ[4] الذّكر من البقر والفتي خاصّة، النقخ[5] الكسر واستخراج المخ من العظم، التّوى[6] الضّياع والهلاك، الفنخ[7]: أقبح القهر و الذّلّ، الشلخ[8] : الأصل و العرق، العناكل[9] اللّئام، الطّخّ[10] الشراسة وسوء الخلق و المعاشرة، الزّخّ[11]: الوقوع في وهدة، رضوى و دمخ[12]: جبلان بجزيرة العرب، النّخّ[13]: السّير العنيف و يريد به الهروب.

ثمّ يقول الشاعر في مدح بني العزفي عندما وصل إلى سبتة و قد أعجبته و تمنّى الإقامة بها لولا مكيدة ابن أبي الرّبيع الذي ألّب طلبته عليه فأزعجوه و هجّروه منها، يقول:

تركت لميناء سبتـــة كلّ نجعـــة كما تركت للمعزّ أهضامها شمخ
و آليت أن لا أرتوي غير مائها و لو حلّ لي في غيره المنّ و المذخ
و ألاّ أحطّ الدّهر-إلاّ بعقرها و لـــو بـــوّأني دار إمرتها بلـــخ

---

[1] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس من شعر ابن خميس م س ص 99
[2] الجوهري: الصحاح مج/ 5 ص 2097.
[3] ابن منظور: لسان العرب ج1/ ص 7.
[4] م ن ج/1 ص 40.
[5] م ن ص 64.
[6] عبد الوهاب بن منصور المنتخب: النفيس من شعر ابن خميس م س ص100.
[7] ابن منظور: لسان العرب ج/1 46.
[8] م ن. ص 30.
[9] الفيروز أبادي: القاموس مج/3 ص 580.
[10] م ن ص 365.
[11] الزبيدي: تاج العروس ج 7 ص 262.
[12] ياقوت الحموي: معجم البلدان مج/ 3 ص 51 و مج/ 2 ص 462.
[13] الزبيدي: تاج العروس ج/ 7 ص 353.

و روضات آداب إذا ما تأرّجت تضاءل في أفيـاء افنائها الرّمـخ

مجامر ندّ في حـدائق نرجـس تتمّ و لا لفـح يصيـب و لادخ

بنو العرفيين الأولى من صدورهم و أيديهم تملأ القراطيس و الطرخ

نزورهـم حذّا نحـافا فننثـني و أجمالنا دلـح و أبدانـنا دلـخ

يربّوننا بالعلم و الحلم و النّهـا فما خرجـنا بزّ ولا حدّنا بـرخ

فالأهضام[1] جمع هضم وهو بطن الوادي وكلّ مطمئن من الوادي، الشّمخ[2] البعيد والمرتفع، المذخ[3] عسل يظهر في جلنّار المطّ وهو رمّان البرّ، بلخ[4] مدينة مشهورة بخراسان من أجل مدنها وأكثرها خيرا وأوسعها غلّة، الرّمخ[5] الشّجر المجتمع، دخّ[6] يريد به الدّخان، الطّرخ[7] قطعة من خوص، الأحذ[8] السّريع، الدّلخ[9] انقباض الخطو من الثقل، الدّلخ[10] السّمن، البرخ[11] الرّخيص من الأسعار.

ويقول متحدّثا عن النّعمان بن امرئ القيس باني الخورنق.

و عنّ له من شيعة الحقّ قائم بحجة صدق لاعبام و لا وشـخ

فأصبح يجتاب المسوح زهادة و قد كان يؤذي بطن أخمصه النخ

---

1 ابن فارس: مقايس اللغة ص 1072

2 ابن منظور لسان العرب مج/ 1 ص 30.

3 م ن ص 53.

4 ياقوت الحموي م س. مجلد 1 ص 479.

5 ابن منظور: لسان العرب مج/ 1 ص 19 .

6 الزّبيدي: تاج العروس ج/ 7 ص 248.

7 ابن منظور: لسان العرب مس ص 38.

8 محمد عمرو الطمار: ابن خميس شعره ونثره م س ص 186.

9 الفيروز أبادي م س ج /1 ص 301.

10 ابن المنظور م س. ص 15.

11 الزبيدي م س. ج/ 7 ص 233.

فمن الكلمات الغريبة العبام[1] وهو الأحمق، الثقيل العيّي، الوشلخ[2] دئ الضّعيف أمّا النّخّ[3] فهو البساط الطّويل.

ثمّ يتحدّث عن أبي العزفي فيقول :

وأعرض عنها مستهيـــنا لقدرها فلم يثنه عنها اجتذاب ولا مصخ

وما معرض عنها وهي في طلاب كمـــن في يـــديه من معاناها نبخ

ولا مدرك ما شاء من شهـــواها كمن حظّه منها التّبجّج و النّجخ

وفي هذه الأبيات نجد بعض الكلمات الغريبة كالمصخ[4] وهو اجتذاب شيء من جوف شيء آخر، والطّخ[5] الرّمي والابعاد والنّبخ[6] ما يسبّبه العمل في اليدين من البثور المملوءة ماء و النّجخ[7] هو التّكبّر.

و يقول في أبي طالب العرفي أمير سبتة :

أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد يساد بها إلاّ وأنت لها سنـــخ

تسوّغت أبنـــاء الزّمان أياديا لدرّها في كلّ سامعـــة شـــخ

و أجريتها فيهم عوائد سؤدد فمالهم كسب سواهـــا ولا نخ

غذّتهم غواديها فهي في عروقم دماء وفي أعماق أعظمهم مـــخ

وعمّتهم حزنا وسهلا فأصبحوا ومرعاهم وزخ ومرعيهم ولـــخ

---

[1] أبو البشير البنديجي: م س ص 732
[2] ابن منظور م س. مج/ 1 ص 66.
[3] الزبيدي م س. ج/ 7 ص 353.
[4] ابن منظور: م س. مج /1 ص143.
[5] الزبيدي: م س مج/ 7 ص 301.
[6] م ن. ص 349 .
[7] محمد عمرو الطمار: ابن خميس شعره ونثره ص 187.

فالسّنخ[1] هو الأصل من كل شيئ وشخّ[2] في الوّم أي غطّ والنّخ[3] البقر العوامل، الورخ[4] هو المكان الملتفّ العشب أما الولخ[5] فهو المبتل.

ثم ينصح بني العزفين قائلا:

بني العرفيين أبلغوا مـــا أردتم فما دون ما تبغون وحل ولا زلخ

ولا تقعدوا عمّن أراد سجا لكم فما غربكم جفّ ولا غرفكم وضخ

فالزّلخ[6] هو التّزحلق والمزلّة تزلّ منها الأقدام للنداوتها، والغرب[7] هي الدّلو العظيمة، والوضخ[8] قلّة الماء أو الإمتلاء إلى نصف.

يختم الشاعر قصيدته مفتخرا بخائيته هذه أمام حسّاده وأعدائه :

لأفواه أعـدائي و أعين حسّدي إذا جلّيت خائيتي الفضّ والفضـــخ

دعوها تهادى في ملاءة حسنهـــا ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ

يمانيّـــة زارت يمانيـــين فانتشـــت وقد جدّ فيها الزّهر واستحكم الزّمخ

---

[1] ابن منظور م س مج/ 1 ص 26.
[2] الزبيدي تاج العروس ج/ 7 ص 277 .
[3] م ن. ص 354.
[4] م ن. ص 365.
[5] ابن منظور م س. مج/ ص 67.
[6] م ن. ص 21.
[7] موسى حسين يوسف وعبد الفتاح الصعيدي: الإفصاح في فقه اللغة ط/2 – دار الفكر العربي ج/2 ص 1004.
[8] الأحمدي نويوات: معجم الألفاظ المتعدية بحرف م س– ص 424.

الفضخ[1] من فضخ العين أي فقاها، المدخ[2] هو الكبر والعزّة والعظمة، والزّمخ[3] هو الكبر. وهكذا كانت خائية الشاعر تتهادى في أبهى ملاءة وقدوشّيت بألفاظ حوشية يصعب على الدّارس أن يفهمها إلاّ إذا استنجد بالقاموس.

فكأنّ الشاعر يعمد إلى استعمال هذه الكلمات عمدا، إظهارا لثقافته اللغوية الواسعة، و حتّى الجغرافية حيث يفضّل بلدته تلمسان عن دار السّلام والكرخ وهو حي ببغداد، ثم يترك جبال تلمسان والمغرب الكبير، و يذهب إلى رضوى ودمخ بجزيرة العرب، ثم ينتقل إلى أقصى شمال أفغنستان حيث مدينة دلخ.

وقد يكون الشاعر مدفوعا إلى ذلك دفعا ليبحث عن كلمة تناسب قافية خائيّة يصعب جسرها ويعسر أن يطول النّفس فيها ولا يتأتّي ذلك إلاّ للفطاحل والفحول من شعراء العرب الجاهليين ومن حذا حذوهم واقتفى أثرهم لاستعمال قاموسهم كالشاعر ابن حميس الذي تجاوز فيها التسعة والسّبعين بيتا. أو لم يقل فيه صاحب الإحاطة « كان رحمة الله... طبقة الوقت في الشعر، وفحل الأوان في النّظم المطوّل قدر النّاس على اجتلاب الغريب...[4] » .

كما لجأ الشاعر أحيانا إلى اعتمال كلمات فارسيّة دخيلة أو أندلسية معرّبة لعلّها أصبحت عاميّة في عهده، شائعة في عصره، كالتي تظهر في قوله وهو يمدح صديقة ابن الحكيم حيث يقول:

كبّت العدا إنعامك البغت ... فلي الهناء وللعدا الكبت

يا من إلى جدوى أنامه ... يرجي السّفين، وتزجر البخت

لولاك لم يوصل بناحيّة ... وخد ولم يقطع بها دشت

فالبخت[5] هي الإبل الخراسانية والدشت[6] هي الصّحراء فالكلمتان فارسيتان.

---

[1] ابن منظور م س ج/ 1 ص 42.
[2] المصدر نفسه ص 52.
[3] م ن. ص 22.
[4] لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة ص 529.
[5] الجوهري:م س ج / ص 223.
[6] الفيروز أبادي: م س. ج 1 ص 199.

ويقول في نفس القصيدة.

ولكلّ أصيد من بطارقها في كلّ (ناحية) له دعت

فالبطارق[1] جمع البطريق وهو القائد من قواد الرّوم.

ثم يقول في آخر القصيدة:

وغريبة في لطف صنعتها يمضي الزّمان ومالها أخت

ينأى النّدي بها إذا لبست ويتيه إن طويّت بها التّخت

زنجية لكن لمحتدها في الرّوم يعنو القس والشّنت

فالشّنت هو القديس محرف كلمة santo[2] بلهجة الأندلس.

غير أن غريب ألفاظ ابن خميس غير مستهجن ولا يحجب المعاني بل يثير في القارئ رغبة التّمتّع باستجلاء الكلمة و التّوق إلى سماع أخرى.

والغالب على شعره فصاحة الألفاظ التي تتناسب مع كلّ غرض، فهي تّتسم بالجزالة والقوّة في المدح والفخر، وتتعوذب وترقّ في الغزل والحنين. ذلك لأنّ الشاعر ينهل من معين لغوي قديم، ويقتبس من القرآن الكريم فإذا الألفاظ ألفاظ الجاهلين تتر دّد وإذا الصّور صورهم تتكرّر بل لكأنّ الشاعر ابن الصحراء، فهو ينقلنا إليها فيذكر حيواناتها ويستعمل أدواتها.

يقول مستعملا كلمة خليليّ التي طالما ر ددّها الجاهليون ومن جاء بعدهم :

خليليّ لا طيف لعلوة طارق بليل ولا وجه لصبحي لائح[3]

ويستعملها مرّة أخرى في قصيدته لم أرد إلاّ سرابا فيقول :

خليليّ إن قدرت فلا تكلني لدهر علّم الشحّ الغماما[4]

---

[1] الجوهري:م س. ج/4 ص 1450.

[2] F. CORRITE. Dictionario.Espanôl – Arabe. Instituto Hispano Arabe de cultura MADRIO 1970 p414.

[3] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 85

[4] م.ن ص 136

ويذكر الرّبع فيقول:

فكم عطّلت من أربع وملاعب وكم فرّقت من إخوة وصحاب[1]

كما يذكر الظّباء والجؤذر والطّلا والنّوق.

تركتك سوق البزّ لا عن تهاون وكيف وظبيّ سانح فيك سابح

ظباء مغانيها عواط عواطف وطير مجانيها شوال صوادح[2]

ويقول مشبّها المرأة بولد الظبي والنساء بقطيع من بقر الوحش.

وتحت الوجاح طلا ربرب لو أنّ القيان رفعن الوجاحا[3]

كما أتى بلفظ النّيب للتعبير عن مدى حنينه وشوقه لداره الأولى ببلدته تلمسان.

أحنّ لها ما أطّت النّيب حولها وما عاقها عن مورد الماء إضماء[4]

ويستعمل السّيف والحسام واللّهثم والسّهم فيقول:

وما سهمه عن النّضال بأهزع ولاسيفه عند الصّراع بنابي

ويقول:

ولا صاحب إلاّ حسام ولهثم وطرف لخذّاللّيل مذكان وطّاء

ويستعمله مشبّها به حين يصوّر البرق في الدّجا من قصيدته وبابن رشيد تعوّدت.

أطار فؤادي بـــرق ألاحـــا فما (هزّ) بعد لو كرّ جناحا

كـأنّ تألّقـــة في الرّجـــا حسام جبان يهاب الكفاحا[5]

ويذكر المشرفي وهو سيف ينسب إلى قرى مشارف الشام والمهنّد وهو السّيف المطبوع من حديد الهند في قصيدته مدامة حيدر التي فضّل فيها الحشيس على الخمر، يقول :

---

[1]- المقري نفح الطيب:ج/7 ص 288

[2] عبد الوهاب بن منصور: م س ص86

[3] م ن ص 92

[4] المقري نفع الطيب:ج/7 ص 296.

[5] م ن ج/7ص287 .

ولا أثبت النّعمان تنجيس عينها فخذها بحدّ مشرفي مهنّد[1]

كما ذكر ثلاث أنواع من السّيوف في بيت واحد وهي الصّارم والعضب والهذام وكلّها تعني السّيف القاطع:

أضام وفي يدي قلبي لماذا أضام بغير جرم أو على ما؟

بهر بّما أذلق من لساني أفل الصّارم العضب الهذاما[2]

لم يكتف الشاعر باستعمال الفاظ الجاهليين بل راح يقتبس منهم تعابيرهم وصورهم وقد يلجأ أحيانا إلى تضمين شعره البيت أو الشطر يقول متأثرا بامرئ القيس حين يذكرغدوّه مع الطّير.

ولقد غدوت وفي وكناتها طير لها فوق الغصون ترجّع[3]

ويقول امرؤ القيس :

وقد أغتدي والطّير في ونكاتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل[4]

ويروح ابن خميس إلى شاعر الحكمة عندما يرى نفسه من بقيةّ عركتهم الرّحى لبثقالها.

أنا من بقيّة معشر عركتهم هذه النّوى عرك الرّحى بثقالها[5]

ويقول زهير ابن أبي سلمى مبينّا خطر الحرب على الحيّين.

فتعرككم عرك الرّحى بثفالها وتلفع كشافا، ثم تنتج فتتئم[6]

ويحنّ الشاعر إلى ديارمتشوق أن يطوف به ليلا حتّى تمرّ كلاب الحيّ وقد نام عسّاس وهوّم سّباء متأثرا بعمرو بن كلثوم في معلّقته حين يترل بيوت حييّهم بذى طلوع فينفيه عن أعدائه بعد أن تغلّبوا كلّ أحد حتّى هرّت كلاب الحيّ و أنكرهم.

---

[1] عبد الوهاب بن منصور:م س. ص 109.
[2] م ن ص 136.
[3] م ن ص 138.
[4] كرم البستاني:الزوزني شرح المعلّقات السبع دار صادر بيروت ص 29. وانظر كرم البستاني ديوان امرئ القيس دار صادر بيروت ص 11.
[5] القري:م س ج /7 ص289.
[6] كرم البستاني: ديوان زهير بن أبي سلمى، دار بيروت للطبع والنشر ص 82.

يقول ابن خميس :

ولم أطرق الدّير الذي كنت طارقا بليل وبدر الأفق أسلغ مسناء

أطيف به حتّى تهرّ كلابه وقد نام عسّاس وهوّم سباء[1]

ويقول عمرو بن كلثوم.

وأنزلنا البيوت بذي طلوح إلى الشامات ننفي الموعدينا

وقد هرّت كلاب الحيّ منّا وشذّبنا قتادة من يلينا[2]

ثمّ يصطفي الشاعر من بيت للنّابغة جناسا لاحقا يستعمله في عجز بيته، حين يقف على غدير الوريط وينظر إليه متأمّلا فيغدو ماؤه الصّافي صفائح لامعات.

مطلاّ على ذاك الغدير وقد بدت لإنسان عيني من صفاه الصفائح[3]

بينما يقول النّابغة الذبياني راثيا.

فيالك من حزم و عزم طواهما جديد الرّدى بين الصّفا والصّفائح[4]

وقد يذهب الشاعر إلى أبعد من ذلك حين يضمّن قصيدته جزءا من صدر بيت للنّابغة وكأنّه يشير إلى الإقواء الحاصل في قصيدته:

يقول ابن خميس:

بان الخليط و بان قلبي إثره سحرا كما زعم الغراب الأسود[5]

أما قصيدة النابغة فمطلعها:

أمن آل ميّة رائح أم مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزوّد

---

[1] عبد الوهاب ابن منصور:م س ص 64.

[2] عبد القادر محمد مايو:ديوان عمرو بن كلثوم تقديم- ترتيب و شرح-دار القلم العربي- ط/1 1439 – 1999 ص 78.

[3] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 67.

[4] كرم البستاني: ديوان النابغة الذبياني – تحقيق و شرح – دار صادر بيروت –المؤسسة العربية للتوزيع تونس ص 78 بدون تاريخ.

[5] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 107.

إلى أن يقول:

زعم البوارح أنّ رحلتنا غدا وبذلك خبّرنا الغراب الأسود[1]

كما ضمّن الشاعر قصيدته مدامة حيدر بيتا كاملا لطرفة بن العبد حيث يقول:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر معتّقة خضراء لون الزّبرجد

وفيها معان ليس للخـــمر مثـــلها فلا تستمع فيها كلام المفنّد

(ستبدي لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد)[2]

ويقول طرفه بن العبد في نهاية معلّقته مبيّنا أنّ المرء صورة طبق الأصل لصورة صديقه في الأخلاق فلا حاجة للبحث عن سلوكه فأعمال وسلوك صديقه تجلّيه وتدل عليه والأيام كفيلة بإظهار ما جهلت وما لم تكن تعلم.

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإنّ القرين بالمقارن مقتدي

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد[3]

كما ضمّن شطرا من بيت للشاعر مهيار الديلمي حيث قال مخاطبا أبا زيّان معجبا بنزعته مفتخرا بقريظه مجاريّا مهيار.

خذها أبا زيان من شاعر مستملح النّزعة عذب المقال

يتلفظ الألفاظ لفظ النّوى وينظـــم الآلاء نظـــم اللآل

مجاريّا مهيار في قولـــه ماكنت لو لا طمعي في الخيال[4]

أمّا قصيدة مهيار التي عارضها ابن الخميس فمطلعها :

---

[1] كرم البستاني:ديوان النابغة ص 38.

[2] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 109.

[3] مصطفى العيلاييني رجال المعلقات العشر – ط/2 – منشورات المكتبة العصرية صيدا – بيروت ص 125.

[4] المقري:م س ص 190.

ما كنت لولا طمعي في الخيال أنشد ليلى بين طول اللّيال[1]

الاقتباس :

إنّ الثّقافة الدينية التي اكتسبها الشاعر منذ طفولته، سواء في كتاتين حفظ القرآن، أو حلقات الدّرس في مساجد ومدارس تلمسان قد أعطته ثراء لغويّا ودينيّا واسعا، تجلّى بوضوح في ألفاظه المستعملة وتعابيره وصوره المركّبة.

فلقد تأثر الشاعر بالقرآن الكريم أيّما تأثر، يقتبس منه الألفاظ الكثيرة والتعابير المناسبة في مدحه وافتخاره وحنينه وغزله.

وإنّه ليجرؤ أحيانا على استعمالها في ذكر محاسن المرأة وتصوير لحظة تمتع بها على ما عرف عنه من زهد وتديّن،فقد استعمل كلمتي جنّة وكوثر في بيت واحد من قصيدته الغزلية دمية من مرمجين صوّر نظرة في خدّ امرأة حسناء كتمتّع بنعيم الجنّة وذوقة من لماها كشربة من الكوثر وهو نهر في الجنّة.[2]

لو عجت طرفك في حديقة خدّها وأمّنت سطوة صدغها المتجبّر

لرتعت في ذك الحمى في جنّة وكرعت من ذاك اللّمى في كوثر[3]

فلا شكّ أنه استوحى عجز البيت الثاني من قول الله تعالى : (إنّا أعطيناك الكوثر)[4]

كما استعمل كلمة ثجّاج في قوله :

ومشجّج مازال منهل الحيا يبكي صداه بدمعه الثّجّاج[5]

---

[1] مهيار بن مرزوية الدّيلمي الشبعي كان مجوسيّا و أسلم على يد الشريف الرضى سنة 394 وتخرّج عليه وجاراه في منازعه حتّى كاد يفوقه توفي سنة 428هـ أنظر تتمة المختصر في أخبار البشر للأستاذ زين الدين عمر بن الوردي تحقيق أحمد رفعي البدراوي الجزء الأوّل دار المعرفة بيروت لبنان الطبعة الأولى 1970 ص 52.

[2] محمد علي الصّابوني:صفوة التفاسير – مج/3 – دار الضياء قسنطينة ط 5 144 –1990 ص 610.

[3] عبد الوهاب منصور:م س ص 110.

[4] سورة الكوثر آية 1.

[5] عبد الوهاب بن منصور: ص 79 الثجّاج كثير السّيلان – الدّفاع في انصبابه–الجوهري الصحاح مجلد 3 ص 302.

أخذها من قول الله عزّ وجلّ : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجا).[1]

أمّا في قوله من قصيدة حنين إلى تلمسان :

كذلك جدى في صاحبي وأسرتي ومن لى به أهل ودي إن فاءوا[2]

فقد اقتبس العبارة الأخيرة من قوله تعالى : " فإن فاءوافإنّ الله غفور رحيم"[3]

وكذلك كلمة قماحا في قوله :

كأنّ النّجوم وقد عربت نواهل ماء صدرن قماحا

القمح هو رفع الرّأس لسفّ الشيئ، ويقال لرفع الرّأس كيفما كان : قمح، وقمح البعير : رفع رأسه[4]. وقوله الله تعالى (إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقحمون)[5]

كما استعمل الشاعر كلمة أمشاج و أمت ورغاء.

تأبى لنا الإحجام من أعدائنا يوم اللّقاء طهارة الأمشاج[6]

ويقول :

وطأت بي الدنيا فلا عوج فيما أرى منها ولا أمت[7]

ويقول:

وكان رغاء الصّعب في قوم صالح حديثا فأنساه رغاء سراب[8]

ولا يكتفي الشاعر أحيانا باقتباس اللفظة بل يأخذ الجزء من الآية أو يحوّرها، في مثل قوله مفتخرا بأفكاره طالبا من ممدوحه ابن رشيد أن يسمعه ويليّن له الجانب:

---

[1] سورة النّبأ آية 14.
[2] عبد الوهاب بن منصور: م س 65.
[3] سورة البقرة آية 8.
[4] سميح عاطف الزين: تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم م س. ص 717.
[5] سورة يس آية 8.
[6] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 84.
[7] م ن. ص 73.
[8] الحفناوي:تعريف الخلف برجال الشلف ص 382.

وهنّ بنات فكري وقد أُينك فاخفض لهنّ الجناحا[1]

فقد استقى عبارته الأخيرة من قول الله عزّوجلّ :(اخفض لهما جناح الذّلّ من الرّحمة)[2]

وقال ابن خميس في قصيدته نصيحة مشفق متحدّثا عن عروة بن عتبة الرّحال نديم النعمان:

وكانت على الأملاك منه وفادة إذا آب منها آب خير مآب[3]

فعبارة خير مآب اقتبسها من قول الله عزّ وجلّ : (فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب).[4]

وذكر كلمة متاب في نفس القصيدة في قوله :

وما زلت والعلياء تعنّى غريمها أُمَلّل نفسي دائما بمتاب[5]

أخذها من قوله عزّوجلّ في سورة الرّعد قل هو ربّي لا إله إلاّ هو عليه توكّلت وإليه متاب).[6] وفي نفس القصيدة وردت كلمة سراب التي اقتبسها من قول اللّه تعالى: (الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئا)[7] وذلك في قوله معبّرا عن خدعه بالعيش في الحياة:

خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصّادي بلمع سراب[8]

ويقول في هجائه لبني زيان مشيرا إلى تعجرفهم وتكبّرهم الذي جرّ لهم الويل والهوان وقد اقتبس الشاعر جزء آية من القرآن الكريم.

يقول :

فلم يستجيبوه فذاقوا وبالهم وما لا مرئ عن أمر خالقه زحّ[1]

---

[1] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 95.
[2] سورة الاسراء آية 24.
[3] المقري: نفح الطيب المطبعة الميرية المصرية ج/3 ص 191.
[4] سورة الإسراء آية 24.
[5] المقري: نفح الطيب م س. ص 191.
[6] سورة الرعد آية .30
[7] سورة النذور آية .39
[8] القري م س ص ن.

فقوله : فذاقوا وبالهم أخذه من قول العزيز الحكيم : (كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم، و لهم عذاب أليم).[2]

لعلّ هذه بعض النّماذج التي تدلّ على أن الشاعر كان متأثرا في أسلوبه بالقرآن الكريم يستقي منه متى احتاج ويقتبس متى اضطر أو شاء .

وهذا ليس غريبعلى رجل تربّى في بيئة دينيّة وتعلّم في كتاتيب حفظ القرآن وعزف عن مباهج الحياة فأصبح يرى في القرآن أكبر حجّة لطامع في دنيا زائلة وخير موعظة لمرشد ناصح.

وهكذا راح ابن خميس يستقي من لغة الجاهلين ويحذو حذوهم في التعبير والتصوير ويقبس من القرآن الكريم، ثمّ يقلّد فحول شعراء العصر العبّاسي شكلا ومضمونا إلى أن جاء شعره على منوال شعرهم ولغته على شاكلة لغتهم. وزاد عنهم أن صبغ بعض أشعاره صيغة فلسفة صوفية. يقول طاهر توات: «الإضافة إلى كلّ هذا فإنّ ابن خميس كان فيلسوفا وصوفيّا له فكر الفيلسوف والصّوفي، حيث كانت له مشاركة في العقليات على حدّ تعبير ابن خاتمة الأنصاري، ولهذا وجدنا عند الشاعر تلك الألفاظ العلمية التي تظهر جلية وواضحة حين عدّد بعض مثالب الدّنيا ».[3]

ويقول الشاعر في هذا المجال من قصيدته (لله أيّام بها قضيتها):

ولقد غدوت بها و في وكناتها ... طير لها فوق الغصون ترجّع

بمطهّم الفكر الذي ما إن لـــه ... الاّ بمستنّ الأدلّة مصـــرع

قيد المطالب لا يـــزال نخبـــه ... بين الجـــياد لعنقه أو يوضع

أرمي به الأمد البعيـــد وإنّـــه ... حمل يضلّ به الدّليل الأصمع

من بعد ماعفت السّواري سبله ... ومحت معـــالمه الرّياح الأربع

لكنّني جـــدّدت دائـــر رسمـــه ... فطريقه مـــن بعد ذلك مهيع

أوضحت فهم حدوده وضروبه ... والكلّ في كلّ المسالك يدفع

---

[1] الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ص 386

[2] سورة الحشر آية 15.

[3] طاهر توات: ابن خميس شعره و نثره، م س. ص 190.

حتى وردت من السّماع مواردا فيها لضمآن المباحث مكرع
مع كلّ مصقول الذّكاء فحدسه لذكـاء أسرار الطّبائع مطلع
يرتاع من نجع العناصر نجعة فيها مصيف للعقول و مربع
من واهب الصّور التي خصّها ببديع حكمته الحكيم المبدع
ربّ له في كلّ شيء حكمة يقضي بها البدعيّ و المتشرّد[1]
وحللت من أرض الرّياضة أربعا نفسي الفداء لها وهذي الأربع
قامت زواياها فما أوتـادها إلاّ تقـوم ما تقيـم الأضلع
وتناسبت أقدارها نسبابها لو كنت تبصرها فروع فرّع
فأجلّ ما قد شمته بحلولها من بارق لجناب رشدي يلمع
لا شكّ أنّ وراءه مطرا له في كلّ ضرب من قياسي موقع
بحرروي مترع ملاحـه من فيضه هـذا الرّوى المترع
لم لا أضيع بها عهاد مدامعي إنّي إذا لعـهـوده لمضيّـع[2]

فالشاعر هنا يذكر جملة من الألفاظ ذات المدلول الفلسفي والاستعمل الصّوفي كالحدود الضّروب والذّكاء والحدس، وأسرار الطّبائع وتناسبت أقدارها وفروع فرع، وقياسي[3] يمكن للدارس في الأخير أن يستنتج أنّ لغة ابن خميس هي لغة الشعراء الجاهلين. فقد قال عنه الشريف السّبتي فيما يرويه عن شيوخه : « وهو أبلغ خلق الله إذا تعارب، فلو أنّ الشنفرى و ثابت بن جابر و تأبّط شرّا، و السليك بن عمرو، و أشباههم من صعاليك العرب، ذهبوا أن يصفوا حالهم في التلصّص على أحياء العرب لما زادوا على قوله :

وجواب قوم إذا استجوبوا أجابوا عواء وأمّوا النّباحا

---

[1] عبد الوهاب بن منصور:م س. ص 139.
[2] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 140 واظر الاحاطة في أخبار غرناطة ج 2 ص 536-537.
[3] طاهر توات: ابن خميس شعره و نثره ص 191.

وقد سمعت شيخنا الخطيب أبا عبد الله الصديني رحمه اللهيقول غيرما مرّة :

لو أخّر الله النّعمان بن المنذر، والحارث الجفني، حتّى يدركهما أبو عبد الله بن خميس لم يستحي أن ينشدهما مع نابغة بني ذبيان »[1].

و مع هذا كلّه فإن لغة ابن خميس ذات مستويين متمايزين، فما كان منها للمدح والفخر بالخصوص جاء قويّا لا يخلو من الألفاظ الغريبة وبعض الكلمات الدّاخيلة أحيانا، وذات المدلول الفلسفي مرّة أخرى، ما كان للحنين والغزل فجاء سلسا عذبا.

ظلّ ابن خميس يقتبس من القرآن الكريم ما يناسب حكمته ويوافق أفكاره، ويأخد من لغة الشعراء الجاهلين وتعابيرهم حتّى كاد يكون مثلهم،وما يعزب عنه ما قاله فحول الشعراء بعدهم في عصور الأدب العربي،فقد تأثّر بكعب بن زهير، وأبي نواس، وابن الرومي، والمتنبي، وأبي فراس الحمداني، إلى ابن خفّاجة الأندلسي وابن حمديس الصّقلّي.

وتأثرهكعب بن زهير واضح في بيت يقدّم فيه حكمة يبيّن فيها أن لا مفرّ من قضاء الله النازل حتما لا ينقصه أحد ولا يفسخه شيئ.

وما لامرئ عمّا قضى الله مهرب ولا لقضاء الله نقض ولا فسخ[2]

فالبيت مستوحى من عجز بيت كعب بن زهير في بردته حيث يقول:

فقلت خلّوا طريقي لا أبا لكم فكلّ ما قدّر الرّحمن مفعول[3]

ويبرز التأثر جليّا حين يصف فاتنته بعدم إخلاف الوعد وعدم التغيّر فيقول :

منحتك ما منعتك يقظانا فلم تخلف مواعدهـا و لم تتغيّر

فعجز البيت مأخوذ من قول كعب بن زهير حيث يصف سعاد وقد أخلفت و بدّلت وتغيّرت من حال إلى حال فأصبحت مواعيدها باطلة كمواعيد عرقوب.

لكنّها خلّة قد سيط من دمها فجع وولع و إخلاف وتبديل

---

[1] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 50 و انظر رفع الحجب المستورة ج 2 ص 181.

[2] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 105.

[3] – السّكري الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله: شرح ديوان كعب ابن زهير، مصر القاهرة دار القومية للطّباعة والنشر ط/ 1 – 1950 ص 19.

فما تدوم على حال تكون بها كما تلوّن في أثوابها الغـــول

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ومـــا مواعيدها إلاّ الأباطيـــل[1]

لقد كان الشاعر إذا مطّلعا إطّلاعا واسعا على الشّعر العربي في جاهليته وإسلامه فهو يستعمل لغتهم ويسلك سبيل أسلوبهم بل وقد ينفخ روح القصيدة الغزلية في قصيدة الشوق والحنين محتفظا بالشكل والوزن والقافية.

فلقد تأثّر الشاعر مرّة أخرى بقصيدة ذي الرّمة التي تغزّل فيها بمعشوقته صيداء والتي لم يجد إليها من سبيل، فأصبحت الحياة بعدها الموت، فراح يقف بأطلالها دعيا لها _ و فاء لذكرياتها في نفسه_ بأن يسقيها سحاب لا يخلف وعده، يهزم فيه الرّعد، ويلمع البرق كأنّه يلوح من بطون خيل بلق تدفع عنها أمهارها بأرجلها.[2]

لعمرك ما أشواني البين إذ غدا بصيداء من الوصل جامـــح

ولم يبق ممّا كان بيني و بينها من الو دّ إلاّ ما تجنّ الجوانـــح

وما ثغب باتت تصفّقه الصّبا قرارة نهي أتأقتـــه الرّوائـــح

أصيداء هل قيظ الرّمادة راجع لياليه أو أيّامهنّ الصّوالـــح

هزيم كأنّ البلق مجنوبـــة بـــه يحامـــين أمهـــارهنّ روامـــح

إذا ما استدرّته الصّبا وتذاءبت يمانيـــة تمـــوى الذّهاب المنائح

وإن فارقته فرّق المزن شايعت به مرجحنّـــات الغمام الدّوالح

سوء عليك اليوم انصاعت النّوى بصيداء أم أنحى لك السّيف ذابح

لقد حذا ابن خميس حذو ذي الرّمّة في قصيدته واقتضى أثره في قافيته، بيد أنّه قد تحوّلت عاطفة محبّ عاشق لمحبوبة فرّق البين بينهما، إلى عاطفة محبّ لمحبوبة ليست من الإنس، بل هي مسقط الرّأس إنّها تلمسان التي فارقها الشاعر فراح يبثّها أشواقه داعيّا لها_وفاء لذكرياته بين ربوعها بأن يجود عليها السّحاب الثّقال وترسى بواديها الرّياح لتلقّح أشجاره

---

[1] – المصدر نفسه ص: 08.

[2] – يوسف خليل:ذو الرّمة شاعر الحبّ والصحراء مصر دار المعارف سنة 1970 ص 118.

وأزهاره معبّرا عن شوق يطير له الفؤاد وتنسكب له الدّموع في مبالغة جعلت دمعه أغزر من الماء وشوقه أحرّ من النار.

تلمسان جادك السّحاب الدّوالح وأرست بواديك الرّياح اللّواقح
وسح على ساحات باب جبادها ملث يصافي تربها و يصافح
يطير فؤادي كلّما لاح لا مع وينهلّ دمعي كلّما ناح صادح
ففي كلّ شفر من جفوني ماتح وفي كلّ شطر من فؤادي قادح
فما الماء إلاّ ما تسحّ مدامعي وما النّار إلاّ ما تجنّ الجوانح
خليلي لا طيف لعلوة طارق بليل ولا وجه لصبحي لائح
كتمت هواها ثم برح بي الأسى وكيف أطيق الكتم والدّمع فاضح
فصرفي على تلك البساتين سارح وطرفي على تلك الميادين جامح[1]

كما تأثّر ابن خميس بجرير في قوله:

بان الخليط وبان قلبي إثره سحرا كما زعم الغراب الأسود[2]

ويقول جرير:

بان الخليط ولو طوّعت مابانا وقطّعوا من جبال الوصل أقرانا[3]

ويأخذ الشاعر صورة الأخطل حين يشبه البقر المتوحدة في المكان القفر، الموحش، الخال، وهي تبدو في تفرّدها ولمعانها كأنّها نجوم في سماء صافية الأديم حيث يقول:

فأصبح ما بين الكلاب وحابس قفارا، تغنيها مع الليل بومها

---

[1] عبد الوهاب بن منصور:م س ص 85-86.
[2] م ن ص 107.
[3] إليا حاوي: شرح ديوان جرير دار الكتاب اللبناني لبنان، بيروت ط/1 1982 ص 699.

كما يدعو أبو نواس إلى شرب الخمر معتّقة صفراء تبعد الرّوح عن الجسد لحظة شربها ويحث على بذل المال من أجلها دون الخوف من فقر الغد، يقول :

دع ذا عدمتك واشربها معتّقة صفراء تفرق بين الرّوح والجسد

فاشرب وجد بالذي تحوي يداك لها لا تدّخر اليوم شيئا خوف فقر غد[1]

وتأثر الشاعر بالمتنبّي في قوله:

وتأنف الأرض مقامي بها حتّى تهاداني ظهور الرّحال

ثمّ قوله :

ومن العجائب أن أقيم ببلدة يوما وأسلم من أذى جهّالها

شغلوا بدنياهم أما شغلتهم عنّي؟ فكم ضيّعت من أشغالها[2]

وقد سبق إلى هذا المعنى المتنبي حيث ضاق به المقام ببلدة نخلة:

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهود

أمّا مدحه لبني العزفي وتشبيهه لهم بالرّوضات والمحامر التي تفوح ندّا.

و روضات آداب إذا تأرّجت تضاءل في أفياء أفنانها الرّمخ[3]

فلعلّ الشاعر مطّلع على قول كثير عزّة.

فما روضة بالحزن طيّبة الثّرى يمجّ النّدى جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزّة موهنا وقد أوقدت بالمجهر اللّدن نارها[4]

كما قلّد ابن خميس الشاعر أبا فراس الحمداني في أسلوبه ومضمونه في قصيدة حزينة شرّد عنه الكرى هديل حمام كلّما غفا و نام صاح الحمام كأنّه يشعر بحاله ويحمل من همومه فينوح عليه، فيزداد الشاعر بكاء و يقضي ليله نياحا و يطول الأسى بجفنيه وينفذ دمع عينيه يقول:

---

[1]- المرجع نفسه ص 256-257.

[2] عبد الوهاب بن منصور: م س 120.

[3] المقري: م س. ص 190.

[4] أبو الفضل إبراهيم: أمالي المرتضي، تحقيق مطبعة عيسى الحلبي سنة 1954 ج 1 221.

وممّا يشرّد عـــنى الكرى ∴ هديل حمام إذا نمت صاحا

ينوح عـــلي و أبـــى له ∴ فأقطع ليلى بكـــاء و نياحا

أعين أرحي أطلت الأسى ∴ عليك ومازدت إلاّ انتزاحا[1]

ويقول أبو فراس الحمداني في إحدى قصائد روملياته وهو يسمع حمامة تنوح، حيث راح يحادثها ويقابل تجلّده وعذابه بحزنها في حرّيتها وسلوّها.

أقول وقد ناحـــت قربي حمامـــة ∴ أيا جـــارتا هل تشعرين بحالي

معاذى الهوى ما ذقت طارقة النوى ∴ ولا خطرت منك الهموم ببالي[2]

كما تأثّر الشاعر كذلك ببعض شعراء الأندلس، فأخذ عنهم بعض الصّور والتّعابير، يقول في قصيدة يتشوّق فيها لبلدته تلمسان ويتذّكر معالمها الجميلة ومناظرها البديعة.

لساقية الرّومـــي عنـــدي مزيّة وإن رغمت تلك الرّوابي الرّواشح

فكم لي عليها من غدو وروحة تساعدني فيهـــا المنى و المنائـــح

فطرفي على تلك البساتين سارح وطرفي على تلك الميادين جامح

و إن أنس لا أنسى الوريط ووقفة أنافح فيها روضـــه وأنـــاوح[3]

ولعلّ هذا ما نجده عند ابن عيدون حيث يقول :

سقاها الحيا من معان حسان فكم لي بها من معان فصـــاح

وحلّى أكاليـــل تلـــك الرّبا ووشّى معاطف تلك البطـــاح

فما أنس لا أنس عهدي بها وجريّ فيها ذيـــول الـــمراح

ونومي على حبرات الرّياض تجـــاذب بـــردي مرّ الرّياح[4]

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 90.

[2] فؤاد افرام البستاني: الرّوائع: أبو فارس الحمداني- لبنان، بيروت، دار المشرق ط 2 عام 1981 ص 440-441.

[3] عبد الوهاب بن منصور: م س ص87.

[4]- جودت الركابي: في الأدب الأندلسي دار المعرف بمصر ط4 ص 325.

وتأثّر ابن خميس شاعر الموشّحات الأندلسية ابن سهل في قوله :

ما علمنا قبل ثغر نضّده أقحوانا عصرت منه رحيق[1]

ولئن سبق شعراء العصر الجاهلي إلى تشبيه الأسنان المنشقّة اللاّمعة بالأقحوان فإنّ ابن سهل زاد على تلك الصورة أنّ هذا الأقحوان ليس له مثيل لأنّ رحيقه خمر مسكرة.

بيد أنّ ابن خميس قد أضاف إلى الصّورة شيئا آخر عندما جعل اللّمى الجارية في الثّغر الناصع أزكى من الخمر وألّذ وأطهر للنفس لأنّها لم تعصر بالرجال فتدنّس وذلك في قوله :

نظرت إليك بمثـــل عيني جؤذر وتبسّمت عم مثل سمطي جوهر

عن ناصع كالدّرّ أو كالبرق أو كالطلـــع أو كالأقحوان مؤشر

تجري عليه مـــن لماها نطفـــة بـــل خمرة لكنّهـــا لم تعصـــر[2]

أمّا تأثّر الشاعر بابن حمديس الصقلّي فيبدو واضحا في صورة البرق الذي يغدو حساما يسلّ ثمّ يغمد في قوله من قصيدة يصف فيها مظاهر الطّبيعة.

بات يجتاب بإبكار الحيا بلدا يرويه من بعد بلـــد

كأنّ البرق فيها حاذق بضرام كلّما شبّ خـــمد

تارة يبدو و يختفي تارة كحسام كلّما سلّ غمد[3]

ويترل الشاعر بالصورة ذاتها من السماء إلى الأرض في بيتين من قصيدة يصف فيها قصرا وبستان، يتحول فيه الماء إلى سبائك فضّة تقذفه النّاعورة، سرعان ما يصير سيفا مشطّبا ألقته في ساحة الوغى كفّ جبان يهاب الكفاح.

والماء منـــه سبائك فضّـــة ذابت على درجات شاذروان

---

[1] – الدكتور إحسان عباس: ديوان ابن سهل الأندلسي، لبنان بيروت، دار صادر 1400هـ/1980م ص285.

[2] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 110.

[3] الدكتور إحسان عباس: ديوان ابن حمديس صححه وقدم له، لبنان بيروت، دار صادر 1379هـ/1996م ص118.

وكأنّما سيف، هماك مشطّب ألقته يوم الحرب كفّ جبان[1]

استهوت هذه الصورة الشاعر ابن خميس فأخذ من الأبيات الأولى البرق والحسام و من البيتين الآخرين الحرب و الجبان و ألّف بينهما فإذا الصورة حيّة أكثر وأسرع بما أفضى عليها من الهيبة والتر دّد ليثير فينا الإعجاب والازدراء في آن واحد:إعجاب بحسام صارم متألّق لامع برّاق وازدراء لصاحبه الخائف المتر دّد الجبان ومع هذا الإعجاب ونشوة الصّمود في التضحية يكاد الوجه ينبسط عن ضحكة صغيرة من هذا الغمر الذي يحرّك يده الحسام تحت ضربات السّيوف ووجس الخوف.

أطار فؤادي برق ألاحا فما (هزّ)بعد لو كرّ جناحا

كأنّ تألقه في الدّجـــا حسام جبان يهاب الكفاحا[2]

ويتنقّل ابن خميس إلى ابن خفّاجة حين يمشي وحيدا في دياجي الفيافي لا جار له ولا رفيق إلاّ حسام قاطع ولا دار إلاّ دابته التي يمتطيها.

وحيدا تهاداني الفياضي فأجتلي وجوه المنايا في قناع الغياصب

ولا جار إلاّ من حسام مصمّم ولا دار إلاّ من قتود الرّكائب[3]

ويقول ابن خميس في هذا المعنى حين يتشوّق إلى ديار بلدته ويتذّكر أيّامه بها عندما كان يطرقها ليلا ويطوفها وحيدا،لا صاحب له إلاّ حسام قاطع وفرس يركبهفي جنح اللّيل.

ولم أطرق الدّير الذي كنت طارقا بليل وبدر الأفق أسلغ مـــسناء

ولا صاحب إلاّ حـــسام ولـــهذم وطرف لخدّ اللّيل من كان وطّاء[4]

---

[1] فؤاد إفرام البستاني: الروائع، ابن حمديس منتخبات شعرية ط 2 1982 منشورات دار المشرق بيروت ص 447 الشاذروان:آلة رفع المياه، الناعورة.

[2] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 89.

[3] كرم البستاني: ديوان ابن خفاجة دار بيروت للطباعة والنشر عام 1986 ص 42.

[4] عبد الوهاب بن منصور: ص 64.

كما يبدو التأثر جلّيا حين يشبه سادة بني العزفي الأوائل بروضات آداب تفوح منها رائحة طيّبة ويصغر في ظلّ أغصانه الشّجر الملتّف الكثيف وحين يجعلهم مجامر عود الندّ يتبخّر في حدائق نرجس فتسطع رائحته من دون أن تحرق أو تثير دخانا حيث يقول:

وروضات آداب إذا ما تأرّجت تضاءل في أفياء أفنانها الرّمخ

مجامر ندّ في حدائق نرجس تنمّ ولا لفح يصيب ولا دخّ[1]

فهو إذن لا محالة آخذ ذلك من قول صاحبه عبد المهيمن الحضرمي حين مدح ابن الحكيم اللخمي ذي الوزارتين فقال:

ولا روضة بالحسن طيبة الشّذا ينمّ عنها أبخر وجليل

وقد أذكيت للزّهر فيها مجامر[2] تعطّر منها للنسيم ذيول[3]

وينقلها ابن خميس ونحن نقتفي تأثره ونعدّ قبساته إلى ابن الآبار حين يمدح أبا زكرياء الحفصي سنة 635هـ بعد ضياع بلنسية يستنهضه فيها لاستنقاذ الأندلس في قصيدة مطلعها.

نادتك أندلس فلبّ نداءها واجعل طواغيت الصّليب فداءها

إلى أن يقول:

أبقى أبو حفص إمارته له فسما إليها حاملا أعباءها

كالطّود في عصف الرّياح وقصفها لارهوها، يخشى ولاجاءهها

كالغيث صبّ على البسيطة صوبه فسقى عمائرها وجاد قواءها[4]

---

[1]- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة م س، ج2 ص228.

[2]- المجمر: العودالذي يتجمّر به وما أشبهه، والمجمر الذي يجعل فيه النّار. كتاب الأضداد تأيف محمد بن قاسم الأنباري- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية- صيدا بيروت سنة 1407هـ 1987م ص420.

[3]- محمد أبو الفضل إبراهيم: أمالي المرتضي تحقيق - مطبعة عيسى الحلبي سنة 1954م ج/1 ص221.

[4]- د: عبد السلام الهرّاس: أبي عبد الله محمد ابن الآبار القضاعي البلنسي - قراءة وتعليق - ديوان ابن الآبار- تونس- الدار التونسية للنشر- الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية-ط/3- ص38.

ويقول ابن خميس في قصيدته التي يمدح فيها السلطان محمد الثالث النّصري، مشيدها ممدوحه بالطّود العظيم في رصانته ورزانته.

طود الرّصانة والرّزانة والحجا بحر النّدى المتلاطم الأمواج

أبقى أبو عبد الإلـــه محمـــد ما شاد والده أبو الحجـــاج[1]

ويقول في قصيدة أخرى يمدح فيها ابن الحكيم ويشبهه بالغيث الذي يترل فلا يترك مكانا إلاّ وصبّ عليه آخذا من معنى البيت الثالث لابن الآبار.

وهمى على عال ومنخفـــض لم يبق فوق لا، ولا تحـــت[2]

الصّنعة الفنّية:

إنّ الدّارس لشعر ابن خميس تستهويه تلكالصّنعة الفنّية التي استخدمها الشاعر من ألوان البديع وصور البيان، ولعلّ روايته للشّعر وتضلّعه باللّغة العربية وطّلاعه على علم البلاغة والعروض قد سمح له أن يكون مولعا بالبديع بارعا في البيان. وهو نفسه يذكر في شعره جملة من المصطلحات البلاغية تؤكّد اطّلاعهتمكّنه من هذا العلم حيث يقول في قصيدته التي مطلعها:

سحت بساحك يامحلّ الأدمع وتضرّمت أسفا عليك الأضلع

إلى أن يقول:

كلّ لـــه شرع البيـــان محلّل المنكـــر في مثـــل هذا مدفع

حيث ازدهت أنوار كلّ حديقة أدبـــا ينظم تـــارة و يسجّع

فمر جّل من رقمها و مهلـــل ومسمّط[3] من نظمها ومصرّع[4]

---

[1]- عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر ابن خميس، ص80-81.

[2]- المرجع نفسه ص75.

[3] التسميط : هو أن يجعل الشاعر كلّ بيت بسمطه أربعة أقسام، ثلاثة منها على سجع واحد بخلاف قافية البيت -انظر السيّد أحمد الهاشمي - جواهر البلاغة في المعاني و البيان و البديع - دار الكتب العلمية - ط - 6- ص 331.

[4] التصريع هو مقابلة كلّ لفظة في صدر البيت بلفظة على وزنها و رويّها أنظر - عبد العزيز عتيق علم البديع -دار النهضة العربية للطّباعة و النشر 1974 ص 231

أبدى البديع بها بدائع صنعه فمجنّس ومبدّل ومرصّع[1]

وموشّح[2] ومرشّح ومصدّر ومكرّر[3] ومفرّع[4] ومتبّع[5]

كل يروق بها بحسن رواية و إذا تزيّن به كلامك تبرع

توحي هذه الأبيات للقارئ لأوّل وهلة بأنّ الشاعر كان يستخدم البديع عمدا وتكلّفا، ممّا يؤثّر على معانيه وصوره، بيد أنّ هذا لم يقع فالشاعر يصطفي من لغته ما يوافق غرضه، و ينتقي من ألفاظه ما يناسب معانيه، ولقد كان كما وصفه ابن خلدون : « لا يجارى في البلاغة والشّعر[6] » وكما نعته ابن الخطيب : «قائما على صناعة العربيّة والأصلين، طبقة الوقت في الشّعروفحل الأوزان في النّظم المطوّل، أقدر النّاس على اجتلاب الغريب، ومزج الجزالة بالسّلاسة، ووضع الألفاظ البيانية مواضعها شديد الانتقا والإرجا ».[7]

فبالإضافة إلى الغريب الذي استعمله الشاعر و الاقتباس من القرآن الكريم، الذي سبق أن أشرنا إليه فإنّ شعره يتميّز بركة المحسّنات اللّفظية والمعنوية خاصّة الطّباق والجناس حيث لا تخلو قصيدة منهما.

وسنحاول أن نقف على بعض النّماذج من هذين المحسّنين من خلال بعض قصائده التي حفلت بهما.

---

[1] الترصيع هو مقابلة آخر جزء من البيت و آخر جزء من عجزه في الوزن و الرّوي و الاعراب أنظر م ن ص 328

[2] التوشيح : هو أن يأتي الشاعر بلفظة لضرب من المحاسن حتّى يأتى بلفظة ترشحها لذلك،

[3] التكرير :هو أن يكرّر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ و المعنى لتأكيد الوصف أو المدح أو الذّم.

[4] التفريق : هو أن يصدر الشاعر كلامه باسم منفي بها خاصّة ثمّ يصف ذلك المنفي بأحسن أوصافه المناسبة للقيام مدحا أو نمّا – أنظر أحمد الهاشمي م س ص 302

[5] التّتبيع هو أن يأتي المتكلّم إلى معنى اخترعه غيره فيحسن اتّباعه فيه بحيث يستحقه بوجه من الوجوه.

[6] ابن خلدون – كتاب العبر ج 7 ص 832.

[7] لسان الدين بن الخطيب – م س ج 2 ص 536.

الجناس :

ففي قصيدته الهمزية "حنين إلى تلمسان"و التي يتشوّق فيها إلى بلدته و يمدح فيها صديقه ابن الحكيم يتجلّى الجناس في الأبيات الآتية :

وإنّي لأصبو للصّبا كلّما سرت ... وللنّجم مهما كان للنّجم إصباء

وكم قائل تفنى غراما بحبها ... وقد أخلقت منها ملاء و أملاء

وكم أرجفوا عيظا بها ثمّ أرجأوا ... فيكذب إرجاف ويصدق إرجاء

فيا مترلا نال الرّدى منه ما اشتهى ... ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء

أما آن أن يحمي حماك كعهده ... وتجتاز أصحاب عليه أحماء

إذا منشد لم يكن عنك و منشي ... فلا كان إنشاء ولا كان إنشاء[1]

ففي كلّ بيت من أبياته جناس، فقد جانس في الأوّل بين الصّبا والإصباء، وفي الثاني ملاء وأملاء، و في صدر الثالث أرجفوا و أرجأوا، وفي عجزه نجد إرجاف وإرجاء، وفي البيت الرّابع نجد الإنس و إنساء، وفي الخامس يحمي حماك وأحماء،و في البيت السّادس نجد في صدره منشد ومنشي وفي عجزه إنشاد وإنشاء.

لقد كان الشاعر مولعا بالجناس، مدفوعا إليه كأنّما يبحث عنه ليزيد موسيقى قصيدته جرسا عذبا ينضاف إلى قافية الحاء التي اختارها مع تدفّق للشّوق، والحنين المصبوغ بألم التشكي والحزن يقول :

تلمسان جادتك السّحاب الدّوالح ... وأرست بواديك الرياح اللّواقع

وسح على ساحات باب جيادها ... ملث يصافي تربها ويصافح

يطير فؤادي كلّما لاح لامع ... وينهلّ دمعي كلّما ناح صادح

بحكما كفّا الملام و ساعدا ... فما الخلّ كلّ الخلّ إلاّ المسامح

ولا تعذلاني و اعذراني فقلّما ... يردّ عناني عن علية ناصح

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 63 –67.

لساقية الرّومي عندي مـزيّة وإن رغمت تلك الرّوابي الرّواشح

فكم لي عليها من غدو و روحة تســاعدني فيها الــمنى والمنائح

ظياء مغانيها عواط عواطف وطير مجانيها شــواد صــوادح

على قرية العبّاد منّي تحيّة كما فاح من مسك اللّطيمة فائح

إليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكــنّ الجســوم نوازح

مطلاّ على ذلك الغدير وقد بدت لإنسان عيني من صفاه صفائح

وإن كان مهرى في تلاعك سانحا فذاك غــزالي في عبابك سابح

قراح غدا ينصبّ من فوق شاهق بمثل حلاه تستحــث القرائح

لبعت رشادي فيه بالغيّ ضلّة وكم صالح مثلي غدا وهو طالح

وأي مقام ليس لي فيه حاسد وأي مقال ليــس لي فيه قادح

ألا قل لفرسان البلاغة أسرجو فقد جاءكم منّي المكافي المكافح

تركتك سوق البزّ [1] لا عــن وكيف؟ وطبي سانح فيك سارح

وإني وقلبي في ولائك طامــع وناظر وهمي في سماطــك طامح

وهل ذلك الظبي النصاحى للذي يقطع من قلــبي بعــينه ناصح [2]

ففي كلّ بيت ذكر الشاعر جناسا إمّا ناقصا أو جناس اشتقاق نذكرهم على الترتيب :الدّوالح واللّواقح- يصافي ويصافح، لاح وناح، سامحا والمسامح، تعذلاني وتعذراني، الرّومي والرّوابي المنى والمنائح، عواط وعواطف، فاح وفائح، نوازع ونوازح، صفا وصفائح، سانحا وسابح، قراح وقرائح، صالح وطالح، لاح وناح، المكافى والمكافح، مقام ومقال، سانح وسارح، طامع وطامح، النصاحى وناصح.

---

[1] سوق البزّ : هو سوق القيسارية.

[2] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 88.

كما استعمل في نفس القصيدة الجناس المحرف أو النّاقص في قوله:

فطرفي على تلك البساتين سارح وطرفي على تلك الميادين جامح

فقد جانس بين الطّرف بفتح الطاء وهي العين والطرف بكسر الطاء وهي الكريم من الخيل[1] وكذلك نجد هذا النوع من الجناس في قصيدته "نصيحة مشفق" حيث يقول :

وإن ناب خطب أوتفاقم معضل تلقاه منهم كلّ أصيد ناب[2]

فقد جانس بين الفعل ناب بمعنى أصاب والاسم النابي وهو المتجافي في نظره عن القوم.

ويقول في نفس القصيدة:

وهيهات من بعد الشباب و شرخه يلذّ طعامي أو يسوغ شرابي

إذا كعّت الأبطال عنه تقدّموا أعاريب غرّ في متون عراب[3]

وكانت على الأملاك منه وفادة إذا آب منها آب خير مآب

فمر بزجيها حواسر ضلعا بما حملوها من منى ورغاب

فتلك عتادي أو ثناء أصوغه كدرّ سحاب أو كدر سخاب

فقد جانس في البيت الأوّل بين الشباب و شراب، وفي البيت الثاني بين أعاريب وعراب وفي البيت الثالث بين آب ومآب وهو جناس اشتقاق، وفي البيت الرّابع بين الحرف من والاسم منى وفي البيت الخامس بين سحاب و سخاب.

وكذلك نجد الجناس الناقص وجناس الاشتقاق في قصيدته وبابن رشيد تعوّدت التي مدح فيها الرّحالة المغربي العظيم والأديب الألمعي الكبير أبي عبد الله بن رشيد السّبتي والتي يذكر فيها أحواله مستهلّها بقوله:

---

[1] طاهر توات: م س ص 198.

[2] الأصيد : من يرفع رأسه متكبّرا.

[3] كعّ : ضعف و جبن، الخيل العراب : هي الكريمة السالمة من الهجنة.

أطار فؤادي برق ألاحا فما هزّ بعد لوكرّ جناحا

إلى أن يقول:

وأيقظ روض الرّبا زهره فحيّا نسيم صباه الصّباحا

أحنّ إليك إذا سفت ريحا وأبكى عليك إذا ذقت راحا

فسل كيف كان خلاصي من إسارهم؟ أسرى أم سراحا

وإنّي على فيح ما بيننا لأتبع ذاك الشّدا حيث فاحا

أحنّ إليه حنين العجول ونوح الحمام إذا هو ناحا

وما أنا بعد نهي النّهى فما زادني الطبع الاّ جماحا

نجد الجناس في البيت الأول بين صباه والصباحا وفي البيت الثاني بين ريح وراح وفي البيت الثالث بين إسارهم و أسرى وسراحا وفيالبيت الرّابع بين فيح وفاحا وفي الخامس بين أحنّ وحنين وبين نوح وناحا وفي السّادس بين نهي والنّهى.

كما أتى الشاعر بالألفاظ الغريبة، وبالجناس المضارع والمطلق في آن واحد[1] وذلك في قوله:

العشي تعيا والنّوابغ عن شكر أنعمك السّوابغ

ورسائل ابن كماشة مع كلّ بازغة وبـــازغ

تأتي بما تهوى النّـــغا نغ من شهيات اللّغالغ[2]

فقد جانس بين النّوابغ و السّوابخ وبين النّغانغ واللّغالغ.

---

[1]- طاهر توات: ابن خميس شعره ونثره، م س. ص 199

[2] المقرّي: م س ج 7 ص 282.

الطّباق:

إنّ شعر ابن خميس يزخر بالطّباق خاصّة طباق الإيجاب وسنحاول أن نقف على بعض النماذج من هذا الاستعمال الذي يجلّى ثقافة الشاعر وتلّعه باللّغة، وقدرته على النّظم البديع ففي قصيدته الهمزية نصيحة مشفق، يقول :

لعـشره أعوام عليها تجرّمت ... إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء[1]

وكم أرجفوا عيظا بها ثمّ أرجأوا ... فيكذب إرجاف ويصدق إرجاء[2]

وهل للظى الحرب التي فيك تلتظى ... إذا ما انقضت أيّام بؤسك إطفاء

فما فاتها منّي نزاع على النّوى ... و لا فاتني منها[3] على القرب إجشاء

وبوّأني من هضبـة العزّ تلعة ... يناجى السّها منها صعود وطأطاء

سراع لما يرجى من الخير عندهم ... ومن كلّ ما يخشى من الشرّ أبراء[4]

فقد طابق الشاعر في البيت الأول بين القيظ و الإهراء، وفي البيت الثاني طابق بين يكذب ويصدق أما في البيت الثالث فطابق بين تلتظى وإطفاء، وفي البيت الرابع طابق بين النّوى والقرب، وفي الخامس طابق بين صعود وطأطاء، وفي البيت الأخير طابق بين الخير والشّرّ و في قصيدته الحائية يطير فؤادي التي يقول فيها :

فما الماء إلاّ ما تسحّ مدامعي ... وما النّار إلاّ ما تجنّ الجوانح

فكم لي عليها من غدو وروحة ... تساعدني فيها المنى و المنائح

لبعت رشادى فيه بالغيّ ضلة ... وكم صالح مثلي غدا وهو طالح

أيحمل ذكرى عندهم وهو نابه؟ ... ويغمط شجوي عندهم وهو شائح[5]

---

[1] يشير بالأعوام العشرة إلى مدّة الحصار الذي ضربه المرينيون على تلمسان وتجرّم العام : انقضى، والقيظ : شدّة الحرّ والاهراء : شدّة البرد.

[2] الارجاف : الأخبار السيّئة التي يراد بها تهييج الناس والارجا : التأخير

[3] هكذا في المنتخب النفيس أما في الإحاطة (منه)

[4] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 63-64-65-66.

[5] م ن ص 85-86-87.

لقد طابق الشاعر في البيت الأوّل بين الماء و النّار، وفي البيت الثاني بين الغدو والرّواح وفي الثالث بين صالح وطالح وفي الأخير بين الخمول والنّباهة.

أمّا في قصيدته التي قدّم فيها نصيحة مشفق، بصير بالأمور، طويل المراس، حيث وجد نفسه قد خدع بالعيش كما يخدع العطشان عند رؤيته في الأفق سرابا يلمع كأنّه الماء حتّى إذا جاءه لم يجده شيئا فقد طابق بين معنين حيث يرى غيره أنّ هذا العيش عسلا مصفّى بينما يعتقد الشاعر أنّه سمّ ناقع قد مزج بعصارة الصّاب المرّة يقول :

خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصّادى بلمع سراب

تقول هو الشّهد المشور جهالة وما هو إلاّ السّمّ شيب بصاب[1]

ثمّ يضرب للناس مثلا عن الدّنيا وما فعلته بجسّاس شاعل نار حرب البسوس، مبيّنا ماخلّفته من مآسى وأحزان.

تراءت لجسّاس[2] مخيلة فرصة تأتّت له في جيئة وذهاب

فجاءت بها شوهاء تنذر قومها بتشييد أرجام وهدم قباب[3]

فقد طابق في البيت الأوّل بين جيئة وذهاب وفي البيت الثاني بين تشيد وهدم، ثمّ يقول متأسّفا علىشباب قد أفل وشيب أطلّ :

وما أسفى إلاّ شباب خلعته وشيب أبى إلاّ نصول خضاب[4]

فقد طابق بين الشباب والشيب.

ويقول في قصيدته التي مدح فيها ابن رشيد السّبتي ذاكرا أحواله معبّرا عن أشواقه مبيّنا سبب جلائه من بلدته.

ولو لا توقّد نار الحشا لأ نفذت ماء جفوني امتياحا

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 68.
[2] جسّاس بن مرّة قاتل كليب التغليدي.
[3] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 69.
[4] م ن ص 71.

وسواد طرّته كجنح ظلامها وبياض غرّته كضوء هلالها[1]

وفي نفس البيت نجد الشاعر قد استعمل محسّنا لفظيّا غالبا ما يلجأ إليه وهو الموازنة، حيث نجد الموازنة بين جميع ألفاظ الشّطر الأوّل وما يقابلها من ألفاظ الشّطر الثاني والموازنة أصلا « هي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية »[2].

و يقول في قصيدته (عاهد أنس عطّلت) متذكّرا أترابه و أقرانه من إخوان وأصدقاء واصفا وإيّاهم بالحسن و الجمال خلقة و العلم و الورع خلقا، ثمّ يصف حال بني زيان و هم محاصرون من طرف المرينين و ذلك بعد أن شتتوا شمل الرّعية كبرا و تعجرفا.

و إخوان صدق من لداتي كأنهم جآذر رمل لاعجاف و لا بزخ
و عاة لما يلقى إليهم من الهدى وعن كلّ فاحشة ومنكرة صلخ
كأنّكم من خلفها و أمامها أسود غياض و هي ما بينكم أرخ
كأنّ تحتها من شدّة القلق القطا و من فوقها من شدّة الحذر الفتخ
فماذا عسى نرجوه من لم شعثها؟ وقد خرّ منها الفرع و اقتلع الشلخ
و لما استقلّوا من مهاوي ضلالهم و أوموا إلى أعلام رشدهم رخوا[3]

فقد طابق الشاعر هنا بين عجاف وبزخ وبين خلفها وأمامها وكذلك بين أسود غياض وأرخ ثم قابل الشاعر في البيت الثالث بين الشطر الأوّل والشطر الثاني فهي من شدّة القلق كطائر القطا.

ومن شدّة الخوف والحذر كطائر الفتخ وهو من العقبان الليّنة الجناح، كما طابق بين الفرع والأصل وبين ضلالهم ورشدهم.

---

[1] عبد الوهاب بن منصور:م س. ص 117-119 وأنظر الإحاطة في أخبار غرناطة ج ص 554-556 وكذلك نفح الطيب ج7 ص 117.

[2] عبد العزيز عتيق: علم البديع دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1974 ص229.

[3] عبد الوهاب بن منصور: م س. ص 98-99-100 اللدة : الترب – العجف : العزال – والنزخ : خروج الصّدرو دخول الظهر والأرخ : الذكر من البقر.

ثم ينتقل الشاعر إلى مدينة سبتة فيمدح ملوكها وأمراءها بني العزفي معتمدا على التشبيه مستعملا الطباق كعادته، يقول فيهم بعد أن أعجب ببلدتهم التي تمنّى الإقامة فيها.

تركت لميناء سبتة كلّ نـــجعة كما تركت للمعزّ أهضامها شمخ[1]

كواكب هدي في سماء رئاسة تضيء فما يدجو ظلال ولا يطخو

ثواقب أنوار ترى كلّ غامض إذا النّاس في طخياء غيّهم التـــخو

إذا ما بدا منّا جفاء تعطّفـــوا علينا و إن حلّت بنا شدّة رخـــوا

نزورهم حـــذّا نحافا فننثـــني وأجمالنـــا دلح و أبدانـــنا دلـــخ[2]

لقد طابق الشاعر في البيت الأوّل بين أهضام وشمخ، كما قابل في البيت الثاني بين كواكب الهدي التي تضيئ وبين فما يدجو ضلال ولا يطخو، وقابل بين صدر البيت الثالث وعجزه عندما جعل ممدوحيه نجوما تثقب بنورها كلّ شيء فلا تترك شيئا غامضا ولا مسألة مبهمة، بينما النّاس في ظلمات ضلالهم يتخبطون، وكذلك قابل في البيت الرّابع بين إبداء الجفاء والصدود عن ممدوحيه بينما هم يقابلون ذلك عطاء و إغداقا. ويواصل الشاعر المقابلة في نفس المعنى عندما يزورهم سريعين بسبب نحافتهم و هزالهم ثم يرجعون متباطئي الخطوات سميني الأبدان بما نالوا من كرم ومتاع. وقد جانس الشاعر في نفس البيت بين دلح ودلخ.

وكعادته يلجأ الشاعر أحيانا إلى ضرب المثل بقصّة يوردها أو حادثة يسقوقها ليستدل على فكرته، يقول متحدّثا عن النعمان بن امرئ القيس باني الخورق:

فأصبح يجتاب المسوح زهادة وقد كان يؤذي بطن أخمصه النتخ[3]

فكان له من قلبها الحبّ والهوى وكان لها من كفّه الطّرح والطّخ[4]

---

[1] الأهضام : جمع هضم : بطن الوادي و كلّ مطمئن من الأرض – و الشمخ : البعيد المرتفع

[2] عبد الوهاب بن منصور:المنتخب النفيس ص 101-102. الأحذ: السريع والدلح: إنقباض الخطو من الثقل والدلخ: السمن.

[3] النخ : البساط الطويل.

[4] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس ص 104 – الطخ : الرمي و الإبعاد.

فاللّفظان الملحقان بالمتجانسين جمعها الاشتقاق وقد ورد أحدهما في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأوّل واللّفظان هما أرجأو وأرجاء.

ويقول متحدّثا عن داره الأولى:

أما آن أن يحمى حماك كعهده وتجتاز أصحاب عليه أحماء[1]

فاللّفظان الملحقان بالمتجانسين جمعهما شبه الاشتقاق ورد أحدهما في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأوّل فاللّفظ حماك الوارد في حشو المصراع هو بمعنى ما يدافع عنه ويمنع مشتق من الفعل حمى حميّا و حماية الشيء من الناس منعه عنهم ولفظ أحماء في آخر البيت هو جمع حميم وهو المخلص في صداقته.

وقد يخرج الشاعر عن هذا المألوف عند البلاغيين فيضيف نوعا جديدافي التّصدير عندما يجانس بين الكلمتين في نفس الصدر إحداهما في آخره والأولى في حشوه وكذا الأمر في عجزه إحداهما في آخره والأولى في حشوه.وهذا ما يتجلّى في آخر بيت من همزيته حيث يقول :

وإذا منشد لم يكن عنك منشي فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء

فالكلمتان المتجانستان الأولتان هما منشد ومنشي ذكرت الأولى في حشو الصّدر وذكرت الثانية في آخره والكلمتان المتجانستان الثانيتان هما إنشاء وإنشاد ذكرت الأولى في حشو العجز وذكرت الثانية في آخر العجز.

ولعلّ هذا ما يبرهن مرّة أخرى على بلاغة الشاعر وتمكّنه من اللّغة وقدرته على الابتكار في الصنعة اللفظية.

وفي هذا المجال دائما نجد الشاعر في قصيدة أخرى يستعمل التصدير كمحسّن لفظي وذلك في قصيدته وبابن رشيد تعوذت يقول:

ومما يشرّد عنى الكـــرى هديل حمام إذا نمت صاحا

ينوح علي و أبكي لـــه فأقطـــع ليلي بكـــا و نياحا

[1] م ن ص 65.

أباحوا حماي و كم مرّة حميت حمى عرضهم أن يباحا[1]

ففي البيت الثاني نجد اللفظين الملحقين بالمتجانسين قد جمعهما الاشتقاق أحدهما في آخر البيت والثاني في صدر المصراع الأول وهما ينوح ونياحا.

أمّا في البيت الثالث فنجد لفظ أباحوا في صدر المصراع الأوّل ويباحا في آخر البيت ويقول متحدّثا عن قوم من البدو قد مرّ بهم أثناء رحلته من تلمسان إلى سبته :

وجواب بدو إذا استنبحوا أجابوا عواء وأمّوا النباحا[2]

فالشاعر هنا جانس بين استنبحوا في آخر الصدر والنباحا في آخر العجز وفي نفس الوقت جانس بين جواب في أوّل الصدر وأجابوا في أوّل العجز.

وقال الشاعر في قصيدة أخرى يمدح صديقه أبا عبد الله بن الحكيم:

كبت العدا إنعامك البغث فلي الهنا وللعدا الكبت[3]

فاللّفظان الملحقان بالمتجانسين يجمعهما الاشتقاق أحدهما في آخر البيت والثاني في حشو المصراع الأوّل، فلفظ كبت الوارد في حشو المصراع الأول هو فعل ماض بمعنى صرعه وأذلّه وأخزاه، ولفظ الكبت في آخر البيت هو اسم مصدر الفعل.

ويقول في نفس القصيدة مستعملا رد العجز على الصدر :

لا تحسبن البخت نيل غنى نيل الرضا منه هو البخت[4]

فاللّفظان المكرّران متفقان لفظا ومعنى أحدهما ورد في آخر البيت والآخر ذكر في حشو المصراع الأوّل واللفظ هو البخت بمعنى الحظّ والسّعد.

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 90.
[2] م ن ص 91.
[3] م ن ص 72.
[4] م نص 73.

التشبيه

تتجلّى براعة ابن خميس الصناعية في استخدام المحسّنات البديعية كالجناس والطّباق واستعمال الصور البيانية كالتشبيه الذي عني به كثيرا، وصبغه ببساطة شخصيته ومحيطه، فلم يحوّله إلى زخرفة فنّية متكلفة ،ولم يجنح فيه بخيال واسع إلى درجة التعقيد، بل غدا عنده صورة صادقة للطبيعة التي عاشها أو اطلع عليها من خلال ثقافته الواسعة، والتي وجد فيها المجال الفسيح الذي يتيح له اصطفاء عناصرها ليجعلها إطار لوحة تتجلى فيها صورته ،وتنعكس فيها نفسيته وانفعالاته، أو قد تسمح له بأن يشخّصها أو أن يبثّ الحياة فيها، فيجسّم معنى مجرّدا باستخدام الاستعارة أو التّشبيه.

فالتّشبيه مهمّة أساسية عند الشاعر تتمثّل في تجميل الصّورة، أو توضيحها، أو تحديد جوانبها، ويقوم إضافة إلى ذلك بنقل الإحساس بالطّبيعة ، أو التّشوّق للبلدة، أو التعلّق بالممدوح، أو الاعجاب بالمرأة.

ففي قصيدته "حنين إلى تلمسان"يدفعه الشّوق إلى أن يشخّص الرّيح فيسأله ،ويجعله رسوله الذي يأتيه بأخبار بلدته لذلك راح يحنّ إلى الصّبا كلّ يوم وينتظرها كلّما هبّت يقول:

سلّ الرّيح إن لم تسعد السّفن أنواء فعند صباها من تلمسان أنباء[1]

وفي قصيدة أخرى يسأل النّسيم والبرق عن حال صديقه ابن رشيد الذي راح يحنّ إليه حنين العجول وينوح عليه كلّما ناح الحمام.

أحنّ إليه حنين العجـــول ونوح الحمام إذا هو ناحا

وأسأل عنه هبوب النّسيم وحفق الوميض إذا ما ألاحا[2]

ثمّ يتصوّر بلدته محبوبة يهدي إليها كلّ يوم تحية معتقدا أنّها تبادله التّحيّة عند ردّها له.

وأهدي إليها كلّ يوم تحيّة و في ردّ إهداء التّحيّة إهداء[3]

يجمع التشخيص والتّخيل معا في بيت واحد فيصوّر خيالها شخصا يمرّ به، وفي مرّه شفاء له من حرقة شوقه.

لعلّ خيالا من لدنها يمرّ بي ففي مرّه بي من جوى الشّوق إبراء

---

[1] م ن. ص 62.
[2] م ن. ص 94.
[3] م ن. ص 62.

وذلك بعد أن شبّه مضجعه بالقتاد و السّلاء، فهو لم يعد ينعم بالنّوم والهناء، بسبب حبّه وتعلّقه ببلدته :

واستجلب النّوم الغرار ومضجعي قتاد كما شاءت نواها و سلاء[1]

ثمّ جعل ما أحلّ بها من محنة الحصار مرضا طال بها واشتدّ فأصابه من مثلها المرض والضّنى فاقتسماه معا.

ومن عجب أن طال سقمي ونزعها وقسم إضناء علينا و إطناء[2]

وشخّص الشاعر الدّهر في تشبيه تمثيلي حين يردّد الدهّر اسم بلدته كما ينطق الفأفاء حرف الفاء.

يردّدها عيّا بها الدّهر مثلما يردّد حرف الفاء في النطق فأفاء[3]

كماجسّد اللّيل في قصيدته وبابن رشيد تعوذت حيث استعار له من الإنسان لباسا يرتديه فبلي وتشقق حيث يقول:

وقد لبس اللّيل أسماله فمحت عليه بلا و انصياحا[4]

أمّا الرّوض فجعله يوقظ أزهاره من سبات ليل ليلقي نسيم صباه تحيّة زكيّة عطرة على صباح يوم جديد.

وأيقظ روض الرّبا زهره فحيّا نسيم صباه الصّباحا[5]

وعبّر في نفس القصيدة عن أحاسيسه وخلجات نفسه مستعملا التّشبيه التمثيلي كوسيلة للتوضيح وإجلاء ما تكنّ جوانحه من محبّة لصديقه ابن رشد وما يحمل فؤاده من تقدير واحترام لشخصه.

أطار فؤادي برق ألاحا فما (هزّ)لوكرّ جناحا

كأنّ تألّقه في الدّجا حسام جبان يهاب الكفاحا[6]

---

[1] م ن. ص ن.
[2] م ن. ص 63.
[3] م ن. ص 64.
[4] م ن. ص 89. محى الثوب : بلي وانصلح: تشقق
[5] عبد الوهاب بن منصور: م س ص 89.
[6] م ن. ص ن.

فالشاعر هنا يرسم صورة عظيمة عظمة الإطار الواسع الكبير مستعملا لونين فقط: لونا أسود قاتما ولونا فاتحا، لامعا متلألئ، حيث جعل سنا البرق المضيئ مترددا في صفحة اللّيل البهيم كسيف مقاتل جبان يخشى الإقدام فلا يتحكّم في قبضة سيفه المتذبذب.

ثم يمحو هذه اللوحة ليرسم صورة أخرى في نفس الإطار، وكأنّما يعرج بالصحراء إلى السّماء حين يجعل النّجوم وهي توشك أن تغيب كأنّها إبل وردت فرجعت رافعه رؤوسها مكدودة متعبة بعد أن كابدت مشقّة السّير الطّويل إلى أن أدركها الصبح طلاحا.

كأنّ النّجوم وقد غربت ... نواهل مـــاء صدرت قمـــاحا

لواغب باتت تجد السّرى ... فأدركها الصّبح روحى طلاحا[1]

أمّا في قصيدته اخترت قرب جواره التي مدح فيها السّلطان محمد النّصري بعد أن بيّن سبب تقربه منه وتركه كلّ من لا يخلص في صداقة ومن يزيد في الحديث ويكذب، فإنّه يستخدم التشبيه المرسل لذكر صفات ممدوحه الخلقية ومن حسن وجمال والخلقية من وجود وشجاعة حيث يقول :

واخترت قرب جواره لخلوصه ... وتركت كـــل مـــاذق مـــراج

طلق إذا احتلك الزّمان أنار في ... ظلمائـــه كالكواكب الوهّـــاج

طود الرّصانة والرّزانة و الحجا ... بحر النّدى المتلاطـــم الأمـــواج

وغمامه الهامي على آما لـــــه ... من غـــير إرعـــاد ولا إرعـــاج

وهز بر آجام القنى الضاري إذا ... سقطت عواقمها على الازجاج[2]

فقد شبّه ممدوحه بالكوكب المضيء في الظّلماء لطلاقة وجهه، ثم بالجبل العظيم الذي لايتزعزع قيد أنملة، وذلك في رصانته، ورزانته وعقله، وبالبحر الذي لاتنتهي أمواجه في جوده وكرمه وسخائه، وبالغمام الذي يجود بالغيث دون رعد ولابرق كناية عن سوّية جود ممدوحه وعدم منّه، ثم شبّهه بالأسد الضّاري في شجاعته.

كما استعمل التشبيه البليغ في وصف أسلاف ممدوحه السّابقين حيث شبّههم باللّيوث في المعارك تعبيرا عن شجاعتهم وقوّتهم وغلبتهم في الحروب.

أساس كلّ رئاسة و رؤوس كل ... ل سياسة وليوث كلّ هيّاج[1]

---

[1] م ن. ص ن.

[2] م ن. ص 80.

ثمّ ينهي قصيدته مفتخرا بيمانيته مشبّها مفاخرها الشهيرة بالصّبح المشرق .

ولنا مفاخر في القديم شهيرة كالصّبح في وضح، وفي إبلاج[2]

أمّا في قصيدته معاهد أنس عطّلت فيستعمل التّشبيه المرسل بكثرة مستخدما الأداة كأنّ أو مثل وأحيانا الكاف. ففي معرض رثائه لتلمسان شبّه معالمها التي خرّبت بألفاظ نسخت ثمّ يواصل توضيح فكرته فيشبّه أربعها التي درست كألواح قرّاء الكتاتيب حين يعروها اللّطخ يقول:

معاهد أنس عطلت فكأنّها ظواهر ألفـــاظ تعمّدها النّســخ

وأربع ألاف عفا بعض آيها كما كان يعرو بعض ألواحنا اللّطخ[3]

ولعلّ الشاعر هنا قد استمد معناه من قول ذي الرّمة:

كأنّ قراجرعا ئها ر جّعت به يهوديّة الأقلام وحي الرّسائـــل

إذ جعل ذوالرمة رسوم ديار محبوبته المنتشرة فوق الرّمال تبدو أمام عينيه كصحف قديمة من التوراة يجدّد اليهود كتاباتها.[4]

وهو في كلّ تشابيهه يستمدّ معانيه وصوره من معاني وصور الشعراء القدامى، الذين وقفوا على الأطلال،و تمتّعوا بمنظر حيوانات الصحراء .

حيث يشبّه نفسه وهو يعدو ويركض في عرصات بلدته لاهيّا كما يشرد الغزال الوليد، ثمّ يشبّه نفسه وهو رافع رجلا وماشيّا على أخرى كما يقفز فرخ الطّير استعدادا للمشي والطيران. يقول:

وإلاّ فعدوي مثل ما ينفر الطّـــلا وليدا وحجلي مثل ما ينهض الفرخ[5]

ثمّ ينقل من ثقافته الفارسية صورتين يشبه في إحداهما نفسه وهو يمشي في سماط بلدته مختالا في سعة وهناء كما يتحرك الزخّ وهو قطعة من الشطرنج.

أمّا في الثانية فيرى نفسه ملكا كأردشير بن مالك على كرسي عرش أكاسرة آل ساسان،ولكنّ الشاعر لا عرش له ولا تاج في تلمسان إلاّ ريعان الشباب،ولعلّه يرى في ذلك قمّة الملك حيث

---

[1] م ن . ص 81.
[2] م ن. ص 84.
[3] م ن. ص 96.
[4] د: يوسف خليف: ذو الرمة شاء الحبّ والصّحراء مصر- دار المعارف- 1980 ص 327.
[5] عبد الوهاب بن منصور المنتخب النفيس م س. ص 97.

يتمتع بمناظر بلدته ويستمتع بمرحة شبابه بعد أن حرم منها وصار بعيدا يحنّ إلى موطنه وشيخا يتأسّف على أفول صباه، يقول:

وإلاّ اختيالي ماشيًا في سماطها ... رخيًا كما يمشي بطرته الرّخ

كأني فيها أردشير بن بابك ... ولا ملك لي إلاّ الشبيبة والشرخ[1]

ثمّ يواصل تشبيهه المرسل حيث يصوّر أصدقائه من أترابه وأقرانه كأنهم جآذر حسنا وقدّا وجمالا، حيث يقول :

وإخوان صدق من لداتي كأنّهم ∴ جآذر رمل لا عجاف و لا بزخ[2]

ثمّ يهجو بني زيان و يتهكّم منهم وهم محاصرون في بلدتهم حيث صارت لهم سجنا طويلا، أو فخّا يكون فيه هلاكهم، فهم أمامها وأمام أهاليها أسود وهي بينهم ذكر البقر، أمّا أمام المحاصرين فهم فيها كطائر القطا قلقا وخوفا من العقاب الذي راح يحلّق فوقها.

كفاكم بها سجنا طويلا و إن يكن ... هلاك لكم فيها فهي لكم فيها فخّ

كأنّكم من خلفها و أمامها ... أسود غياض وهي ما بينكم أرخ

كأنّ تحتّها من شدّة القلق القطا ... ومن فوقها من شدّة الحذر الفتخ[3]

ثم يمطرهم بوابل من الصّفات القبيحة، فيجعلهم كالجماعة التي لا أصل لها، القاهرين للضعفاء، اللعكل واللّئام متى قبضوا كفّا كانوا سيّئي المعاملة والأخلاق.

زعانف أنكال لئام عناكل ... متى قبضوا كفّا على إثره طخّوا[4]

بينما يصبغ على ممدوحيه من أمراء بني العزفي صفات حسنة متعدّدة تترى باستعمال التشبيه البليغ.

وأملاكها الصّيد المقاولة الأولى ... لعزّهم تعوا الطّراخمة البلخ[5]

كواكب هدي في سماء رئاسة ... تضيء، فما يدجو ضلال ولا يطخو

ثواقب أنوار ترى كلّ غامض ... إذا النّاس في طخياء غيّهم إلتحوا

---

[1] م ن. ص ن.
[2] م ن. ص 98.
[3] م ن. ص 99.
[4] م ن. ص 100.
[5] المقاولة : لقب لملوك اليمن – الطّرخامة: الرؤوس

مجامر ندّ في حدائق نرجس تنمّ و لا لفح يصيب ولا دخّ
وأبحر علم لا حياض رواية فيكبر النّضح أو يعظم النّضخ[1]

فبعد أن نسبهم إلى أصلهم اليمني، ورفع شأنهم بمنزلة سامية في العزّ والجاه حيث يخضع لهم فيها كل الرؤساء والمتكبرين، راح يشبّههم بكواكب هدي تضيء لكل ضال، وثواقب أنوار تجلي كلّ غامض، و روضات آداب تفوح أريجا زكيّا، ومجامر ندّ تسطع رائحته دون حرارة ولا دخان، وأبحر علم لا ينبض ماؤها.

أما في قصيدته (من عاذري) التي مدح بها أبا زيان بن سعيد بن يغمراسن فإنّه يستهلّها بوقفة صوفية، معبّرا عمّا يختلج في نفسه من هموم وما يصيب عينيه من أرق لا يزول، مشبّها ما أرّقه بفتيلة أجّجت نار شوقه وأسالت دموعه في صحن خدّه، فصارت جوانحه نيرانا مذكاة وأدمعه منهملة كمصب الماء من عزلاء.

أرّق عيني بارق من أثال كأنّه في جنح ليل ذبال[2]
أثار شوق في ضمير الحشا وعبرتي في صحف خدّي أسال
جوانح تلفح نيرانها و أدمع تنهل مثل العزال[3]

وينحو الشاعر منحى آخر من البلاغة يوحي فيه بالتشبيه من غير أن يصرّح به في صورة من صوره المعروفة، رغبة في إخفاء التشبيه لأنّه كلّما دقّ وخفي كان أبلغ و أفعل في النّفس حيث يقول:

عتّقها في الدّف خمارها والبكر لا تعرف غير الحجال[4]

إنّ هذه الخمر قد عتّقها خمّارها في الدّن فهي أفضل و أجود لأنّ الفتاة البكر تلزم حجالها صونا وتحاظا عليها، فقد شبّه الشاعر ضمنا الخمر المعتّقة بالفتاة البكر التي لا تعرف غير الحجال.

---

[1] عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس ص 102.
[2] الذبال : ج ذبالة : الفتيلة : القاموس ج /3 ص 519
[3] عبد الوهاب بن المنصور: م س ص 114 – العزال : ج عزلاء : مصب الماء من الرواية ونحوها القاموس المحيط ج/ 3 ص 571.
[4] عبد الوهاب بن منصور: ص 114– الحجال: ج الحجل : ستر يضرب للعروس في جوف البيت. أنظر: الصّحاح مج/ 5 ص 1667.

وقد أكّد الشاعر هذا المعنى الأخير في قصيدته (مدامة حيدر) عندما دعا إلى تناول الحشيش وترك الخمر فشبّه مدامة حيدر بالبكر لأنّها مصونة محفوظة لم تمزج بماء و لم تعصر برجل أو يد كالخمر.

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر معتّقة خضراء لون الزّبـــر جد

هي البكر لم تنكح بمـــاء ســـــحابة ولا عصرت بالرّجل يوما ولا اليد[1]

ويبلغ الشاعر قمّة التّصوير في قصيدته (دمية من مرمر)حين يتّخذ من صيغ التشبيه مادّة يرسم بها صورة حيّة تتحقّق فيها جلّ عطرها الفنّية من لون وحركة وصوت، ليبثّ فيها مشاعر الفتنة و يحدّد أبعاد الشّغف بامرأة اجتمعت فيها مقاييس الحسن والجمال.

فتجلت نظرتها كنظرة ولد البقرة الوحشية، كاشفة عن ثغرها بابتسامة فتجلو أسنانها منتظمة كخيط الجوهر، ناصعة كالدّر، متلألئة كالبرق منضودة كالطّلع محدّدة الأطراف كزهر الأقحوان.

نظرت إليـــك بعـــيـــني جـــؤذر وتبسّمت عن مثل سمطي جوهر

عن ناصع كالدّرّ أو كالـــبرق أو كالطلع أو كالأقحوان مؤشـــر[2]

ثم يشبّه النجوم بحصباء الدّر والسّماء بالبساط الأخضر :

طرقتك وهنا و النّجوم كأنّهـــا حصباء در في بســـاط أخضـــر[3]

ويجنح الشاعر إلى المبالغة حيث يشبّه خدّها بالحديقة لا بل بالجنّة وريقها بماء كوثر عذبا سلسبيلا.

لو عجت طرفك في حديقة خدّها و أمنت سطوة صدغها المتـــــجبّر

لرقعت من ذاك الحـــمى في جنـــّة وكرعت من ذاك اللمى في كوثـــر[4]

ثم يبدع الشاعر صورة جديدة رائعة لا تنقص منها مبالغة مستحسنة، فهي بيضاء قد غشاها سواد شعرها الكثيف فإذا ما اعتكرته أصبحت أكثر إشراقا من الصّبح لا بل أزرت بإشراقه.

---

[1] عبد الوهاب بن المنصور: م س ص 109.

[2] أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، م س – ص280.

[3] م ن ص ن.

[4] م ن ص ن.

وأما إذا ما بدت في ثيابها البيض فهي فضّة أفرغت في قالب أو دمية من مرمر في حسن قدّها ورشاقة قوامها و بياض لونها.

بيضاء إذا اعتكرت ذوائب شعرها سفرت فأزرت في الصّباح المسفر

سرحت غلائلـــها فقلت سبيكـــة من فضّة أو دمية من مـــرمـــر

ويواصل الشاعر صورته قائلا:

منحتك ما منعتك يقظانافلـــم تخلف مواعيدها و لم تتغـــيّر

وكأنّما خافت بغاة وشاتهـــا فأتتك من أردافها في عسكـــر

و تحية جاءتك في طيّ الصـــبا وأذكر و أعطر من شميم العنـــبر

جرت على واديك فضل ردائها فعرفت فيهل عرف ذلك الأذخر

رحنا تغنّينا و نرشف ثغرمها والشمس تنظر مثل عين الأخزر

والروض بين مفضض ومعسجد والجو بين ممســـــك ومعطّـــر[1]

ومن مظاهر الافتنان والابداع الخروج عن المألوف والزيغ عماّ هو مستقرّ في النفوس، فالشيء يشبه دائما بما هو أقوى في المشبه، فاستعمل التشبيه المقلوب في مدحه لابن الحكيم حيث يقول:

يتضاءل الصبـــح المنـــير إذا لاقى سناه جبينـــك الصلـــت[2]

حتّى كأنّ شمس الضّحى قمر وكأنّ ضوء شعاعـــها فخـــت[3]

فهو يجعل من جبين صديقه ابن الحكيم نورا يتضائل أمامه سنا الصّبح المنير وتبدو الشمس حياله كقمر صغير، و ضوئها مثل ظل حسير.

فالشاعر لا محالة قد أخذ الصورة من ابن المعتز وزاد عليها، حيث يقول ابن المعتز:

والصبح في طرته ليل مسفـــر كأنّـــه غرّة مهر أشقـــر

فالمعروف في العرف أن تشبه غرّة المهر بالصبّح لأنّ وجه الشبه وهو البياض أقوى في الصبح منه في غرّة المهر، ولكنّ ابن المعتز وتفنّنا منه في التعبير ورغبة منه في المبالغة عكس القضية، وقلب تشبيه الصبح وبياضه بغرّة المهر، وذلك بادّعاء أنّ وجه الشبه أقوى وأظهر في غرّة المهر[4].

---

[1] م ن ص ن.

[2] الصّلت : الحبين الواضح المستوي. القاموس ج 1 ص 204

[3] عبد الوهاب بن المنصور:م س ص76. الفخت: ضوء القمر أو ظله.

[4]- ابن عبد الله شعيب: البلاغة العربية الواضحة علم البيان دار الهدى عين مليلة الجزائر د.ت ص36.

آخر زيادة على ما كان لها من موسيقى فردية »[1] ولعلّ الفارق الأساسي بين الشعر والنثر هو الموسيقى، وسبيل التمييز بينهما هو الأذن فالشعر يمتاز بزخرفة موسيقية تدركها الأذن قبل أن الفكر ما فيه من معان،[2] يقول إبراهيم أنيس : «للشعر نواح عدّة للجمال، لكنّ أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ، و انسجام في توالي المقاطع، وتر دّد بعضها بقدر معيّن وكلّ هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر[3] ».

« فالإيقاع المنغم المقسم في الشعر يجعله مصاحبا للتعبير الجسدي بالرّقص عن الانفعالات الحسّية، كما يجعله أقدر على تلبية التعبير الوجداني بالغناء ».[4] « وموضوع الشعر ووظيفته هو الغناء المطلق بما في النفس من مشاعر و أحاسيس و إنفعالات ».[5] و إنّما يعزى كثير من النقّاد ما في الشعر من سحر إلى سورته الموسيقية[6] و هو في معنى من معانيه موسيقى يقتصر أثرها على نغم و لحن.[7]

ترى أين تكمن الموسيقى الشعرية في نظم ابن الخميس؟ وفيم تتر دّد أجراسها وتتجلّى إيقاعاتها؟ لعلّ ذلك يبدو جليّا في العناصر الآتية :

1-استخدام الشاعر للمحسنات البديعية كالطباق، وأنواع الجناس المختلفة، والموازنة هي تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية، فيأتي صدر البيت الشعري متساوي الألفاظ وزنا، فيعتدل الكلام، ويكتسب طلاوة، ورونقا بالإضافة إلى استخدام التصدير وهو ر دّ العجز على الصدر حيث تتوافق الكلمتان فيهما إمّا تكرارا أو تجانسا اشتقاقيا أو شبه اشتقاقي، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الأنواع.

2- اختيار الألفاظ والكلمات ذات الجرس الموسيقي الحاصل نتيجة تلاؤم حروفها وائتلافها، وتوافق أصواتها، والذي بدوره سشكل جرسا للعبارات أي له علاقة بالموسيقى الدّاخلية في

---

[1] المرجع السابق ص 40.

[2] يحيى الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر قسنطينة ط/ 1 ص 293.

[3] م ن ص ن.

[4] السيد قطب: م س – ص 53.

[5] م ن ص 55.

[6] عزّ الدين اسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار العودة، دار الثقافة، القاهرة، بيروت،ط 1963 ص 64.

[7] – إروين إدمان: الفنون و الإنسان – تر : مصطفى حبيب دار مصر للطباعة ط د ت ص 58

القصيدة[1] فجمال الكلمات وقبحها ينشأ عن جرسها أو معناها[2] وخلوّها من تنافر الحروف وحسن الجرس هو الجمال الحسّي للألفاظ.[3]

3- اختيار القافية سواء من حيث الوزن أو اشتراك واقتراب الألفاظ في الحروف فللقافية أثر كبير في الموسيقى الشعر العربي ولاغرو في ذلك ما دامت القافية هي الرّكن الثاني بعد الوزن، الذي يعتمد عليه في التفريق بين النثر الفنّي وبين الشعر فالقافية تريح النّفس، وتطرب السّمع، وتكسب الشعر المزيد من العذوبة والجمال وحسن الانسجام،فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقّع السّامع تردّدها، ويستمتع بمثل هذا التردّد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منظّمة وبعد عدد معين من مقاطع نظام خاص يسمّى بالوزن، لهذا توضع القافية من أجل الأذن وليس من أجل العيون، لأ همّيتها في الموسيقى والسّماع.[4]

4- العاطفة الصادقة المعبّرة عن صدق التجربة الشعرية، حيث تتوافق الألفاظ مع المعاني، وتتناسب العبارات مع الأحاسيسن فتنقل الأفكار والمشاعر بصدق وأمان في تراكيب موسيقية طبيعيةتتشكّل إيقاعا خارجيا يتجلّى في الوزن الشعري، ويصير لكل بحر ما يلائمه من المعاني فلحالات الحزن الأوزان الطويلة ولحالات السّرور والبهجة الأوزان الصغيرة.[5]

ولعلّ هذا ما يتجلّى بوضوح في غرض الحنين حيث يصطبخ بشعور الحزن والألم تعبيرا عن لوعة البعد والفراق وحرقة الصبابة والتوقان لبلدته تلمسان.

ولكي تقف على هذا، يجد ربنا أن نضرب أمثلة نصطفي فيها الأبيات من بعض القصائد لتبيّن عناصر الموسيقى الشعرية في نظم ابن الخميس.

ففي قصيدته (حنين إلى تلمسان)والتي نظّمها في التّسوّق لبلدته مادحا فيها أبا عبد الله بن الحكيم، يتجلّى عنصر العاطفة الصّادقة، المنقولة في عبارات متناسقة الكلمات، وكلمات متوافقة الإيقاعات حيث يقول الشاعر :

---

[1]- د صابر عبد الدائم: موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطوّر- القاهرة مكتبة الخانجي ط/ 3 1993 ص 35

[2]- د محمد غنيمي هلال ص 252

[3]- عبد الرحمن بدوي: في الشعر الأروبي المعاصر مكتبة الأنجلو المصرية ط 1965 ص 120

[4]- Roger Laufer et Bernard le charbonnier, literatture et langages, Ed.Fernard Nathan, 1974, vol. 2 P :282.

[5]- عزّ الدين إسماعيل: التفسير النّفسي للأدب م س ص 81

و هل لي زمان ارتجي فيه عودة ∴ إليك ووجه البشر أزهر و ضاء
فواحرّ بالي إن هلكت و لم أقل ∴ لصحبي الغرّ الكرام ألا هاؤا
و لم أطرق الدير الذي كنت طارقا ∴ بليل و بدر الأفق أسلغ مسناء
أطيف به حتى تهر كلابه ∴ و قد نام عسّاس و هوّم سبّاء
و لا صاحب إلى حسام و لهذم ∴ و طرف لخد اللّيل من كان وطّاء
و أسحم قاري كشعري حلكم ∴ تلالأ فيه من سنا الصبح أضواء
فما لشرابي في سواك مزازة ∴ و لا لطعامي دون بابك إمراء
و با داري الأولى بدرب حلاوة ∴ و قد جدّ عيث في بلاها و إرداء
أما آن أن يحمي حماك كعهده ∴ و تجتاز أصحاب عليه أحماء
أما آن أن يعشو لنارك طارق ∴ جنيب له رفع إليك ود اداء
يرجى نوالا أو يؤمل دعوة ∴ فما زال قار في ذراك و قراء
و لولا جوار ابن الحكيم محمد ∴ لما فات نفسي من بني الدّهر إقماء
و أكفال بيتي في كفالة جاهه ∴ لما فات نفسي من بني الدّهر إقماء
و أكفال بيتي في كفالة جاهه ∴ فصاروا عبيدا لي و هم لي أكفاء
دعاني إلى المجد الذي كنت آملا ∴ فلم يك لي عن دعوة المجد إبطاء
وبوّأني من هضبة المجد تلعة ∴ يناجي السّها منها صعود و طأطاء

يتتابع الإقاع العامّ في القصيدة منسجما، ثمّ تطفو أحيانا بعض الكلمات التي تشتمل على بعض الحروف الشديدة كالقاف والطّاء فتعطي نغمة مميّزة خاصّة إذا كانت في نفس الكلمة أو متقاربة في نفس البت، تماما كما يفعل العازف على القانون أو البيانو عندما يعطي نقرات مميّزة بين الفينة والأخرى داخل الإيقاع العام للقطعة الموسيقية دون أن يخلّ بانسجامها.

ففي البيت الأوّل نجد طال سقمي، وفي الثاني كلمة يصدق، وفي الخامس انقضت، إطفاء وفي الثامن، أطرق، طارقا وفي الخامس عشر،طارق وفي الذي يليه قار وقرّاء، أمّا في الأخير فنجد كلمة طأطاء .

كما يبقى الجناس في القصيدة عنصرا هامّا في المحافظة على عذوبة الإيقاع، إضناء إضاء، يحمي حماك، قار و قرّاء، الفاء فأفاء.

أمّا التصريع فنجده في البيت الثاني أرجفوا وإرجاف، أرجأوا و إرجاء، وفي البيت السابع عشر أكفال، وأكفاء.

وكذلك تكرار الحرف في نفس الكلمة يميّز الكلمة بجرسها المنفرد وهذا ما نجده في الكلمات التالية :ير ددّ، فأفاء، تلألأ، مزازة، دأداء، وطأطاء.

أمّا القصيدة الثانية، يطير فؤادي، والتي نظمها الشاعر بالأندلس متشوّقا إلى تلمسان، فقد اختار لها كذلك وزن البحر الطويل، وقافية الحاء، حيث ساعدا على إعطائها موسيقى خاصّة تجلّت عناصرها فيما يلي :

1) اعتماد المحسنات البديعية خاصة الجناس.
2) اختيار الألفاظ وتكرارها على أوزان متشابهة.
3) اقتراب الألفاظ واشتراكها في الحروف ذات المخرج الواحد.
4) اعتماد المدّ في القافية.
5) التزام وزنين متشابهين في الضرب وأحيانا في العروض.
6) صدق العاطفة المعبرة عن الشوق والحنين والتّعلق بالبلدة.

يقول الشاعر :

يطير فؤادي كلّما لاح لي لامع ... و ينهلّ دمعي كلّما نـــاح صادح
ففي كلّ شفر من جفوني مائح ... و في كلّ شطـــر من فؤادي قادح
خليلي لا طيف لعلوة طـــارق ... بليل و لا وجـــه لصبحي لائـــح
نظرت فلا نور من الصّبح ظاهر ... لعيني و لا وجـــه لصبحي لائـــح
بحقّكما كفّا الملام و سامـــحا ... فما الخلّ كلّ الخلّ إلاّ المسامـــح
و لا تعذلاني و اعذراني فقلّما ... يرد عنـــاني عـــن عليـــة ناصـــح
كتمت هواها ثمّ برح بي الأسى ... وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح؟
على قرية العبّاد منّـــى تحيـــّة ... كما فـــاح من مسك اللّطيمة فائح
وإن أنس لا أنس الوريط ووقفة ... أنافـــح فيهـــا روضـــة و أنـــاوح
مطلا على ذاك الغدير و قد بدت ... لإنسان عـــيني مُـــن صفاه صفائح
لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا ... فإني ســـكـــران بحبّـــك طافـــح
و إن كان مهري في تلاعك سانحا ... فذاك غـــزالي في عبابـــك سابـــح

قراح غدا ينصبّ من فوق شاهق لمثل حلاه تستحث القرائح
أرقّ من الشوق الذي أنا كاتم وأصفى من الدّمع الذي أنا سافح[1]

لعلّ أوّل ما يطالعنا و نحن نقرأ هذه القصيدة هو ذلك الانسان الإيقاعي في أواخر أبياتها والحاصل عن قافية أنحاء المشتملة على المدّ ذات الوزن الواحد حيث جاءت على صيغة اسم الفاعل، صادح، قادح، لائح، جائح، المسامح، ناصح، فاضح، فائح، طافح، سابح، سافح، ماعدا البيت التاسع حيث جاء على وزن الفعل أناوح و البيت العشر على وزن صيغة منتهى الجموع، صفائح.

وكذلك لجأ الشاعر إلى الموازنة بين شطري البيت أو جزء منهما فتأتي الكلمة في وزن تقبلها كلمة أخرى بنفس الوزن محافظة على الجرس الموسيقى الذي يزيده تغيير الحرف نغمة جديدة ويظهر ذلك جليّا في اليت الثاني والرّابع والثاني عشر والرّابع عشر.

أمّا الموازنة بين بعض أجزاء البيت فنجدها في البيت الأوّل : كلّما لاح لي لي لامع، كلّما ناح لي صادح، والبيت الحادي عشر ملآن معي طافحا، سكران بحبك طافح.

لقد هيّأ الشاعر لألفاظ قصيدته نظاما ونسقا سمح لتناسق إيقاعها مع الجو الشعوري الذي أراده حيث جاءت بعض الكلمات في بعض الجمل والعبارات مكتسبة جرسا موسيقيا إضافيا على مالها من موسيقى فردية من مثل قوله : يطير فؤادي، من جفوني، من فؤادي، لا تعذلاني واعذراني، كتمت هواها، وإن أنس لا أنسى فإنّي سكران، قراح غدا ينصبّ، أرق من الشوق.

أمّا الوزن الثاني الذي اختاره الشاعر لقافية قصيدته فهو مفاعل وفواعل ويتجلّى في الأبيات التالية :

تلمسان جادتك السّحابُ الدّوالِحُ وأرست بواديك الرّياح اللّواقح
فما الماء إلّا ما تسحّ مدامعي وما النّار إلا ما تجنّ الجوانح
لساقية الرّومي عندي مزيّة وإن رغمت تلك الرّوابي الرّواشخ
تحاربها الأذهان و هي ثواقب و طير مجانيه شواد صوادح
ظباء معانيها عواط عواطف وتهفو بها الأحلام وهي بوارح
و تقتلهم فيها عيون نواظر و تبكيهم منها عيون نواضح

[1]- عبد الوهاب ابن المنصور – المنتخب النفيس م س ص 85 – 86 – 87.

وجاد ثرى تاج المعارف ديمـــة تغص بها تلك الــرّبى والأباطــح
إليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع لكـــن الجســـوم نـــوازح
بدور إذا جنّ الظلام كوامـــل و أسد إذ لاح الصباح كوالــح[1]

يقول طاهر توات معلّقا على الأبيات السّتة الأولى : « و تكرار الألفاظ على وزن واحد مع تقارب حروفها، و اشتراكها في بعض صفاتها كاللّين و الهمس و الذلاقة أو الذولقة، و الصّغير بالإضافة إلى سلامة المعاني و العاطفة الصّادقة أدّى إلى خلق ذلك التوافق الجرسي الموسيقي الذي تكاد تتقبّله كلّ أذن، وكل نفس، وربّما هوكان له دور في تسجيل ابن خميس في قائمة الشعراء الفحول أو الخالدين بفنّهم الممتاز[2] ».

فالشاعر إذن يورد الألفاظ على وزن واحد محافظا على تقارب حروفها لتواصل الجرس الموسيقي المنسجم في إيقاع مو حّد، يزيده المدّ ارتقاء، والهمس ايحاء للتعبير عمّا يختلج في صدره من حب لبلدته، و ما تكنّ جوانحه من شوق وحنين لربوع موطنه.

ففي البيت الأوّل يكرّر الشاعر حروف الهمس فالحاءرأبع مرّات في السّحاب، الدوالح، الرّياح اللّواقح مع نفس الوزن للكلمات، أما السين فتكرّر ثلاث مرّات في تلمسان، السّحاب، أرست، مع ما تضيفه من صفير خفيف يتصاعد مع المدّ المتكرّر في سبع كلمات تلمسان، جادتك السحاب، الدّوالح، بواديك، الرياح، الدوالح.

أمّا في الثاني والرّابع والخامس والسادس والتاسع فيوازن بين جلّ ألفاظ البيت مع استعمال الجناس أحيانا في تجنّ الجوانح، عواط عواطف، ثمّ تكرار الحاء في عجز البيت الأخير ثلاث مرّات مع المدّ في لاح الصّباح، كوالح.كلّ ذلك أعطى للقصيدة موسيقى عذبة لا تطرب الأذن ولا تحرك الجسم للرّقص، بل تستهوي السّمع وتسكّن الجسم وتنــزع بالنفس لأنّها تمتاح ما في النفس، نفس الشاعر المتألم من لوع الغربة وحرقة الشوق.

إنّ غلبة الحزن على شعر ابن خميس جعل موسيقىّ شعره هادئة تكاد تسير على إيقاع واحد، شد السّمع ويسمو بالروح، وإذا شاء لنا أن ننتقل من ذلك الإيقاع الهادئ إلى الطرب فلنقف على بعض الأبيات الغزلية لنرى كيف يتغيّر الإيقاع إلى الخفّة والحركة فيمتّع السّمع ويحرّك الجسم للرّقص يقول الشاعر ابن الخميس متغزّلا:

---

[1]- م ن. ص 87.
[2]- طاهر توات: ابن خميس شعره و نثره م س ص 210.

نظرت إليـــــك بعيـــني جـــؤذر و تبسّمت عن مثل سمطي جوهر
عن ناصح كالـــدّر أو كالـــبرق أو كالطلع أوكالأقحـــوان مؤشـــر
طرقتك وهنا و النّجوم كـــــــأنها حصباء درّ في بســـاط أخضـــر
والرّكب بـــين مصعّد و مصـــوّب والنّـــوم بين مسكّـــن و منفّـــر
بيضاء إذا اعترت ذوائب شعـــرها سفرت فأزرت بالصّباح المسفـــر
سرحت غلائلـــها فقلت سبيكـــة من فضّة أو دميـــة مـــن مرمـــر
رحنا تغنيـــنا و نرشـــف ثغـــرها والشمس تنظر مثـــل عين الأخزر
والرّوض بين مفضّض و معسجـــد و الجـوّ بين ممسّـــك و معطـــرّ[1]

تتناسب الألفاظ مع المعاني والغرض، وتتوافق الحروف مع الإيقاع، فيكثر التكرار، وتقصر الكلمات، وتتوالى نفس الأوزان سريعة، متقاربة الجرس، لتجعل الإيقاع خفيفا مطربا يجرّ بالأذن إلى حلبة الرّقص .

لقد اختار الشاعر لقافيته حرف التكرار وهو الرّاء الذي ورد في هذه الأبيات ثلاثين مرّة، ولم يكف الشاعر ذلك بل راح يكرّر بعض الحروف ويستعمل التّضعيف ففي البيت الثاني نجد الكاف أربع مرّات في قوله : كالدّر أو كالبرق أو كالطّلع أو كالأقحوان، ولا شك أن لهذه الكلمات وقعا خاصّا يتمثّل في التوقف عند كلّ كلمة تتبعها أخرى كأنّها طلقات الدّف وقد جاء مرتّبة تصاعديا في عدد الحروف فكلمة الدّرّ حرفان مضاعفان ثم البرق ثلاث والطّلع كذلك مع تضعيف الطاء ثم الأقحوان بستّة أحرف.

أمّا من حيث المخرج الصوتي فإنّها متقاربة : «الدّال صوت نطعيّ من قعر الحنك الأعلى، ثمّ الرّاء صوت ذلقي، ثم الباء صوت شفوي، ثمّ الرّاء فالقاف صوت لهوي، ثم الحاء حلقي، ثم يعود الصوت إلى أقصى الجوف بحرفي الواو والألف، ثم يخرج من الأنف بحرف النون وهو صوت خيشومي ».[2]

كما تكرّر حرف الغنّة فالنون في البيت السابع ذكر ست مرّات، والميم في البيت الرابع خمس مرّات، وكذلك في البيت الثامن، أمّا تتابع الأوزان فنجده في البيت الثاني، الدّر، البرق، الطّلع

---

[1]- عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس م س ص 110-111

[2]- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب- لبنان بيروت دار الكتاب اللبناني-ط/4- ج/2 1974 ص 123-124-125

وكذلك في البيت الرّابع،فكلّ كلمة في الصّدر توازيها كلمة أخرى في العجز ومع هذا الإنسجام الايقاعي والانسياب الموسيقي الخفيف، يدخل الشاعر أحيانا بعض التغيير أو التوقف للانطلاق من جديد، ففي البيت الثالث يستعمل لفظة طرقتك محدثا اضطرابا صوتيا أو تقلقلا في المخرج بحرفي الطّاء والقاف، سرعان ما يليّـــنه بحرفين جوفيين، وهما الواو والهاء، فالطارق يكون ليلا يحمل المفاجأة ويثير القلق أمّا الوهن فتحمل معنى الضعف والطمأنة،كأنّ بعد القوّة ضعف وبعد الجلجلة خفوت.

أمّا في البيت الخامس فيستعمل المدّفي كلمة بيضاء، كأنّ القارئ يتوقف لحظة للتأمّل ثم يواصل المدّر بأداة الشّرط ثم كلمة ذوائب ثم شعرها، ويلي هذا المدّ المتتابع صفير في الشطر الثاني في الكلمات، سفرت، أزرت،الصّباح، المسفر. وهنا يمتزج الصوت والجرس بالمعنى والصورة لكأنّ الشاعر دعانا بذلك التوقف و المدّ إلى التأمّل الذي جعلنا نصفّر حيرة واندهاشا لروعة وجمال هذه الحسناء.

راح الشاعر يعتمد على ترديد الحروف في نفس البيت والتوازن بين الكلمات للمحافظة على الإيقاع الموسيقي للقصيدة، يقول واصفا ما شهد من حسان أثناء رحلته من تلمسان باتجاه سبتة:

ولا مثـــل بيت تيمّمتـــه ∴ فلم ألف إلا الغنا والسّماحا

عيّابا ملاء، ونيبا سمانـــا ∴ وغيدا حسانا، و عودا أقاحا

وإلاّ أعاريب شمّ الأنوف ∴ كرام الجدود فصاحا صباحا

وإلاّ يعافير سود العيـــون ∴ يرين فســـاد المحبّ صلاحا

يرددن فينا لحاظا مراضـــا ∴ يمرضن منّا القلوب الصّحاحا

وتحت الوجاح طلا ربرب ∴ لو أنّ القيان رفعن الوجاحا

أراني محاسن منـــه فلـــم ∴ أطق عن حماه بقلبي براحـــا

محيّا وسيما وفرعا أثيثـــا ∴ وقدّا قويما وردفـــا رداحـــا

وأبدى لعيني بدائـــع لم ∴ تدع لي عقلا بها حين راحا

لعلّ ما يميّز هذه الأبيات هو تلك الموسيقى العذبة الخفيفة، الناتجة عن اعتماد الشاعر وزنا واحد لقافية الحلو التي تنتهي بمدّ حركة الفتح السّماحا، أقاحا، صباحا صلاحا، الوجاحا، براحا رداحا.

وكذلك ترديد بعض الحروف في نفس البيت وتقاربها، واستعمال الموازنة، ففي البيت الأوّل نجد ترديد حرف اللامّ خمس مرّات واللثّة والميم خاصّة في لفظتي بيت تيمّمته.

أمّا في البيت الثاني فنجد التوازن بين الكلمات، فلفظ نيبا يشترك في وزن فعيل مع لفظ غيدا، كما يشترك لفظ سمانا في وزن فعال مع لفظ حسانا، ثم استعمال المّد بأحرفه الثلاث في الكلمات غيدا، ملاء، سيمانا،غيدا حسانا و عودا ثمّ التنوين الحاصل في آخر كل كلمة وهو تنوين الفتح أخف من تنوين الكسر و الضّم، قد أضفى على الإيقاع تموّجا صوتيا انتهى بنغمة موحّدة خفيفة فيها غنّة.

و في البيت الثالث اشترك لفظ الأنوف والجدود في وزن واحد، واستعمال أحرف الهمس في لفظي فصاحا صباحا، ثمّ الرّبط بين البيت والذي يليه بتكرار لفظة إلاّ ونفس الأوزان فتشابه الصّدران من حيث الألفاظ كأعاريب، و يعافير، والأنوف، و العيون.

أمّا البيت الثامن فنجده على شاكلة البيت الثاني و في البيت الأخير تغلب الأصوات الجوفية كأحرف اللين الألف و الياء، و الحلقية كالعين و الهمزة و الحاء.كما استعمل الشاعر بعض الكلمات التي أعطت جرسا عذبا للأبيات مثل : تيممته، يرددن، ربرب، أثيثا، نظرا لتكرار الحرف فيها.

إنّ الموسيقى لغة العواطف والوجدان[1] تؤثر فينا لما في نغماتها و إيقاعها من جمال تثير الإحساس و تطرب الأرواح و تحرّك الأجسام، و إذا كان الموسيقي يستعمل بآلته أصواتا لا معنى لها كمادّة أولوية لتركيب مقطوعته أو عزف سمفونيه، فإنّ الشاعر يستخدم أصواتا مليئة بالمعاني هي الألفاظ[2] هذه الألفاظ ذات الحروف المباينة و المتشابهة والأجراس المختلفة تشكّل في تنظيمها انسجاما فتعطي إيقاعا موسيقيا موحّدا للقصيدة الشعرية خاصّة إذا كان الشاعر بارعا في تنظيمها ذكيّا في ترتيبها و تكرارها و توازنها فيكون بذلك فنّانا بنظمه، فنّانا بموسيقى شعره، و لعلّ ذلك ما فعله شاعرنا ابن خميس التلمساني .

---

[1] عبد الحميد حسن: الأصول الفنّية مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط/2 سنة 1973 ص 23.

[2] عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي دار النهضة العربية بيروت ط/2 1972 ص 54.

الأوزان والقوافي

يبدُو أنّ ابن خميس كان على دراية واسعة بعلم البلاغةِ واطلاع عميق بعلم العروض مكنه من أن ينظِمَ شعرًا راقيًا أنزله منزلة الفحول، وفطاحلة الأوزان وهذا باعتراف لسان الدين ابن خطيب حيث قال : « كان طبقة الوقت في الشعر وفحل الأوزان في النظم المطوّلِ[1]» وقال عنه كذلك ابن خاتمة الأنصاري في كتابه (مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية): «إنه نظم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حيلت بها لبّات الآفاق وتنفّست عنها صدور الرفاق، وكان من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، يرتكب مستعصبات القوافي، ويطير في القريض مطار ذي القوادم الباسقة والخوافي، حافظا لأشعار العرب. »[2]

وقد أثبت ابن خطّاب[3] هذا الكلام شعرا مفصحا عن مدى إعجابه بشعر ابن خميس لرقيه وحلاوته مبينا تمكن الشاعر من البلاغة وتقدمه في النظم والنثر لا يباريه فيهما أحد ولا يجاريه في طول النفس ناظم وقد عزّزهما ببسطة في العلم، ودراية في الفقه، يقول:

رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضكَ لِي وهاج رسيسي
ولك يَصْبُو الحكيم و يمتري ... مَاءُ الشّؤون به، و تسيرُ العِيسِ
لك فِي البلاغةِ والبلاغَةُ بعض ما ... تحويه من أثر محل رئيس
نظم و نثر لا تُباري فيهما ... عزّزتَ ذلك و ذا بعلم الطوسي[4]

لقد عرف ابن خميس لنفسه هذه الميزة فراحَ يفتخِرُ بشعره ودرى أنّه مستملح النزعة، عذب المَقال، يُنَظِمُ الألفاظ كمثل اللآل، يقول مخاطبا أبا زيان هاديا له قصيدته اللاّمية:

خذها أبا زيان من شاعر ... مستملح النّزعةِ، عذب المقال
يلتفظ الألفاظ لفظ النّوى ... ويُنْظِمُ الآلاء مثل اللآل[5]

---

[1] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج2 ص529.
[2] مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية نقلا عن تاريخ الأدب الجزائري محمد عمرو الطمّار ص124.
[3]- ابن خطاب : كاتب بارع وشاعر مجيد شارك في أصول الفقه وعلم الكلام وكان رئيس ديوان الرّسائل السلطانية ولما دخل تلمسان على إثر فتنة وقعت بمرسية فجعله ملك تلمسان يغمراسن بن زيان صاحب القلم الأعلى. توفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة 686هـ.
[4] محمد عمرو الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ص124.
[5] عبد الوهاب بن منصور: مرجع سابق ص106.

بل يذهب إلى أبعد من ذلك، حين يُعِدُّ قصيدته ليفضحها أفواه أعْدَائه، ويفقه أعين حُسّاده، يقُولُ :

لأفْواه أعْدائي وأعين حُســـّدي إذا جِئْتُ خائيتي الفَضّ والفضـــخ[1]

وإذا كانت قصيدته فظة تفضّ أفواه الأعداء وصلبة، قاسية تعمي أعين الحساد فهي عروس حسناء وشيت ملاءها وزين لباسها فراحت تتهادى كبرا وتتيه عزّة من مدح أملاكها، يقول:

دَعُوهَا تَهادَى في لِلاءَةِ حُسْنِهَا فَظِي نَفْسِهَا مِنْ مَدْحِ أمْلاكِهَا مَدْحُ[2]

مفتخرًا بها، كما تفتخرَ بأجْدَادِه اليمانيين، غائرا في جذوره القديمة وأصله السحيق، لا إلى انتمائه التلمساني كأنّهُ ينزَعُ إلى القديم نزعا، وينأى عن الجديد نأيّا، فقد عاش في بيئة غناءة، ومكث بالأندلس مدّة من الزمن لا يبارحها، يتجوّل بين جنبات رياضها، وضفاف وديانها، فلم يوح له ذلك ما أوحى لجنّانها ابن خفاجة، ولم يتأثر بموشحاتها البتّة، وقد ضرب فيه أصحابه أشواطا، وإنما عزف عنها عزوف المعتز بطريقته ليسلك نهج الشعراء التقليدين بالتزام هيكل القصيدة العمودية، واستعمال لغتهم وأسلوبهم واستخدام بحورهم الشعرية المألوفة في بيئتهم الصحراوية.

فقد وظّف البحور الشعرية المعهودة، كل بحر وخاصيته الموسقية المنسجمة مع الغرض الشعري الذي طرقه والشعور النفسي الذي اختلجه، فنظم في وزن الطويل، والكامل، والمتقارب، والوافر، والبسيط.

قد استخدم الشاعرُ بحر الطويل في الحنين والشوقِ والوصف والمدح والغزل والفخرِ.

ثم بحر الكامل في المدح والفخر والغزل والوصف والتصوّف.

أمّا المتقارب فخصّصه للمدح فقط، وكذلك الوافر.

سَنُحَاول في هذا الجُزءِ أنْ نقطع بيتين من كُلِّ قصيدةٍ لنعين وزن البحر و نحَدِّدَ قافيتها:

---

[1] م ن. ص ن.

[2] م.ن. ص106.

القصيدة الأولى: حنين إلى تلمسان.

سَلِ الرّيح إنْ لم تسعد السّفن أنـوْاء	فعند صَبَاهَـا من تلمسـان أنبْـاء
0101011/01011/0101011/01011	0101011/01011/ 0101011/1011
فعولـن /مفاعيلن/فعولـن/ مفاعيلن	فعول/ مفاعيلـن/ فعولن/مفاعيلـن
يؤمّون قصـدي طاعـة ومحبـّةً	فما عفته عافوا وماشئتـهُ شـاءوا
01011/ 1011/ 0101011/ 01011	0101011/01011/0101011/01011
فعولن / مفاعيلن / فعولن / مفاعيلن	فعولن / مفاعيلن/ فعولن / مفاعيلن

تنتمي القصيدة للبحرِ الطويل وتنسبِ قافيتها لحرف الرّوي وهو الهمزة، وقد جاءت مطلقة مُرْدَفَةً.

مطلقه لأنّ حركة الرّوي ضمة أشبعت فصارت واوًا، فهي إذن متبوعة بحرف الواو الناتج عن إشباع حركة الرّوي ومردفة لأنّه قد سبق حرف الرّوي حرف مَدّ وهو الألف، أمّا الوصل في البيت الثاني فأصله واو جماعة وليس إشباعًا.

ولقد أشار الشاعر خميس إلى أنّ قصيدته هذه لزومية حيث قال في آخرها .

إليـك أبا عبـد الإله صنعتـها	لزومية فيها لسرّي إفشـاءُ
مبرّأةً ممّا يعيبُ لـزومُـهَا	إذا عَابَ إكفـاء[1] سـواهَا وإيطاءُ[2]

وقد علّق طاهر توات على هذه الأبيات بقوله : «و يُسَمي الشاعر قصيدته الهمزية... بأنها لزومية لكنّ الأستاذ محمود الرّبداوي لا يرى فيها لزوم ما يلزم وإنما ظروف القافية...»

وإذا رجعنا إلى تعريف لزوم ما يلزم حسب ما ورد في كتاب "جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع" حيث يقول: «هو أن يجيء قبل الرّوّي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس يلازم في التّقفية كالتزام حرف أو حركة أو أحدهما يحصل الرّوّي أو السجع بدونه[3]... »

---

[1]- الإكفاء: هواختلاف الرّوي وذلك إذا كانت الحروف متقاربة المخارج. أنظر: أبي الفتح عثمان بن الجني-مختصر القوافي- تحقيق حسن شاذلي فرهود- توزيع دار التراث- القاهرة. ط: الأولى 1975 ، مطبعة الحضارة العربية، الفجالة. ص 30.

[2]- الإيطاء: هو أن تجمع في شعر واحد بين كلمتين بلفظ واحد ومعنى واحد في أقل من سبع أبيات. أنظر الشيخ محمد بن أبي شنب - تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب- دار الغرب الإسلامي- ط4 سنة 1411هـ/1990م.

[3]- أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع - ص331.

وإذا تأملنا البيتين السابقين فإن الرّوي هو الهمزة فقط، سبقت بحرف مدّ وهو الألف الذي يشكل الرّدف المسبوق هو أيضا بحركة الفتح المناسبة للألف. فأين تكمن لزومية القصيدة؟

لعل الشاعر يرى لزومية قصيدته في التزامه حرف الهمزة الذي يشكل الحرف الثاني قبل القافية في أغلبية القصيدة كما في الكلمات التالية: أنباء، إيماء، إكلاء، إصباء، إبراء، إنباء وأملاء..وقد التزم الشاعر هذا الحرف في أحد عشر بيتا من مجموع واحد وخمسين بيتا في القصيدة.

القصيدة الثانية : نصيحة مشفق.

أنبــتُ ولكن بعد طُول عِتــاب	وبعــد لجاج ضاعَ فــيه شبابِي
1011/ 101011 0/ 01011/1011	1011 /0101011/ 1011/1011
فعــول/ مفاعيلن/فعــول/فعولن	فعــول/ مفاعيلن/فعول/فعولن
خلُعْتُ بهذا العيش قبــل بلائــهِ	كَمَا خَدَعُ الصّادِي بلمع تسراب
011011/1011/0101011/1011	01011/1011/0101011/01011
فعُول / مفاعيلن /فعول/مفاعِلُن	فعولُن /مفاعيلن / فعول/فعولُن

تنتمي القصيدة للبحر الطّويل وتنسب قافيتها لحرف الرّوي وهو الباء، وقد جَاءت القافية مُطلقة مُرْدَفَةً، مطلقة[1] لأنّها متبوعة بحرف الياء الذي هو حرف باء المخاطب في البيت الأوّل ووصل حركة الرّوي في البيت الثاني أي ياء الترنّم[2].

وقد دخل على البيتين زحاف القبض في التفعيلة الأولى والثالثة، وهو حذف خامس تفعيلة فعولن[3] وكذلك علّة الحَذْف في الضرب والعروض « مفاعيلن حذف منها السبب الخفيف فصارت مفاعي ثمّ تحوّلت إلى فعولن.»[4]

---

[1]- مصطفى حركات: نظريات الشعر ــ ص 79 .

[2]- المرجع نفسه ص83.

[3]- الأحمدي نوبرات موسى بن محمد المليانى:المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي ــ الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب- 1983 ص 27 .

[4]- مصطفى حركات: أوزان الشعر ــ دار الآفاق ص 28 (بدون سنة).

القصيدة الخامسة :مُدامة حيدر.

دَعِ الخمر واشرب من مدامة حيدر معتّقة خضراء لون الزّبرجد
1011 / 0101011 / 1011 / 011011 011011/ 1011 / 0101011 / 01011
فعولن / مفاعيلن / فعول / مفاعلن فعول/مفاعيلن/فعولن/مفاعلن

يعاطيكها بدر من الإنس أغيد يميل على غصن من البان أملد
011011/01011/0101011/01011 011011/01011/0101011/1011
فعولن / مفاعيلن / فعولن/مفاعلن عول/ مفاعيلن /فعولن /مفاعلن

ولا قول في تحريمها عند مالكٍ ولا حدَّ عند الشافعي و أحْمَد
011011/1011/0101011/01011 011011/01011/0101011/01011
فعولن /مفاعيلن/ فعولن /مفاعلن فعولن/ مفاعيلن / فعول/مفاعلن

القصيدة دالية من بحر الطّويل وقافيتها مُطلقة مجرّدةمطلقة لأنّ حرف الرّوي متحرّك وصل بحرف الياءِ الناتج عن إشباعِ حركة الكسرة، غير أنّ الشاعرضلطرتْهُ الضرورة الشعريّة في البيت الثاني و الثالث فالواجب حركة الفتح لأنّ الكلمتين ممنوعتان من الصّرف (أملد الذي هو اسم تفضيل وأحمد على وزن الفعل) والممنوع من الصرف يجرّ بفتحة نائبة عن الكسرة[1].

وقد خلت القافية من حرفي الرّدف والتأسيس فهي مجرّدة وقد جاء عروض وضرب الأبيات مقبوضين.

القصيدة السّادسة : بما أوتيتِ حمير والسّكاسِكُ.

تراجع من دنياك مَا أنت تـارِكُ وتسألُها العتبى وما هي فـارِكُ
1011/ 10101 /011011/1101 011011/01011/0101011/1011
فعول / مفاعيلن / فعولن / مفاعلن فعول / مفاعيلن / فعولن / مفاعلن

تؤمّل بعد الترك رجـع و دَادِها وشـرّ وداد ملـتَوَ دّ التّرائـك
011011/1011/0101011/1011 011011/01011/0101011/1011
فعول / مفاعيلن / فعول / مفاعلن فعول / مفاعيلن /فعولن / مفاعلن

حَلاَ لَك منها ما حَلاَ لك في الصّبا فأنـت علـى حلوائـه متهالـكُ
011011 / 1011 / 0101011 / 1011 011011 / 1011 / 0101011 / 1011
فعـول/ مفاعيلن / فعـول/ مفاعلن فعول / مفاعيلن/ فعول / مفاعلـن

[1] ابن هشام الأنصاري أبو عبد الله جمال الدين: قطر الندى وبلّ الصدى تأليف محيي الدين عبد الحميد دار رحاب للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر ص339.

القصيدة كافية من بحر الطّويل وقفت قافيتُها مطلقةُ مُرْدَفَةً مُؤسّسة والأبيات مقبوضة الضرب والعروض.

القصيدة السّابعةَ :اخترتُ قرب جواره.

طرقتك وَهْنًا أخْتُ آل عـلاَجِ والرّكب بين دكادك وحـراج
010111/110111/011001 0101111/0110101/0110111
متفاعـلن/ مستفعلن / فعلاتن مستفعلـن / متفاعِـلُ / فعلاتـن

فِي ليلة ليلاء لم ينبح بـها كلب و لم يصـرخ أذينُ دَجـاج
010111/0110101/0110101 0110101/0110101/0110101
مُتفعلـن /متفاعـلن/ متفاعـلن متفاعـلن /متفاعـلن /فعـلاتن

بتنا ندير إلى إنبلاح صـباحـهَا كَأْسَ الهَـوى صـرفا بغيرِ مـزاج
010111/0110101/0110101 010111/0110101/0110101
مُتْفاعِلُن / متفاعلن /متفاعِلن متفاعلن / متفاعلن / فعلاتن

القصيدة جميية من بحر الكاملِ وقافيتُهَا مطلقة مردفة مطلقةلأنّ حرف الرّوي متحرك وصل بحرف الياء المناسب لحركة الكسر وسُبِقُ بحرف مدٍّالذي هو حرف الرّدْف.

لقصيدة الثامنة لُكُلِّ شيءٍ مَوْعِدُ.

إنْ كُنْتَ تجهل أنّني لاَ أرقد سيأتي يخبرك السُّهَى والفرقَدُ
0110101/0110111/0110101 0110101 / 0110101 / 011101
مستفعلن / متفاعلن / مستفعلن مفتعِلُنْ/ مستفعلن / مستفعلن

فردًا كَابدُلوعَتِي وظلامـهُ حَتَّى يقوم لورْده المتَهجـّدُ
0110111 / 0110111 / 0110101 0110111 / 0110111 / 0110111
مستفعل / متفاعل /متفاعلن مستفعلن / متفاعلن /متفاعلن

القصيدة دَالية من بحر الكامِلِ وقافيتُها مُطلقة وصلت بحرف الّواو النّاتج عن إشباع حركة الضّمّ لحرف الرّوي وقد دخل على عروض وضرب البيت الأوّل طالإِمَارُ كما تعرّضت التفعيلة الأوّلى من عجز البيت الأوّل إلى زحاف الخزل[1].

قصيدة التاسعة دمية من مَرْمَرِ.

نظرت إليــك بمثل عيني جؤذر	وتبسّمت عن مثل سمطي جَوْهَرِ
0110101 / 0110111 / 0110111	0110101 / 0110101 / 0110111
متفاعلن /مستقاعلن/مُسْتفعلن	مُتفاعِلن / مستفعلن / مستفعلن
عَنْ ناصِحٍ كالدّرّ أو كالــبرقِ أَوْ	كالطَّلْعِ أو كالأقحُوَانِ مؤشــــر
0110101 / 0110101 / 0110101 /	0110101 / 0110101 / 0110101
مستفعلن / مستفعلن / مستفعلن	مستفعلن / مستفعلن / مستفعلن
طرقتك وضا والنّجوم كــأنــهَّا	حَصْبَاءُ دُرّ في بساطَ أخــضَــر
0110111 / 0110101 / 0110111	0110101 / 0110101 / 0110101
متفاعل / مستفعلن /متفاعلن	مستفعلن / مستفعلن /مستفعلن

القصيدة رائية من بحر الكامل وقافيها مُطَلَقة لأنّ الرّوي متحرك فنتج عن ذلك إشباع حركة الكسر بالياء وقد اضطر الشاعر إلى كسر آخر كلمة أخضر وهي ممنوعة من الصّرف والواجب أن ينوب عن الكسر الفتح.

القصيدة العاشرة : عجبا لها.

عجبلَهَا أيذوقطعْمَ وصالــها	مَنْ ليس يأمُلُ أنْ يمرّ ببالــهَا
0110111 / 0110111 / 0110111	0110101 / 0110111 / 0110111
متفاعلن / متفاعلن /متفاعلــن	مستفعلن / متفاعلن / متفاعلن
وأنا الفقير إلى تعلة ساعــــة	منها وتمنعــني زكاة جمالــهَا
0110111 / 0110111 / 0110111	011101 / 0110111 / 0110111
متفاعلــن / متفاعلن/ متفاعلن	مستفعلن/ متفاعلن / متفاعلن

[1]- الخزل :زحاف مركب وهو الإضمارُ و الطّي، فالإضمار: إسكان ثاني الجزء والطّي حذف رابع الجزء سَاكنا: أنظر الأحمدي نويوات المتوسط الكافي ص 29 و 25
الإضمار متفاعل = مُتَفاعل ــ و الطي = متفعلن.

القصيدة الثانيّة عشرة : العشْي تعيوالذّوابِغ.

العُشي تَعْـــيوالذّوابِغ عَنْ شُكْرِ أنْعُمكَ السُّوابِغِ
011010101 / 0110101 011010111 / 0110101
مستفعلن / مستفعلاتن مستفعلن / متفاعـــلاتن

ورَسَائِلُ ابـــن كماشـــة مع كلّ بازغة وبـــــازغ
0110111 / 0110111 010110111 / 0110111
متفاعلن / متفـــاعلن متفاعلن / متفاعـــلاتن

تأتِي بما تهوى النـــغا نغ من شهيات الّلغالـــــغ
0110101 / 0110101 010110101 / 0110111
مستفعلن / مستفعـــلن متفاعلن / مستفـــعلاتن

القصيدة غينية من مجزوء الكَامِلِ و قافيتها مقيّدة مُؤسّسة مقيّدة لأنّ البيت ينتهي بحرف سَاكن وهو الرّوي إذ لم يتبعه حرف آخر ومؤسسة لأنّ قبل الرّوي حرفين ألف لازمة بينها وبينه حرف آخر.

و قد طرأ على الأبيات زحاف الإضمار في التفعيلة لأولى والثالثة من البيت الأوّل والأوّل والثانيّة من البيت الثالث. ثمّ علّة الترفيل[1] في التفعلة الأخيرة من البيت الثاني ثُمّ الترفيل والإضمار مَعًا في التفعيلتين الأخيرة من البيت الأوّل والأخيرة من البيت الثالث.

[1] – الترفيل هو زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع، أنظر المتوسط الكافي ص 34.

القصيدة الثالثة عشرة: بابن الحكيم أمنت صرف ردى.

بل الحكيمِ أمنتُ صرف ردى — أبدًا له في أثـــلتي نحت
0111 / 0110111 / 0110101 — 0101 / 0110101 / 0110111
مستفعلن/ متفاعلن/ فعلن — متفاعلن/ مستفعلن/ فعلن
عمَّ الورى جودًا وفضلَ غنى — حتَّى تساوى العلُّوالغلتُ
0111 / 0110101 / 0110101 — 0101 / 0110101 / 0110101
مستفعلن / مستفعلن / فعلن — مستفعلن / مستفعلن/ فعلن
هوَمَى على عالٍ ومنخفضٍ — لم يبق فوق لا، ولا تحتُ
0111 / 0110101 / 0110111 — 0101 / 011011 / 0110101
متفاعلن / مستفعلن /فعلن — مستفعلن/ مفتعلن/ فعلن

القصيدةُ تائية من بحر الكامل وقافيتها مطلقة مجردة مطلقة لأنّ حرف الرّوي وهو التاء متحرك والوصل فيها واو جاءت شبيهة حركة الضمّ ومجرّدة لأنّها خالية من الردف والتأسيس. أمّا عروضها فجاءت محذوذة[1] وضربها محذوذ مضمر في الأبيات الثلاثة.

القصيدة الرابعة عشرة مَنْ عاذري؟

أرّق عينـــي بـــــارقٌ من أثال — كأنّهُ في جنح لـــيـــل ذُبَـــالْ
001101 / 011010101 / 011101 — 001101 / 0110101 / 11011
مُفْتعلنْ /مستفعلنْ / فـــــاعلان — متفعلُ /مستفعلن / فاعلان
أثارَ سرْقًا في ضـــمير الـــحشا — وعبرتي في صحن خدّي أسال
01101 / 0110101 / 011011 — 001101 / 0110101 / 011011
مُتفعلنْ / مستفعلن /فاعلن — متفعلن /مستفعلنْ / فاعلان
جوانـــحُ تلفـــح نيـــرانهـا — وأدْمُع تهلّ مثـلَ العـــزال
01101 / 0111011 / 11011 — 001101 / 0110101 / 011011
متفعلمُفْتعلنْ /فاعلـــنْ — متفعلنْ /مستفعلن/ فاعلان

[1] الحذذ هو حذف الوتد المجموع من آخر التفعيلة – متفاعلن –فتصير " متفا " فتنقل إلى " فعلن " أنظر المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي ص 36.

القصيدة لامية من بحر الوجاءت قافيتُهَا مقيّدة مُرْدِفة، مقيّدة لأنّها تنتهي بساكن ومُرْدفة لأنّ الرّوي سبق بحرف مدّ لازم[1] فانتهت القافية بساكنين فالعروض مطويّة مكسوفة والضرب مطوي موقوف[2].

القصيدة الخامسة عشرة: لم أرد إلاّ سَرَابًا

خليلي إنْ قدرت فلا تكلني	للدّهر علّم الشحّ الغَمَامَا
01011/ 0111011 / 0101011	01011/0101011/0101011
مفاعيلن / مفاعلتن / فعولن	مفاعيلن/ مفاعلن /فعولن
ورد تُ فلم أرد إلاّ سرابا	وشمت فلم أشم إلاّ جهاما
01011/ 0101011 / 0111011	01011/ 0101011 / 0111011
مفاعلتن/ مفاعيلن /فعولن	مفاعلتن / مفاعيلن /فعولن

القصيدة ميمية من بحر الوافرِ وقافيتها مطلقة مردفة، مطلقة لأنّ حرف الرّوي متحرك وقد وصل في السّياق نتجت عَنْ تَعريض التّنْوين بفتحة ممدودةٍ ومردفة لأنّ حرف الرّوي سبق بحرف مَدّ.

وقد جاء البَحْر مسدسمقْطُوف العروضِ والضّرْبُ[3]. ودخل على بعض التفعيلات زحاف العصب[4].

هذه أهمّ القصائد التّي توفّرت لدينا والمبثوثة في أهَمّ الكتب التي ترجمت للشاعر ابن خميس والتّي جَمَعَهَا الأستاذ عبد الوهّاب بن منصور في كتابِهِ : «المنتخب النّفيس من شعر ابن خميس

---

[1] مصطفى حركات: نظريات الشعر – دار الآفاق ص 79.

[2] جار الله الزمخشري: تحقيق د: فخر الدين قباوة– القسطاس في علم العروض –مكتبة المعارف –بيروت– ط:/2– 1410هـ 1989م. ص: 82.
الطّيّ: حذف رابع الجزء ساكنا. (مفعولاتن – مفعلات – فاعلات)
الكسف: حذف آخر الوتد المفروق من آخر التفعيلة.

[3] م ن. ص 84.
القطف: مجموع الحذف والعصب فتصير (مفاعلتن) بعد دخول القطع عليها (فعولن) – المرجع نفسه ص 36.

[4] العصب : إسكان خامس الجزء . أنظر المتوسط الكافي في علم العروض والقوافي ص 25.

حيث عَنْوَنَ كُلّ قصيدةٍ يمكن لَنَا الآن أن ننسبها إلى البحر الذي تنتمي إليه، فتتب مجموعَهَا حسب كلّ بحر:

آ ــ بحر الكامل :

1ــ اختر تُ قرب جواره.

2ــ لكُلّ شيءٍ مَوْعِد.

3ــ دمية من مَرْمرِ.

4ــ عجبًا لها.

5ــ للّه أيّام قضيتُها.

6ــ العُشيّ تعي والنّوابغ.

7 ــ بابن الحكيم أمنت صرف ردى.

ب ــ بحر الطّويل :

1 ــ حنين إلى تلمسان.

2 ــ نصيحة مشفق.

3ــ يطيرُ فؤادي.

4 ــ معاهد أنس.

5 ــ مدامة حيدر.

6 ــ بما أورثتني حمير و السّكاسك.

ج ــ بحر السّريع :

1ــ من عَاذِري.

د ــ بحر الوافر :

لم أرد إلاّ سَرَابَا.

يظهر أن أغلبية قصائد الشاعِر جاءت في الكامل والطّويل، لتلّعقهما بالنفس البشريّة، وإيقاعهما الخاص، وقد نظم فيها جل الشعراء القدامى.

الـخاتـمـة

الخاتـــمة:

لقد أتاحت لي هذه الجولة مع ابن خميس فيما تيسر من شعره أن استخلص بعض النتائج التي أجملها فيما يلي:

أوّلا: استطاع الشاعر أن يعبّر عن عصره، فأعطى صورة حيّة للأوضاع السياسية، والظروف الاجتماعية، والحالة الاقتصادية، والحياة الفكرية.وأمسى شعره مستندا تاريخيا يحقّ للمؤرخ أن يستشهد بما احتواه من حقائق تاريخية، وأحداث عسكرية، خاصة الحصار المريني الذي ضربه أبو يعقوب المنصور على تلمسان مدّة طويلة، وأحوال ملوك بني بصر في غرناطة بالأندلس وحروبهم مع الإسبان المسيحيين كموقعة العقاب الشهيرة.

ثانـــيّا: اكتنف حياة ابن خميس بعض الغموض والالتباس، فقد أهملت مرحلة طويلة من حياته، واختلف الدارسون في تحديد تاريخ ولادته، وجهلوا عائلته ووظيفته، وفقدت رسائله وضاع ديوانه، كما تباينوا في تاريخ نزوله الأندلس، وأسباب قتله بغرناطة.

ثالـــثا: يعكس شعر ابن خميس ثقافته الواسعة ومعارفه الكثيرة، فقد كان له إلمام بعلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ولغة وفقه، ونصيب من المنطق، والأصول وعلم الكلام والفلسفة الصوفية، واطّلاع على أيّام العرب ورجالها وأنباء الأمم وأحوالها.

رابعـــا: طرق ابن خميس أغراض الشعر العربي القديم، وساعدته في ذلك ثقافته الواسعة وأسفاره الدائمة على طول النّفس فسمحت له بأن يعدّد الأغراض داخل القصيدة الواحدة فيأتي بالمدح والحنين والهجاء والوصف والفخر والزّهد.

وتناول في المديح المعاني القديمة التي طرقها الشعراء الجاهليون والإسلاميون ولكنّه أضفى عليها الصّدق، والتعبير عن الواقع لمصحوب بالحكمة والنّصيحة.

وخصّ بمدحه شخصيات ذات مكانة سامية ومنزلة مرموقة، دون أن يكون متكسّبا ولا طامعا متملّقا على الرغم من الحاجة وخصاصته.

أمّا فخره فلم يفرده بالقصيدة وإنّما يورده في آخرها أو يقتصره على البيت أو البيتين وليس له منه إلاّ داعيان: داعي للنّسب وداعي الشعر.

لم يكن للشاعر غرض وصفي يذكر، بل تراه يأخذ من الطبيعة صوره ويجنح فيها بخياله ليبرز أفكاره وعواطفه حين يمدح و يتغزّل أو يحنّ ويفتخر.

وزهد ابن خميس يعبّر عن نفس راضية بنصيبها القليل، قنوعة بحظّها اليسير تؤثر الفقر من أجل العلم وتزدري المال. بيد أنه يثير بعض الرّيب ويطرح جملة من التّساؤلات: أهو زهد حقيقيّ ناتج عن إيمان صادق واعتقاد راسخ أم أملته عليه ظروف اجتماعية وأوضاع اقتصادية وتعاقب المصائب والنّكبات؟

أمّا غزله وهجاؤه فهما يوصفان بالشيء النّزر القليل.

خامسا: يزخر شعر ابن خميس بالصّنعة الفنيّة، فأسلوبه تقليديّ، حاكى به الجاهليين والإسلاميين وحذا حذوهم في التعبير وضمّنه أشعارهم وأشعار الأندلسيين. واقتبس من القرآن الكريم ما شاء له وما وافق أفكاره أو طابق صوره. كما استعمل بكثرة الجناس والطّباق والتّصريع والموازنة والتشبيه والاستعارة.

وما ميّز شعره على الخصوص غرابة اللّفظ واتباع الجانب القصصي.

سادسا كان ابن خميس فنّانا بنظمه، فنّانا بموسيقى شعره حيث سخّر لها عناصر مختلفة تجلت في المحسنات البديعية واختيار الألفاظ وتكرارها على أوزان متشابهة واستعمال التصريع واختيار القافية واعتماد المدّ فيها بالإضافة إلى صدق العاطفة مما يضفي على القصيدة إيقاعا موسيقيّا موحّدا يحرّك الوجدان، ويشدّ الأذن إلى الاستماع، ويجعل الروح في استمتاع.

سابعا وظّف الشاعر البحور المعهودة، كلّ بحر وخاصيّته الموسيقية المنسجمة مع الغرض الشعري الذي طرقه والشعور النّفسي الذي اختلجه فنظم في وزن الطويل والكامل والمتقارب والوافر والبسيط وامتطى القوافي المستعصية دون أن يرتكب عيوبها ولا أن يتراح عنها إلى ما استجدّه الأندلسيون من موشّحات.

ثامنا بيّنا أنّ قصيدة الشاعر الهمزية ليست لزوميّة كما زعم هو نفسه في قوله:

إليك أبا عبد الله صنعتها لزوميّة فيها لسريّ إفشاء

تاسعا:بيّنا أنّ قصيدة الشاعر « عجبا لها »ليست هائيّة كما يظنّ الأستاذ محمد عمرو الطّمار في كتابه «تاريخ الأدب الجزائري» حين قال: «جسر على هذه الهائية و لم يجسر عليها المتنبي ولا أبو تمام ولا البحتري ».

عاشرا:لقد تبيّن لنا أنّ ابن خميس لم يكن شاعرا فقط، بل كان ناثرا بارعا متفنّنا، واسع الرّواية والاطّلاع، متقنا لأدوات الكتابة، محيطا بأسرار البلاغة حافظا لأقوال الفصحاء لا ترى في كلامه عوجا ولا أمتا، ولا ركاكة ولا تعسّفا، وهو مع ذلك يتكلّف البديع ويزيد في الصّنيع، ويكثر من استخدام الغريب، ويورد القصّة ويعطي الحكمة بما حفظ من أشعار وروى من أخبار.

هذا هو شاعر المائة السابعة، قلّ من يضارعه من أقرانه في قوّة العارضة وخصب القريحة، وفيض الخاطر وطول النّفس، وندر من يماثله في سلاسة المباني وسلامة المعاني.

ولا جرم أنّ من رام الموازنة بين شعره وشعر معاصريه سيكتشف البون شاسعا والفرق واسعا، فينقلب إليه الاجتهاد خاسئا وهو حسير.

وعلى الرّغم من قلّة شعره بين أيدينا بسبب ضياع ديوانه فإنّ المجال يبقى فسيحا والباب مفتوحا لدراسات أكاديمية فردية أو جماعيّة لإجلاء شخصيّته وشرح شعره الذي يتميّز بالمتانة وغرابة اللّفظ وغلبة الحزن وإيراد القصّة وطول النّفس.

ولئن حقّ لتلمسان أن تفتخر بمولده ونبوغه كلّ الافتخار فإنّ طرده وفاته ستظلّ لها وصمة عار، لأنّ المصير المأسوي الذي لقيه بحضرة غرناطة ضحوة يوم عيد الفطر من سنة 708هـ ليبقى تبعة على بلدته حتّى تستردّ له مكانته وتجعل من قصائده في الشوق والحنين أنشودة لأبناء تلمسان، وتنحت من اسمه لافتة في كلّ مكان. فهلاّ كانت النيّة معقودة على أن تقوم أقلام من هذه البيئة على تدارك هذا التّجانف.

المصادر والمـــراجـــع :

- **القرآن الكريم** - رواية ورش.
- **أبو شنب:محمد:**
  - **تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب** - دار المغرب الإسلامي- الطبعة الرابعة 1411هـ/1990م
- **أبو ضيف أحمد عمر مصطفى:**
  - **القبائل العربي في المغرب العربي في عصري الموحدين وبني مرين**- الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية 1982م.
- **الأحمدي نويوات موسى بن محمد المليانى:**
  - **المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي** – الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب الطبعة الثانية دار العلم للملايين 1973م. 1983م
  - **معجم الألفاظ المتعدية بحرف:** بيروت دار العلم للملاين ط/2 1973م.
- **الأبراشي محمد عطية:**
  - **الآداب السامية** - دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثانية 1974م
- **إسماعيل العربي:**
  - **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس** مقتبس من كتاب : نزهة المشتاق لأبي عبد الله الشريف الإدريسي الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية 1983م.
- **إسماعيل عزّالدين:**
  - **التفسير النفسي للأدب**- بيروت ، القاهرة - دار العودة دار الثقافة1963م
- **إروين إدمان:**
  - **الفنون الإنسانية** – ترجمة: مصطفى حبيب دار مصر للطباعة د.ت
- **الأصبهاني أبو الفرج:**
  - **الأغاني** - تحقيق: عبد الستار أحمد فراج بيروت - دار الثقافة 1960م
- **إليا حاوي:**
  - **الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره** – دار الثقافة بيروت الطبعة الثانية 1981م.
  - **شرح ديوان جرير**- دار الكتاب اللبناني- بيروت لبنان ط/1- 1982م

- **الأمير عبد القادر:**
  - **ديوان الأمير عبد القادر**- د: ممدوح حقي بيروت دار اليقظة العربية- ط/2 1965م.1984م.
- **الأنباري محمد بن القاسم:**
  - **كتاب الأضداد** – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة المصرية.
- **أندري برنيان، أندري نويشي، إيف لاكوست:**
  - **الجزائر بين الماضي والحاضر**- ترجمة: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور - الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية 84 19
- **الأنصاري ابن خاتمة:**
  - **مزية المرية** على غيرها من البلاد الأندلسية من رواية المقّري في أزهار الرياض.صيدا بيروت 1407هـ/1987م.
- **البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل:**
  - **صحيح البخاري** ، الجزائر، عين مليلة - نشر مشترك موفم للنشر- دار الهدى للطباعة والنشر 1992 - ضبطه ورقمه وذكر مواضعه وشرح ألفاظه وجمله الدكتور مصطفى ديب البغا.
- **بروكلما ن كارل:**
  - **تاريخ الشعوب الإسلامية** نقله إلى العربية نبيه أمين- فارس منير البعلبكي دار العلم للملايين بيروت.1351هـ.
- **بدوي عبد الرحمن:**
  - **في الشعر الأوربي المعاصر** - مكتبة الأنجلو المصرية 1965م.
- **البستاني فؤاد أفرام:**
  - **أبو فراس الحمدان**الرّوائع - منتخبات شعرية: **ي** بيروت - دار المشرق.
- **البستاني كرم:**
  - **ابن خفاجة الأنصاري: الروائع:** -دار بيروت - للطباعة والنشر 1986م.
- **بشار بن برد:**
  - **ديوان بشار بن برد**- تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور طبع تونس 1976م.1975م.

- **ابن الأبار أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي:**
  - **الديوان**- قراءة وتعليق: د:عبد السلام الهرّاس تونس - الدار التونسية للنشر - ديوان المطبوعات الجامعية ط/2-د ت.
- **ابن الأثير علي بن أحمد بن أبي الكرم:**
  - **الكامل في التاريخ**- دار الكتاب العربي د.ت.
- **ابن جني: أبو الفتح عثمان:**
  - **مختصر القوافي**- تحقيق: الدكتور حسن شاذلي فرهود- القاهرة توزيع دار التراث مطبعة الحضارة العربية الفجالة- الطبعة الأولى-
- **ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد:**
  - **الدرر الكاملة في أعيان المائة الثامنة 1349-1350هـ.**
- **ابن حمديس:**
  - **ديوان ابن حمديس،** صححه وقدم له: د/ إحسان عباس- دار بيروت 1376 هـ 1996 م
- **ابن خلدون أبو زكرياء يحيى:**
  - **بغية الرّواد** في ذكر ملوك بني عبد الواد- تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور عبد الحميد حاجيا ت الجزائر المكتبة الوطنية ا 1980م.
- **ابن خلدون عبد الرحمن:**
  - **كتاب العبر** وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبع ونشر دار الكتاب، بيروت 1968م.
  - **المقدمة** بولاق 1274هـ.
- **ابن الخطيب لسان الدين:**
  - **الإحاطة في أخبار غرناطة** – تحقيق: محمد عبد الله عنان-القاهرة-مكتبة الخانجي
- **البنديجي أبو البشر اليمان بن أبي اليمان:**
  - **التقفية في اللّغة**- تحقيق د: خليل إبراهيم العطية، بغداد - مطبعة العاني 1976م
- **ابن سهل الأندلسي:**
  - **الديوان**- قدم له، د: إحسان عباس بيروت دار صادر -1980م

- **ابن سيدة أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي:**
  - **كتاب المخصص** ط/1 -المطبعة الأميرية بولاق 1317هـ
- **ابن فارس أبو الحسن أحمد بن زكريا:**
  - **معجم مقايس اللّغة**- حقّقه شهاب الدين أبو عمرو- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت لبنان الطبعة الثانية 1418هـ/1998م.
- **ابن القاضي أحمد بن القاضي المكناسي:**
  - **درّة الحجال في غرّة أسماء الرّجال.**
- **ابن قتيبة:**
  - **أدب الكاتب** – تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد- دار العلم للملايين- الطبعة الرابعة 1963م.
- **ابن قنفذ القسنطيني: أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب.**
  - **الوفـيات** – تحقيق: عادل نويهض – المكتب التجاري للطباعة والتوزيع- لبنان، بيروت، ط/1 سنة1971م.
- **ابن كلثوم عمرو:**
  - **الدّيوان:** ترتيب وشرح: عبد القادر محمد مايو تقديم دار القلم العربي ط/1- 1439هـ/1999م.
- **ابن منصور عبد الوهاب:**
  - **المنتخب النّفيس من شعر ابن خميس**- ط/1- تلمسان مطبعة ابن خلدون 1355هـ/1944م.
- **ابن منظور أبو الفضل جمال الدين مكرم بن منظور الإفريقي المصري:**
  - **لسان العرب** يروت للطباعة والنشر - 1968م
- **ابن هشام الأنصاري أبو عبد الله جمال الدين بن هشام:**
  - **قطر الندى وبل الصدى:** تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد - الجزائر.دار رحاب للطباعة والنشر والتوزيع.
- **ابن الوردي زين الدين عمر**
  - **تتمة المختصر في أخبار البشر**- تحقيق: أحمد رفعة البدراوي دار المعرفة بيروت

- بورويبة رشيد:
  - **الجزائر في التاريخ من الفتح الإسلامي إلى بداية العهد العثماني** - المؤسسة الوطنية للكتاب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية -وحدة الرغاية 1984م
- البوعبدلّي المهدي:
  - **أبو عبدالله بن خميس التلمساني**- بحث نشر بمجلة الأصالة العدد 49-50 سبتمبر، أكتوبر 1977م.
  - **أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ** ، بحث نشر بمجلة الأصالة العدد 49-50 سبتمبر، أكتوبر 1977م.
- التنبكتي: أحمد بابا
  - **نيل البتهاج** - القاهرة طبعة على هامش الديباج المذهب لابن فرحون.
- التنسي:محمد بن عبد الله:
  - **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان** ، مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان- تحيق: محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية المؤسسة الوطنية للكتاب 1985.
- توات طاهر:
  - **ابن خميس شعره ونثره**- ديوان المطبوعات الجامعية 05-91.
- توفيق المدني:
  - **كتاب الجزائر** – ط/2 -دار الكتاب البليدة الجزائر 1963م.
- جرجي زيدان
  - **العرب قبل الإسلام** - مشورات دار مكتبة الحياة –بيروت، لبنان 1966م.
- جودت الركابي:
  - **في الأدب الأندلسي** -الطبعة الرابعة- دار المعارف بمصر.
- جواد علي:
  - **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** - دار العلم للملايين بيروت -مكتبة النهضة بغداد 1969م.

- الزركلي خير الدين:
  - **الأعلام** - لبنان بيروت – ط/3 القاهرة د.ت.
- الزمخشري جار الله أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري:
  - **القسطاس في علم العروض** – تحقيق: د: فخر الدين قباوة.
- زهير بن أبي سلمى:
  - **الديوان** -كرم البستاني -دار بيروت للطبع والنشر
- الزّوزني:
  - **شرح المعلقات السبع** - كرم البستاني – لبنان، بيروت، دار صادر
- سالم عبد العزيز:
  - **تاريخ مدينة الميرية الإسلامية** – ط/1 -دار النهضة بيروت لبنان 969م.
- سعد الله أبو القاسم:
  - **تاريخ الجزائر الثّقافي من القرن العاشر إلى الرّابع عشر الهجري**- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر ط/2- 1985م.
- سيد قطب:
  - **النّقد الأدبي أصوله ومناهجه** -دار الشروق د.ت.
- الشبيبي محمد رضا:
  - **أدب المغاربة والأندلسيين**-دار اقرأ للنشر والتوزيع الطبعة الثانية 1984م.
- شريط عبد الله والميلي محمد مبارك:
  - **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**- الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1985م.
- شعيب بن عبد الله:
  - **البلاغة الواضحة**- علم البيان- دار الهدى- عين مليلة – الجزائر-د.ت
- الشريف المليتي المديوني التلمساني بن مريم:
  - **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية 1986م.
- الصابوني محمد علي:
  - **صفوة التفاسير**- دار الضياء قسنطينة ط/5- 1411هـ/ 1990م.

- الطمار محمد عمرو:
  - **تاريخ الأدب الجزائري**-الشركة الوطنية للنشر والتوزيعالجزائر 1981م.ت
  - **تلمسان عبر العصور** الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1984م.

- عبد الحميد حسن:
  - **الأصول الفنية للأدب**- مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة –ط/2- 1944م.
- عبد الدايم صابر:
  - **موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور** - مكتبة الخانجي القاهرة – ط/3- 1993م.
- العبدري محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحاجي:
  - **الرّحلة المغربية العبدرية**- الجزائر 1964م.
- عبد الرحمن بن علي محمد بن عمر بن الربيع:
  - **بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد** – تحقيق: عبد الله الحبشي - مركز الدراسات اليمانية صنعاء 1979م.
- عبد العزيز عتيق:
  - **تاريخ العرب في عصر الجاهلية**- دار النهضة العربي للطباعة والنشر بيروت عام 1971م.
- العقاد عباس محمود:
  - **اللغة الشاعرة مزايا الفنّ والتعبير في اللّغة العربية** - مكتبة الأنجلو المصرية ط/1- 1960م.
- عاطف الزين سميح:
  - **شرح مفردات ألفاظ القرآن الكريم** - دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة بيروت ط/2- 1984م.
  - **علم البديع**، دار النهضة العربي للطباعة والنشر 1974م.
- علي علاّم عبد الله:
  - **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي** - دار المعارف بمصر القاهرة أكتوبر 1968م.

- المتنبي أبو الطيب:
  - **الديوان** – شرحه وكتب هوامشه: مصطفى سبيتي لبنان، بيروت دار الكتاب العالميةط/1-1406هـ-1986م.
- محمد أبو الفضل إبراهيم:
  - **أمالي المرتضى**- تحقيق: مطبعة عيسى الحلبي 1954م.
- المراكشي عبد الواحد :
  - **المعجب المغرب في تلخيص أخبار المغرب** المغرب سلا مطبعة الثقافة 1352هـ/ 1938م.
- امرؤ القيس:
  - **الديوان** -كرم البستاني- دار بيروت للطبع والنشر.
- مصطفاي رشيد:
  - **تلمسان في الأدب العربي**- بحث بمجلة الأصالة - السنة الرابعة العدد 26 جويليا- أوت 1975م.
- مصطفى العيلاني:
  - **رجال المعلقات العشر** - منشورات المكتبة العصرية- صيدا بيروت – ط/2
- المقري شهاب الدين أبو العباس أحمد:
  - **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** تحقيق: إحسان عباس يروت دار صادر ب 1968م.- المطبعة الميرية المصرية.
- موسى حسن يوسف والصّعيدي عبد الفتاح:
  - **الإفصاح في فقه اللغة**- ط/2- دار الفكر العربي-
- النباهي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي:
  - **تاريخ قضات الأندلس** - تحقيق: عبد القادر الستار أحمد فراج الأصفهاني.- لبنان بيروت المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع- د.ت
- النابغة الذبياني:
  - **الديوان** -كرم البستاني- دار صادر بيروت المؤسسة العربية تونس د.ت.

- نويهض عادل:
  - **معجم أعلام الجزائر** نقلا عن الذّيل والتكملة لابن عبد المالك طبع في بيروت.
- النّووي:**الإمام الحافظ محيي الدين أبي زكرياء يحيى بن شرف:**
  - **منهل الواردين شرح رياض الصّالحين**- ضبط الأصل الدكتور: صبحي الصالح دار العلم للملايين.
- وجدي:**محمد فريد:**
  - **دائرة معارف القرن العشرين** -دار المعرفة للطباعة والنشر- لبنان بيروت طبعة 1971م
- **وزارة الأنباء والثقافة:**
  - **تلمسان سلسلة الفنّ والثّافة**- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- إسبانيا مدريد، مطبعة ألتاميرا روتوبريس ش.م- ديسمبر 1971م.
- **يحيى بوعزيز:**
  - **الموجز في تاريخ الجزائر**- دار الطليعة للطباعة والنشر ط/1- 1965م.
- يحيى الشيخ صالح:
  - **شعر الثورة عند مفدي زكرياء**، دار البعث للطباعة والنشر - قسنطينة -الجزائر ط/1- 1987م.
- **يوسف خليل:**
  - **ذو الرمّةشاعر الحبّ والصحراء** - دار المعرف بمصر سنة 1970م

المراجع باللغة الأجنبية:

1-ABADI Louis
Tlemcen au passé retrouvé
Edition jacques Gandini- France 1994.
2-BENACHENHOU Abdel Hamid
La dynastie almoravide et son art
E.P.A. Alger -1974.
3-CORRIETE F.
DICCIONARIO. ESPANOL-ARABE
Instituto Hispano Arabe de cultura MADRIO 1970.
4- LAUFER Roger et LE CHARBONNIERBernard
Litterature et langages,
Edition Fernard Nathan, 1974.
5-MARCAIS George
L'art de L'ISLAM , les Monuments arabes de Tlemcen
Revue Africaine, societe historique Algerienne 1857.
6-.Millet R. les Almohades
Histoire d'une dynastie bèrbère,
Paris 1929.
7-.Piesse L.
Itinéraire de l'Algérie,
Hachette, Paris 1862.
8-TERRASSE Henri:
Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorats Francais
Casablanca –Maroc 1949.

الفهـرس

المقدمـــة: 1

المدخـــل: بيئـــة ابن خميس 6

الفصل الأول: عصره

الحالة السيـــاسية.....16

الحالة الاقتصادية 21

الحالة الاجتماعية 29

الحالة الفكـــرية.....32

الفـــصل الثـــانى: حيـــاتـــه

نـــسبـــه.....37

مـــولـــده.....38

نشـــأتـــه 41

رحلاتـــه 44

وفـــاتـــه 52

آثاره الشعرية 54

الفصل الثالث: موضوعاته الشعرية

المـــدح 57
الفـــخـــر 84
الحنـــيـــن 92
الطبيعـــة 100
الـــزّهـــد 118

الفصل الرابع: الخصائص الفنية

اللغة والأسلوب 130
الصّنعة الفنّيـــة 159
الموسيـــقى الشعـــرية 181
الأوزان والقـــوافي 192

الخـــاتمـــة 205

المصادر والمراجع 209

الفهرس 222